

جريمة في حفلة صيد

أنطون تشيخوف

- ♦ المؤلف: أنطون تشيخوف
- ♦ العنوان : جريمة في حفلة صيد
- ♦ ترجمة : يوسف نبيل
- ♦ الطبعة : الأولى 2021
- ♦ تصميم الغلاف : عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر : سوسن بشير
- ♦ المدير العام : مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ٥٤٦١

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 293 - 3

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ / ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ / ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٢٧٨٧ / ٠١١١١٦٠

أنطون تشيخوف
جريمة في حفلة صيد

ترجمة
يوسف نبيل

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

تشيخوف، أنطون
جريمة في حفلة صيد
ترجمة: يوسف نبيل
ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2021
304 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 5461 / 2021
الترقيم الدولي 3 - 293 - 765 - 977 - 978
1 - روايات
2 - العنوان

مقدمة

لا يحتاج أنطون تشيخوف إلى تقديم، لذلك سأكتفي بالإشارة إلى بعض الملاحظات القصيرة بخصوص ذلك العمل وترجمته.

صدرت هذه الرواية في عام ١٨٨٤، وهذا يعني أن أنطون تشيخوف أتمها في مرحلة سنية مبكرة جدًا؛ ٢٤ عامًا فقط. تشير تلك الحقيقة إلى موهبته المتفجرة. من الملاحظات المهمة كذلك بشأن تلك الرواية هي أنها الرواية الأولى والأكبر لتشيخوف. من الأمور المشوقة كذلك أنها تندرج -نوعًا ما- تحت إطار أدب الجريمة. كيف يمكن أن يكتب أنطون تشيخوف رواية جريمة مثيرة؟ هذا ما سيكتشفه القارئ في ذلك العمل.

استغل تشيخوف الشكل البوليسي والحبيكات الرائجة في ذلك الوقت ليقدم لنا عملاً رائعاً يكشف عن حجم موهبته الأدبية في مرحلة مبكرة، وبدلاً من أن يجد القارئ نفسه أمام قصة بوليسية سهلة ومسلية، سيجد نفسه أمام موهبة مبهرة تعرف طريقها إلى رسم أعماق الشخصية الروسية والإنسانية عموماً.

عنوان الرواية الرئيس «دrama حفلة صيد»، ولكنني فضّلت أن أجري تغييراً طفيفاً عليه «جريمة في حفلة صيد»، لغرابة العنوان بعض الشيء، كما أن الدرامa المقصودة في الرواية تتعلق في الأساس بجريمة. حافظت داخل العمل على ترجمة العنوان بصورة مباشرة، واكتفيت بإجراء ذلك التغيير الطفيف على الغلاف الخارجي، وهو أمر مقبول في التعامل مع بعض العناوين.

نحن أمام محاولة تشيخوف الأولى والأخيرة لكتابة رواية طويلة نسبياً، وهو أمر شديد الأهمية لكل عشاق تشيخوف، بالإضافة إلى أهميته الخاصة لكل دارسي أدبه. أتمنى أن أكون قد وفّقت في ترجمة هذه الرواية.

جرّيمّة في حفلة صير

(حادثة حقيقية)

حدث في ظهيرة أحد أيام شهر إبريل من عام ١٨٨٠ أن دخل الحارس أندريه، وأبلغني بطريقة غريبة أن سيدًا ما قد جاء إلى غرفة التحرير، وطلب بإصرار أن يلتقي برئيس التحرير. أضاف أندريه:

- لا بد أنه موظف حكومي. ثمة عقدة من الأشرطة على قبعته.

- اطلب منه أن يأتي في وقت آخر. أنا مشغول اليوم. قل له إن رئيس التحرير لا يستقبل زيارات سوى في أيام السبت.

- لقد جاء أول أمس وطلب لقاءك. يقول إن الأمر مهم. إنه يتوسل من أجل اللقاء، ويكاد يبكي. يقول إنه لا يستطيع أن يأتي يوم السبت... هل تسمح بلقائه الآن؟

تنهدتُ وتركتُ القلم من يدي، واستعددتُ للقاء هذا السيد ذو القبعة المزينة بعقدة من الأشرطة. الكُتّاب المبتدئون، وبشكل عام كافة غير المطلعين على أسرار التحرير، والذين تتتابههم الرهبة من سماع كلمة «التحرير»، يجبرونك على الانتظار مدة غير هينة. بعد أن يقول رئيس التحرير «أدخله!» يطول سعالهم وتمخطهم، ويفتحون الباب ببطء،

ويدخلون على نحو أبطأ، وبهذا يستهلكون من وقتك مدة غير هينة. أما هذا السيد ذو القبعة المزينة بعقدة من الأشرطة لم يجبرني على انتظاره. لم يكد أندريه يغلق الباب من خلفه، حتى رأيت في مكتبي رجلاً طويل القامة عريض المنكبين، يحمل رزمة من الأوراق بيد مرتعشة، وباليد الأخرى يمسك قبعته المزينة.

هذا الرجل الذي سعى إلى لقائي يلعب في قصتي دورًا بارزًا للغاية، وبالتالي عليّ أن أصف مظهره الخارجي.

كما ذكرتُ هو طويل القامة، عريض المنكبين، ممتلئ كجواد عربية جيّد. يشي جسده كاملاً بالصحة والقوة. وجهه بيضاوي، وذراعه طويلتان، وصدره واسع، وعضلاته قوية، وشعره سميك كصبي في تمام الصحة. لا يتجاوز سنه الأربعين. كانت بدلته من التريكو، على أحدث صيحة، حيكت حديثاً. على صدره سلسلة ذهبية كبيرة ذات حلقات، وفي خنصره يلمع خاتم ماسي ذو نجوم دقيقة ساطعة. لكن الأهم من كل ذلك، والأمر الذي لا يخلو من أهمية لكل بطل رواية أو قصة هو أنه باهر الجمال. لستُ امرأة أو فناناً، وفهمي محدود لجمال الرجل، ولكنّ هذا السيد ذا القبعة المزينة بعقدة من الأشرطة ترك فيّ انطباعاً قوياً. ظل وجهه القوي العريض عالماً في ذاكرتي طوال الوقت. يمكنك أن ترى في هذا الوجه أنفاً يونانياً حقيقياً ذا حدة، وشفتين دقيقتين وعينين زرقاوين جميلتين، تلمع فيهما الطيبة، وستجد فيه شيئاً آخر يصعب أن تجد له تسمية ملائمة. يمكنك ملاحظة هذا الشيء في أعين الحيوانات الصغيرة عندما تحزن أو تتألم.... شيء يشي بالتوسل والطفولية ومعاونة مذعنة...

إنك لا تجد مثل هاتين العينين لدى الماكرين وشديدي الذكاء.

كان الوجه العريض كله يفوح بالبساطة والصدق، ويكشف عن شدة بساطة صاحبه... إن كان الوجه فعلاً مرآة الروح، لكان بإمكانني منذ أول لقاء لي بهذا السيد ذي القبعة المزينة أن أجزم بأنه غير قادر على الكذب، بل لكان بإمكانني أيضاً أن أراهن على ذلك.

سيدرك القارئ فيما بعد ما إن كنت سأربح رهاني هذا أم لا.

الشعر كستنائي اللون، واللحية كثيفة وناعمة كالحرير. يُقال إن نعومة الشعر دلالة على نعومة ورقة الروح... يتميز المجرمون والأشرار والمتعنتون في أغلب الأحيان بشعر خشن. أما إن كان هذا صحيحاً أيضاً أم لا، فهذا ما سيعرفه القارئ فيما بعد... لم تكن ملامح وجهه ولا لحيته بنعومة ورقة حركة الجسد الضخم والثقيل لهذا السيد ذي القبعة المزينة. تكشف حركات جسده عن التهذيب والرقّة والكياسة، بل -وسامحوني على هذا التعبير- وعن بعض الأنوثة كذلك. لا يتطلب الأمر جهداً كبيراً من بطلي كي يشني حدوة فرس أو يُشوّه علبة سردين تماماً داخل قبضته، وفي الآن ذاته لم تلح منه حركة واحدة تكشف عن قوته البدنية. يُمسك القلم والقبعة كما لو أنه يُمسك فراشة؛ تلمسهما أصابعه بلطف وحذر وخفة. بالنظر إليه تتناسى أنه قوي كجليات^(١)، وأنه قادر أن يرفع بيد واحدة ما لا يستطيع رفعه خمسة رجال من قبيل حارسنا أندريه. بالنظر إلى حركاته الرقيقة لا يسعك أن تصدق قوته

(١) جليات في «العهد القديم» هو جالوت في القرآن. كتبه جليات بحسب ثقافة الكاتب المسيحية ولغته.

وثنقل جسده. لو كان سينسر^(٢) قد رآه لأطلق عليه «نموذج السمو».

عندما دخل إلى مكتبي، شَعَرَ بالارتباك. ربما وجهي المكفهر ومظهري النام عن عدم الرضى قد صدمتا طبيعته الحساسة الرقيقة.

بدأ حديثه بصوت باريتون^(٣) رخم رقيق قائلاً:

- فلتعذرني بحق الله. أعلم أنني أقتحمك في وقت غير مناسب،
وأني أجبرك على أن تجعلني حالة استثنائية. أعلم كم أنتم
مشغولون، ولكن الأمر يا سيدي رئيس التحرير هو أنني سأسافر
غداً إلى أوديسا لأمر شديد الأهمية. صدقني لو كان بإمكانني
تأجيل سفري هذا إلى يوم السبت لما كنت قد طلبت منك أبداً أن
تقبل لقائي اليوم كحالة استثنائية. أنا أحترم القواعد لأنني أحب
النظام...

قلتُ في نفسي بينما أمد يدي إلى القلم لأجعله يدرك أنني مشغول
«كم يتحدث كثيراً!!»، كنت حينها قد تعبت فعلاً من الزوار.

واصل بطلي حديثه بنبرة اعتذار:

- لن آخذ من وقتك أكثر من دقيقة، ولكن اسمح لي قبلاً أن أقدم

(٢) هيرت سينسر: فيلسوف بريطاني، مؤلف كتاب «الرجل ضد الدولة». كان سينسر، وليس داروين، هو الذي أوجد مصطلح «البقاء للأصلح»، رغم أن القول يُنسب عادة لداروين. وقد ساهم سينسر في ترسيخ مفهوم الارتقاء، وأعطى له أبعاداً اجتماعية، فيما عُرف لاحقاً بـ: الدارونية الاجتماعية.

(٣) نوع من أصوات الغناء الرجولي، والتي تحتل نطاقاً في المجال الصوتي بين باس وتينور. تعني كلمة باريتون في اللغة الإغريقية «عميق». يصنف صوت الباريتون بأنه يحتل المجال بين نغمة F الثانية تحت C الوسطى حتى F فوق C الوسطى في الموسيقى الكورالية.

لك نفسي: إيفان بتروفيتش كاميشيف، حاصل على شهادة في القانون ومحقق قضائي سابق. ليس لديَّ شرف أن أكون واحدًا من زمرة الكتّاب، ولكنني جئت إليك رغم ذلك لأهداف تتعلق تمامًا بكاتب. أمامك شخص يود أن يصبح كاتبًا مبتدئًا بالرغم من اقترابه من الأربعين. ولكن البدء متأخرًا أفضل من عدم البدء مطلقًا.

- يسعدني لقاءك. كيف أستطيع أن أخدمك؟

جلس الراغب في أن يكون كاتبًا مبتدئًا، وواصل حديثه، وعينه مصوبتان إلى الأرض بتوسل:

- لقد جلبت لك رواية صغيرة الحجم أريد أن تنشرها في صحيفتك. أقول لك بصراحة يا سيدي رئيس التحرير: لم أكتب روايتي بهدف نيل مجد أدبي، ولا من أجل تلقي المديح، فقد كبرت على ذلك. إنني أسلك طريق التأليف ببساطة لدوافع تجارية تمامًا... أريد أن أجنبي بعض المال... ليست لديَّ أي مشاغل الآن على الإطلاق. عملت محققًا قضائيًا لمدة خمسة أعوام بمقاطعة (س) لكنني لم أجن ثروة ولم أحفظ حتى براءتي...

حدّق في كاميشيف بعينه الطيبتين وابتسم بهدوء.

- الوظيفة الرسمية مزعجة... عملتُ وعملتُ حتى ضجرت وانتهيت. ليست لديَّ مشغوليات الآن، وليس لديَّ أي مورد رزق تقريبًا. لو نشرت روايتي بالرغم من عدم جدارتها، فإنك ستسدي إليَّ خدمة كبيرة. سوف تساعدني. أعرف أن الصحيفة

ليست مؤسسة خيرية أو ملجأ للمحتاجين، ولكن أتمنى أن
تتحلى بالطيبة...

قلتُ في نفسي: «كاذب!».

فتنته وخاتمه يُكذِّبان توسله من أجل كسرة خبز، بالإضافة إلى
أن ثمة سحابة قد ظللت وجه كاميشيف... سحابة لا تلاحظها سوى
الآعين الخبيرة على أوجه من يندر أن يكذبوا.
سألته:

- ما موضوع روايتك؟

- موضوعها... كيف أشرحه لك؟ الموضوع ليس جديداً... حب
وقتل. أقرأها وسترى بنفسك «من مذكرات محقق قضائي».

يبدو أنني عبست؛ لأن عينا كاميشيف بدأتا تطرفان بارتباك، وبدأ
يتحدث سريعاً قائلاً:

- كتبت روايتي على طريقة روايات المحققين القضائيين السابقين،
ولكنك ستجد فيها الحقيقة... كل ما صوّرت فيه، من بدايتها
وحتى نهايتها، قد رأيته بعيني. كنت شاهداً على أحداثها، بل
وكنت أحد شخوصها الحقيقيين.

- الحقيقة لا تهّم، وليس من الضروري أن ترى الحدث بعينيك
كي تصفه... ليس لذلك أهمية. ما يهم هنا هو أن جمهور قرائنا
البائس قد أنخم بكتابات جابوريو وشكلياريفسكي^(٤) ومل

(٤) إميل جابوريو: كاتب فرنسي ورائد في الأدب البوليسي. شكلياريفسكي: كاتب روسي اشتهر
في تلك الفترة برواياته البوليسية.

منها. لقد ملوا جرائم القتل الغامضة وحيل المحققين وسرعة استجواب الشهود المفرطة. لدى القراء بالطبع أذواق مختلفة، لكنني أتحدث عن تلك النوعية من القراء التي تتابع صحيفتي. ما عنوان روايتك؟

- دراما في حفلة صيد.

- اممم... عنوان لا يصلح كما ترى... حسنًا، قصارى القول لقد تراكمت لديّ كومة هائلة من المواد بحيث يستحيل عليّ قبول مواد جديدة، حتى إن لم يكن هناك شك في جدارتها.

- أرجوك اقبل عملي. تقول إن العنوان غير صالح، ولكن يصعب أن تحكم على عنوان عمل لم تقرأه بعد، ولا يمكن بالطبع أن يكون الأمر عائدًا إلى عدم تصديقك لأن المحققين القضائيين بإمكانهم أن يكتبوا أعمالًا جادة، أليس كذلك؟

قال كاميشيف كل ذلك متلجلجًا، منهمكًا في تدوير قلم رصاص بين أصابعه ناظرًا إلى قدميه. أنهى حديثه بارتباك شديد، وأخذت عيناه تطرفان. أشفقتُ عليه. قلتُ له:

- حسنًا... اتركها، لكنني لا أعدك بأنها سوف تُنشر سريعًا. سيتوجب عليك أن تنتظر.

- طويلاً؟

- لا أعرف... ربما شهران أو ثلاثة.

- إنها مدة طويلة قليلاً، لكن ليس بوسعي أن ألح أكثر من ذلك.
فليكن كما تقول.

نهض كاميشيف والتقط قبعته قائلاً:

- شكراً على سماحك بلقائي. سأعود الآن إلى المنزل، وأغذي نفسي بالآمال. ثلاثة شهور من الأمل! لا بد أنني أزعجتك.
يشرفني أن أحييك الآن قبل انصرافي.

قلتُ له بينما ألقى نظرة على دفتر مخطوطته السميك المتهرئ المتواضع:

- اسمح لي بكلمة واحدة. القصة مكتوبة بضمير المتكلم. هل يعني هذا أنك أنت هو شخصية المحقق القضائي؟

- نعم، ولكن باسم عائلة مختلف^(٥). إن دوري هنا في الرواية فاضح إلى حد ما. ستكون حماقة لو كتبت اسمي الحقيقي.
حسنًا... خلال ثلاثة شهور؟

- نعم، ليس قبل ذلك رجاءً.

- كُن بصحة جيدة!

حيّاني المحقق القضائي السابق بكياسة وأمسك بعضادة الباب الخشبية بحذر تاركاً عمله على طاولتي. تناولت الدفتر ووضعت في أحد الأدراج.

(٥) في روسيا يشتهر المرء عادة باسم العائلة لا باسمه الأول، مثلما هو الحال مع تشيخوف أو تولستوي.

ظلت رواية كاميشيف الوسيم في درجي شهرين. تذكرتها ذات مرة، أثناء استعدادي للذهاب من مكتب التحرير إلى منزلي الريفي^(٦)، وأخذتها معي.

بينما كنت في عربة القطار فتحتُ الدفتر وبدأتُ في قراءة بعض المقاطع من منتصف الرواية. أثارت هذه المقاطع اهتمامي. في مساء اليوم ذاته، وبالرغم من انعدام الهدوء، قرأتُ الرواية كلها حتى كلمة «تمت» المكتوبة بخط عريض. أعدتُ قراءتها كاملاً أثناء الليل، ومع حلول الفجر أخذت أذرع الشرفة الخارجية ذهاباً وإياباً، فاركاً صدغيّ كما لو أنني قد أردت أن أزيل من رأسي فكرة جديدة انسلت لا إرادياً إلى رأسي وأخذت تعذبه. عذبتني الفكرة حقاً، وكانت حادة بدرجة لا تُحتمل... بدا لي أنني أنا - لا المحقق القضائي وليس حتى الطبيب النفسي الذي يعاون هيئة المحلفين - من اكتشف سرّاً مريعاً لإنسان؛ سرّاً ليس من شأني مطلقاً. أخذت أذرع الشرفة وحاولت أن أقنع نفسي بألا أصدق اكتشافي ذلك...

لم تُنشر رواية كاميشيف في صحيفتي لأسباب سوف أوضحها لاحقاً للقارئ. سوف ألتقي مع القارئ مجدداً، أما الآن سأتركه طويلاً مع رواية كاميشيف.

لا أستطيع أن أقول إنها رواية بارزة. ثمة مقاطع قد طالها الإسهاب كما أنها فجأة بعض الشيء. الكاتب ضعيف في كتابة العبارات المؤثرة والقوية... من الواضح أنها المرة الأولى التي يكتب فيها، ويلوح ذلك

(٦) اعتاد الكثيرون من الروس الانتقال إلى منزل ريفي لقضاء فترة الصيف هناك.

في أسلوبه الغريب المتسم بقدر من الفظاظ... ولكن في كل الأحوال
تسهل قراءة الرواية. ثمة حبكة وفكرة، والأهم من كل ذلك أنها أصيلة
ومميزة للغاية، وكما يقولون: *sui generis*^(٧). كما أنها تتسم ببعض
السمات الأدبية المستحقة. إنها تستحق القراءة.
ها هي:

(٧) فريدة (بالإيطالية).

دراما في حفلة صير

(من مذكرات محقق قضائي)

- زوج قتل زوجته! آه، يا لغبائه! أعطني بعض السكر!

أيقظتني هذه الصيحة. تمطعتُ شاعرًا بالتوعلك والثقل في جميع أجزاء جسدي... يمكن أن يشعر بالمرء بالخدر في ذراعه أو قدمه، لكنني في تلك المرة شعرت بالخدر في جسدي كله، من رأسي وحتى أخمص قدمي. إن قيلولة بعد الغداء في جو خائق مع أزيز الذباب والبعوض لا تُقوّي المرء، بل تبعث فيه الوهن. نهضتُ بوهن شديد والعرق يغمرني وذهبت إلى النافذة. كانت السادسة مساءً. كانت الشمس لا تزال متوهجة تبعث حرارتها بنفس قوتها التي كانت منذ ثلاث ساعات. لا تزال هناك فسحة من الوقت حتى تغرب ويعتدل الطقس.

- زوج قتل زوجته!

قلت ناقرًا برفق على أنف إيفان ديميانيتش:

- كفى كذبًا يا إيفان ديميانيتش! لا يقتل الأزواج زوجاتهم سوى في الروايات وحسب، في المناطق الاستوائية حيث تتأجج العواطف الأفريقية القوية يا عزيزي. أما هنا فيكفينا من الفضائع السطو أو انتحال شخصية أخرى.

تمتم إيفان ديميانيتش عبر أنفه المعقوف:

- السطو! كم أنت غبي!

- ولكن ما العمل يا عزيزي؟ ما ذنبنا في الحدود المُقرَّرة لعقلنا؟ بالإضافة إلى ذلك لا يُلام المرء يا إيفان ديميانيتش إن تحاقق في مثل هذا الطقس. أنت بالنسبة لي ذكي، لكن من المحتمل أن يصيب الضعف والغباء عقلك من فرط الحرارة.

طائري العزيز الثرثار لا يدعى ببغاء ولا أي اسم طائر آخر، بل يُدعى إيفان ديميانيتش. تصادف تمامًا أن دُعي بهذا الاسم. ذات مرة حينما كان خادمي بوليكارب يُنظف قفصه توصل فجأة إلى اكتشاف، في غيابه كان من الممكن أن يظل طائري النبل يُدعى ببغاء... لمعت فكرة فجأة في ذهن ذلك الكسول مفادها أن أنف ببغائي يشبه جدًا أنف حوزينا القروي إيفان ديميانيتش، ومنذ ذلك الحين التصق به اسم وكنية حوزينا ذي الأنف الطويل. منذ ذلك الحين فصاعدًا، عمَّد بوليكارب والقرية بأكملها طائري الهمجي باسم إيفان ديميانيتش^(٨). اكتسب الطائر شخصية بشرية

(٨) اعتاد الروس حين يُعمدون الطفل ليصبح مسيحيًا بحسب طقس الكنيسة، أن يطلقوا عليه اسمًا آخر خاص بمعموديته.

إذَنْ بحسب إرادة بوليكارب، وفقد الحوذي اسمه، وسيظل حتى آخر يوم من حياته معروفاً بين القرويين باسم «بيغاء المحقق القضائي».

اشترتُ إيفان ديميانيتش من والدته المحقق القضائي السابق بوسلييوف، والذي رحل قبل تعييني بفترة قصيرة. اشتريته بالإضافة إلى قطعة أثاث غريبة من خشب البلوط، وأغراض مطبخية تافهة، وكافة الأغراض المنزلية بشكل عام التي تبقت بعد رحيل المرحوم. لا تزال جدران مزينته حتى الآن بصور أقربائه، وفوق فراشي لا تزال صورته الشخصية معلقة. كان الراحل نحيلًا جدًا بشاربين ضاربين إلى الحمرة وشفة سفلية كبيرة، يظهر في الصورة جالسًا، ناظرًا بعينين متفتحتين صوب الهيكل المقوس الباهت، لا يُنحّي نظره عني طوال الوقت ما دمت مستلقيًا على الفراش... لم أزل من على الحائط صورة واحدة. قصارى القول: تركتُ الشقة كما استلمتها تمامًا. أنا شديد الكسل على التفكير في وسائل راحتي الشخصية، ولا أمانع أن يعلقوا على حوائطي، ليس فقط صور الراحلين، بل حتى الأحياء إن أرادوا ذلك^(٩).

كان إيفان ديميانيتش يشعر بالاختناق مثلي تمامًا. أخذ ينفذ ريشه وينفخ جناحيه ويصيح عاليًا ببعض العبارات التي كان سلفي بوسلييوف قد درّبه عليها، وكذلك بوليكارب. استلقيتُ أمام القفص بهدف شغل نفسي في فترة راحتي بعد تناول الغداء، وأخذت أراقب حركات البيغاء

(٩) أرجو أن يعذرني القارئ على استخدام مثل هذه التعبيرات. تمتلئ رواية كاميشيف البائسة بمثل هذه التعبيرات، وإن لم أكن قد أزلتها، فالسبب الوحيد يعود إلى شعوري بأهميتها لتوضيح رغبة المؤلف في نشر روايته، بصورة جلية من دون ثغرات. (أنطون تشيخوف).

الباحث بكل قوته عن مخرج من هذا العذاب المتمثل في الجو الخانق
والحشرات المترددة على جناحيه. بدا المسكين بائسًا جدًا...

تناهى إليّ صوت عميق من الشرقة الخارجية:

- متى يستيقظون؟

أجاب صوت بوليكارب:

- الأمر يختلف، أحيانًا يستيقظ في الخامسة، وأحيانًا ينام طوال
فترة الصباح... من الواضح أنه ليس لديه ما يفعله.

- أنت خادم خاص لديهم، أليس كذلك؟

- أنا خادم، ولكن لا تزعجني... صه! ألا ترى أنني أقرأ؟

عرجتُ على الشرفة الخارجية. وجدتُ هناك عزيزي بوليكارب
مستلقيًا فوق صندوق أحمر ضخّم يقرأ كتابًا ما كعادته. كان يُحدّق في
الكتاب بعينه الناعستين اللتين لا تطرفان أبدًا أثناء النظر إلى الكتاب،
وكان يزّم شفّتيه ويعبس. من الواضح أنه قد استاء من حضور هذا
الغريب. كان الغريب فلاحًا ملتحيًا طويل القامة، واقفًا أمام الصندوق،
يُحاول بكد أن ينخرط في حديث معه. بظهوري بالمكان ابتعد الفلاح
خطوة عن الصندوق وشدّ جسده كالخيّط بطريقة عسكرية. رسم
بوليكارب ملامح عدم الرضى على وجهه، ونهض بخفة دون أن يُنحّي
عينيه عن الكتاب. سألتُ الفلاح:

- ماذا تريد؟

- أرسلني الكونت إليكم يا صاحب المعالي. الكونت يرسل تحياته إليكم ويسأل سيادتكم أن تأتوا إليه فوراً.

سألت متعجباً:

- هل أتى الكونت؟

- نعم كما تقول يا صاحب المعالي. وصل ليلة أمس. هذا خطاب منه إليكم.

قال خادمي بوليكارب:

- أي شيطان قد أتى به؟ عشنا في هدوء بغيابه صيفين متواصلين، واليوم يأتي ليُحوّل الضيعة إلى زريبة خنازير مجدداً. لن نفلت من الخزي مجدداً.

- صمتاً! لم أسألك رأيك.

- لست في حاجة لأن تسألني عن رأيي، سأقوله من نفسي. ستعود من عنده ثملاً مجدداً، وتسبح في البحيرة بكافة ثيابك، وسيتوجب عليّ تنظيفها بعد ذلك، وسيستغرق تنظيفها كلية أكثر من ثلاثة أيام!

سألت الفلاح:

- ماذا يفعل الكونت الآن؟

- عندما أرسلني إلى سعادتك كان يستعد لتناول الغداء. قبل الغداء انهمك في صيد سمكة من حوض السباحة. بماذا تأمرني سعادتك أن أجيبه؟

فضضت المظروف وقرأت الخطاب:

عزيزي ليكوك^(١٠)... إن كنت لا تزال حيًّا، فمرحبًا، وعسى ألا تكون قد نسيت صديقك الثمل دائمًا. لا تترث ثانية واحدة، وارثك ثيابك وأسرع إليَّ. وصلت ليلة أمس وحسب، لكنني أكاد أموت من فرط الملل. أنتظر بك تلطف لا حدود له. أردت أن أعرج عليك بنفسني وأصطحبك إلى عريني، لكن فرط الحرارة قد صفد أعضائي كلها. أجلس في مكان واحد، محاولًا جلب الهواء بالمروحة. ولكن كيف حالك؟ وكيف حال طائر الذكي إيفان ديميانيش؟ ألا يزال ينازع طوال الوقت خادمك المتحذلق بوليكارب؟ تعال سريعًا واحك لي. المخلص إليك أ. ك.

لم يكن الأمر يتطلب النظر إلى التوقيع للتعرف على الخط الخشن الرديء لصديقي الثمل الكونت ألكسي كارنييف الذي لا يكتب إلا نادرًا. قصر الخطاب وتظاهره ببعض المرح وسلاسته شهدت على أن صديقي قليل الذكاء قد مزق أوراقًا كثيرة قبل أن يتمكن من كتابة هذا الخطاب.

يغيب عن الخطاب مثلًا الاسم الموصول «الذي» ويتجنب الخطاب باجتهاد أي اسم فاعل، وكلاهما أمران نحويان يندر أن ينجح فيهما الكونت في جلسة واحدة.

(١٠) شخصية من ابتكار إميل جابوريا، وهو كاتب وصحفي فرنسي من القرن التاسع عشر. الشخصية عبارة عن مُخبر خيالي يستخدمه الأمن الفرنسي، وهو واحد من الشخصيات الرائدة في هذا النوع، وكان لها تأثير كبير على شيرلوك هولمز.

كرر الفلاح سؤاله:

- بماذا تأمرني سعادتكم أن أجيبه؟

لم أُجب مباشرة عن هذا السؤال، وهكذا كان سيفعل أي إنسان بارع في موقعي. كان الكونت يحبني ويربط نفسه بصداقة مخلصه بي، أما أنا فلم تكن لديّ تجاهه أي مشاعر شبيهة بالصداقة، ولم أكن حتى أحبه. كان من الأشرف لي إذن أن أرفض صداقته نهائياً بدلاً من أن أذهب إليه وأنافقه. كان الذهاب إلى الكونت يعني السقوط مجدداً في فخ تلك الحياة التي وصفها بوليكارب بحظيرة الخنازير؛ تلك الحياة التي انخرطت فيها منذ عامين قبل أن يرحل الكونت من هنا إلى بترسبرج، والتي رجّت قوة صحيتي بشدة، وأوهنت عقلي. لم تستطع هذه الحياة الصاخبة إلى درجة غير معقولة، المليئة بالحسيات وجنون السكر، أن تُقوّض جسدي، بل جعلتني مشهوراً في عموم المقاطعة... أنا مشهور...

وضّح لي العقل الحقيقة كاملة وغمر الخزي وجهي على أفعال الماضي القريب، وخفق قلبي خوفاً من مجرد التفكير في أنني لا أتمتع بالشجاعة الكافية لأرفض الذهاب إلى الكونت، لكنني لم أتردد كثيراً. لم يستمر الصراع داخلي لأكثر من دقيقة، وقلت لرسوله:

- أرسل تحياتي للكونت وأشكره على تفكيره بي وقل له إنني مشغول وأن... قل له إنني...

وفي تلك اللحظة عندما كانت كلمة «لا» على وشك الخروج من فمي بحسم، تملكني فجأة شعور غريب... شاب ممتلئ بالحياة، قوي

ومليء بالرغبات، يقوده قدره إلى تلك الأدغال القروية، وقد تملكته
مشاعر الحزن والوحدة...

تذكرتُ حديقة الكونت بدفيئاتها الفخمة المنعشة، وأزقتها الضيقة
الغسقة المهملة... هذه الأزقة التي يحول بينها وبين أشعة الشمس
قوس من أفرع أشجار الزيزفون القديمة المُضفَّرة... هذه الأزقة
تعرفني... هذه الأزقة تعرف نساءً نشدن بحبي وبالغسق... تذكرتُ
غرفة الاستقبال الفخمة، وهذا الكسل العذب لأرائكها المخملية
وستائرهما وسجاجيدها الكثيفة والناعمة والزغب.. هذا الكسل الذي
أحبته الحيوانات الصغيرة العفية. استعدتُ إلى ذهني الوقاحة التي
كنت أسلك بها أثناء سُكري؛ تلك الوقاحة التي لا تعرف حدودًا،
وتلك الكبرياء الشيطانية واحتقار الحياة. أراد جسدي الضخم الذي
مل النوم أن يضج بالحركة مجددًا...

- قل له إني سأتي!

حيّاني الفلاح وانصرف.

دمدم بوليكارب بسرعة، مُقلِّبًا الكتاب دون هدف:

- لو كنت أعرف ذلك لما سمحت لهذا الشيطان بالدخول.

قلت له بصرامة:

- اترك هذا الكتاب واذهب لُتسرج زورك. أسرع!

- طبعًا تقول «أسرع»! سأسرع فورًا.... ليتَه ذاهب إلى عمل، لكنه

ذاهب ليكسر قرني شيطان ما!

قلت هذه العبارة همساً، ولكن كانه يريدني أن أسمعها. بعد أن تمتم الخادم بوقاحة انتصب أمامي وابتسم بازدياء متوقفاً رد فعل عنيفاً مني، لكنني تظاهرت أنني لم أسمع كلماته. صمتي أفضل وأحذُ سلاح في معاركي ضد بوليكارب. سماحي المليء بالازدياء بأن تمر كلماته بجوار أذني تنزع عنه سلاحه، وتنزع البساط من تحت قدميه. يبدو هذا العقاب أقوى من صفعه على وجهه أو توجيه تيار من الشتائم له. عندما خرج بوليكارب إلى الساحة ليسرج زوركا، نظرت إلى الكتاب الذي عطلته عن قراءته. كان «كونت مونت كريستو»: رواية دوما المريعة... أحمقي المتحضر هذا يقرأ كل شيء، بداية من لافئات الحانات، وحتى كتاب أوجست كونت الذي تركته في صندوقي بصحبة كتب أخرى أهملتها ولم أقرأها بعد. لكن من وسط كافة أكوام هذه الكتابات والمطبوعات لم يختار سوى روايات مربعة ذات تأثير قوي؛ روايات أبطالها سادة نبلاء، وتمتلئ بسموم وممرات تحت الأرض، واعتبر أي كتب أخرى محض هراء. لاحقاً سوف يتوجب عليّ أن أضيف أموراً أخرى فيما يتعلق بقراءاته، أما الآن عليّ التحرك! خلال ربع ساعة كانت حوافر زوركا تثير الغبار على الطريق الممتد من القرية إلى مقاطعة الكونت. كانت الشمس قد قاربت على أن تأوي إلى مخدعها، لكن الحرارة والشعور بالاختناق كان لا يزالان حاضرين... بدت الحرارة شديدة وجافة، رغم أن طريقي كان بامتداد بحيرة ضخمة... على يميني كان متسع من المياه، وعلى يساري لاطفت عيني غابة شابة ريعية مورقة من أشجار البلوط، بينما عانت وجنتي من حرارة صحراوية.

قلت في نفسي «فلتعصف!» مستغرِّقًا في الحلم بأقطار باردة جميلة.

استكانت البحيرة، ولم يتناهَ إليَّ أي صوت سوى عَدْو عزيزتي زوركا. وحده لم يخرق سكون هذا العملاق الساكن زمار الرمل الصغير^(١١). حملقت الشمس في هذا العملاق كما لو أنها تنظر إلى مرآة، وغمرت اتساعه الكبير الممتد من الطريق وحتى الضفة الأخرى البعيدة بضوئها الذي يعمي الأبصار. بدا لعيني التي يعميها هذا الضوء كما لو أن الطبيعة تستمد هذا الضوء من البحيرة لا الشمس.

هذه الحرارة الشديدة والحياة الغنية للبحيرة وشواطئها الخضراء دفعني إلى النعاس. اختبأت الطيور، وتوقفت الأسماك عن إثارة المياه، وانتظرت جنادب وصراصير الحقل أن تبرد الأجواء. كان المكان من حولي برمته قفرًا تمامًا، واقتصر الأمر على سحابة كثيفة من البعوض الساحلي، تثيرها زوركا بين الحين والآخر، كما رأيت بعيدًا داخل البحيرة حركة المراكب الثلاثة السوداء الخاصة بالعجوز ميخي؛ صيادنا العجوز الذي اشترى حق الصيد بالبحيرة كلها.

لم أسلك طريقًا مباشرًا، بل اتخذت طريقًا ملتفًا حول ساحل البحيرة. لم يكن من الممكن السير في طريق مباشر إلا على متن زورق، أما الطرق البرية فكانت تتطلب التفافة كبيرة تزيد من مسافة الطريق ٨ فرسات^(١٢). طوال الطريق وبالنظر إلى البحيرة الضفة الطينية المقابلة

(١١) طائر صغير يعيش بالقرب من البحيرات والشواطئ.

(١٢) الفرست: مقياس روسي قديم يبلغ تقريبًا ١,١ كيلو مترًا.

كنت أرى لمعان بستان كرز مزهر، ومن خلفه كان بإمكانني رؤية حظيرة الكونت والحمام الملون المتناثر، كما لاح لعيني برج كنيسة الكونت. انتصب حوض السباحة قرابة الشاطئ الطيني، وقد سُمر هناك شراع حيث عُلِّقت عليه بعض الثياب لتجف. رأيت كل ذلك، وبدأ لعيني أن قرابة فرست واحد يفصلني عن الوصول إلى الكونت، في الوقت الذي كان الوصول إلى ضيعة الكونت يتطلب مني العدو بالفرس مسافة ١٦ فرستًا.

استغرقت طوال الطريق في التفكير في علاقتي الغريبة بالكونت. كان يروقني أن أقدم لنفسي حسابًا عنها وأن أحاول تنظيمها، ولكن وأأسفاه! بدا لي ذلك الحساب مسألة خارج نطاق قدراتي. مهما فكرت لا أصل إلى قرار، وأصل في النهاية إلى استنتاج أنني حكم سيئ لنفسي، وإنسان سيئ بشكل عام. من يعرفونني ويعرفون الكونت ينظرون إلى علاقتنا المتبادلة بطريقة مختلفة. يحب ضيقو الأفق، ممن لا يستطيعون رؤية شيء أبعد من حافة أنوفهم، أن يؤكدوا على أن الكونت البارز رأى في هذا المحقق القضائي الفقير البسيط رفيق شرب جيد. إنهم يرونني -أنا كاتب هذه السطور- قد زحفت وانسللت إلى طاولة الكونت من أجل أن ألتقط بقايا الكسر التي تسقط منها! وجهة نظرهم هي أن الكونت البارز كان يخشى حسد مقاطعة (س)، وأنه شديد الذكاء وتقدمي، وإلا لما كان هناك تفسير لاتضاعه الذي يجعله يهبط إلى مستوى مصادقة محقق قضائي فقير، ولما كان هناك تفسير لتقدميته التي

جعلته لا يستاء من حديثي إليه بصيغة المفرد^(١٣). أما الأكثر ذكاءً منهم فيفسرون علاقتنا المُقَرَّبة بمصالحنا الروحية المشتركة. أنا والكونت في نفس العمر. كلانا أنهى دراسته في الوقت ذاته والجامعة نفسها، وكلانا محامٍ، وكلانا لا يعرف سوى القليل. لا أزال أتذكر هذا القليل، بينما نسي الكونت وأغرق كل ما عرفه في نوبات سُكره المستمرة. كلانا معتد بذاته، ولأسباب لا يعرفها أحد سوانا ننزل تمامًا عن المجتمع كالهمج. كلانا يخجل من آراء الناس (أي سكان المقاطعة)، وكلانا لا أخلاقي، وكلانا ستكون نهايته سيئة. هذه هي المصالح الروحية التي تجمعنا. ليس لدى الناس المزيد ليقولوه عن علاقتنا.

كان من الممكن بالطبع أن يقولوا المزيد لو عرفوا كم تتسم طبيعة صديقي الكونت بالضعف والرقّة واللين، وكم أنا قوي وصلب. كان من الممكن أن يقولوا الكثير لو عرفوا كم كان هذا الإنسان الضعيف يحبني، ومدى كراهيتي له! هو مَنْ عرض عليّ صداقته أولاً، وأنا مَنْ خاطبته بصيغة المفرد أولاً، ولكن كم كان الفارق بين نبرتنا! في نوبة من نوبات مشاعره الطيبة عانقني وطلب صداقتي بخجل، بينما قلت له وكلبي شعور بالازدراء والاشمئزاز:

– كفاك من هذا الهراء!

وقد اعتبر حديثي له بصيغة المفرد تعبيرًا عن صداقتنا، وردها إليّ منذ ذلك الحين بالتحدث إليّ بصيغة مفرد مخلصّة أخوية...

(١٣) يتحدث الروس بصيغة الجمع دلالة الاحترام.

نعم، كان من الأفضل والأشرف لو كنتُ قد حوّلت زمام زوركا وعدتُ إلى بوليكارب وإيفان ديميانيتش.

فكرت بعد ذلك أكثر من مرة في نفسي قائلاً: «كم كان من الممكن أن أتجنب حمل الكثير من البلايا فوق كتفيّ، وكم كان من الممكن أن أجلب خيرًا للقرابين مني لو تحليلت في تلك الأُمسية بالحسم الكافي واستدرت عائداً، أو لو جن جنون زوركا وأخذتني بعيداً عن هذه البحيرة الكبيرة المربعة! كم كنت سأخلص من ذكريات تجلب لعقلي عذاباً لا يُطاق وتجبرني الآن على أن أترك القلم وأمسك برأسي!»، لكنني لن أستبق الأحداث سريعاً، خاصة أنني سأضطر إلى التفكير في تلك الممرارة كثيراً. فليكن حديثي الآن عن السرور...

وصلتُ بي زوركا إلى بوابات ضيعة الكونت. عند تلك البوابات تعثرت زوركا، وفقدتُ اتزانِي على السرج وكدتُ أن أسقط على الأرض تقريباً.

صاح بي أحد الفلاحين كان واقفاً عند أحد الأبواب القديمة لإسطنبول الكونت:

- نذير شؤم يا سيدي.

أنا أعتقد أن من يسقط من فوق جواد يمكن أن يكسر عنقه، لكنني لا أعتقد في نذر الشؤم. أعطيت العنان للفلاح، ونفضت الغبار عن حذائي طویل العنق بالسوط وهرعت إلى المنزل. لم يلتق بي أحد. كانت النوافذ والأبواب مفتوحة على مصاريعها، ولكن بالرغم من ذلك كانت ثمة رائحة غريبة خانقة بالمكان؛ خليط من روائح الأماكن المهجورة

البالية مع روائح نباتات الدفيئة اللطيفة، لكنها نفّاذة وباعثة على الخدر؛ تلك النباتات التي أتوا بها لتوهم من الدفيئات إلى الغرف... كانت هناك وسادتان مجعدتان في الغرفة على واحدة من الأرائك المنجدة من حرير أزرق فاتح، وأمام الأريكة، على الطاولة المستديرة، رأيت كأسًا لا تزال بها بضعة قطرات سائلة تنبعث منها رائحة بلسم ريحان^(١٤). كان كل ذلك يوحي بأن المنزل مأهول، لكن بدخولي إلى غرفه الإحدى عشرة لم أجد فيه شخصًا واحدًا. سادت تلك الأجواء المقفرة المنزل، كنظيرتها عند البحيرة...

كان هناك باب زجاجي ضخّم بحجرة الجلوس المدعوة سابقًا «الفيسفائية» يؤدي إلى الحديقة. فتحته بطريقة أصدرت ضجيجًا، وهبطتُ من الشرفة الخارجية الرخامية إلى الحديقة. بالسير بضعة خطوات عبر الرواق، التقيت بناستاسيا العجوز ذات التسعين عامًا، والتي كانت مربية الكونت ذات يوم؛ كيان ذابل، نساء الموت، بمقدمة رأس قد علاه الصلع وعينين جاحظتين. عندما تنظر إلى وجهها تجد نفسك تستعيد إلى ذاكرتك تلقائيًا الاسم الذي أطلقتها القرية عليها: «العجوز الشمطاء». ما إن رأيتني حتى ارتجفت وكادت كأس القشدة التي كانت تحملها أن تسقط من يدها. قلت لها:

– مرحبًا أيتها العجوز الشمطاء!

نظرتُ إليّ بارتياح وعبرتُ بجانبني صامتة... أمسكتُ بها من كتفها قائلاً:

(١٤) نوع من أنواع البلسم التقليدي.

- لا تخافي أيتها الحمقاء. أين الكونت؟

أشارت العجوز إلى أذنيها.

- هل أنت صماء؟ هل حدث ذلك منذ فترة طويلة؟

بالرغم من تضعضعها إلا أنها كانت تسمع وترى بصورة ممتازة، لكنها تجد أنه من المبهدي لها أن تدّعي ضعف حواسها. أشرتُ إليها بإصبعي بعلامة تهديد ثم أطلقتها.

ما إن خطوات بضع خطوات أخرى حتى سمعتُ صوتًا، وبعدها بقليل رأيت أناسًا في تلك البقعة حيث يتسع الرواق مُفتحةً على ساحة محاطة بدكك حديدية. كانت هناك طاولة تحت ظلال أشجار السنط البيضاء العالية، يلمع فوقها سماور. انخرط الجالسون حول الطاولة في الحديث. اقتربتُ بهدوء على العشب من الساحة، واختبأت خلف أجمة ليلك، وبحثُ بعينيَّ عن الكونت.

كان صديقي الكونت كارنيف جالسًا إلى الطاولة على مقعدٍ مُثقبٍ قابلٍ للطي يشرب الشاي. كان في رداء مبرقش رأيتُه به منذ عامين، وقبعة من القش. لاح الكدر على وجهه، وبدا مجعد الثنايا، بشكل قد يجعل أي إنسان لا يعرفه يظن أن فكرة رهيبة أو قلقًا ما كان يعذبه في تلك اللحظة، من الناحية الظاهرية لم يتغير الكونت خلال فترة غيابه التي امتدت إلى عامين. لا يزال جسده ضئيلاً نحيلًا لينًا ورخوًا كمرعة الغيط^(١٥). لا يزال بنفس الكتفين الضيقتين المسلولتين، بمقدمة شعر

(١٥) طائر يشبه الدجاج المنزلي، وهو يفضل المشي والجري عن الطيران، محاولًا الاختباء بين الأشجار والأعشاب الكثيفة في حال وجود أي خطر.

صغيرة ضاربة إلى الحمرة. أنفه وردي كما كان، ووجنتاه كما كانتا منذ عامين: خائرتين متدلّيتين كالخرق. لا تبدو على وجهه أي إمارة شجاعة أو قوة ذكورية... كل شيء فيه ضعيف، خامل وواهن. الشيء الوحيد الذي يبدو فيه فخماً وكبيراً هما شارباه المشذبان المتدليان. قال أحدهم لصديقي إن منظر الشوارب الطويلة يليق عليه. صدّقه، وواظب كل صباح على قياس زيادة طول شاربيه فوق شفّتيه الشاحبتين. يشبه شارباه شاربا قط، لكنه قط صغير معتل.

بجانب الكونت جلس إلى الطاولة ذاتها رجل سمين لا أعرفه، بشعر قصير وحاجبين شديدي السواد. كان وجهه سميناً ومصقولاً كالشمام الطري. شارباه أطول من شاربي الكونت، وجبهته صغيرة، وشفّته مذمومتان، وعيناه تحدقان بكسل في السماء... ملامح الوجه ضبابية، لكنها مع ذلك قاسية كالجلد الجاف. لا يبدو على النمط الروسي... لم يكن هذا السمين يرتدي سترة أو صدرية، بل اكتفى بقميص ذي مواضع قاتمة بتأثير العرق. لم يكن يشرب شايًا، بل مياه سيلترز^(١٦).

على مسافة مُعتبرة من الطاولة وقف رجل مكتنز، قصير وبدين ذو قذال أحمر دهني وأذنين بارزتين. كان هذا هو أوربينين مدير أعمال الكونت. ارتدى حلة سوداء جديدة بمناسبة وصول سعادة الكونت، وكان يعاني من العذاب. تصبب العرق من وجهه الأحمر الذي سفّته الشمس. بجانبه كان الفلاح الذي أتاني بخطاب الكونت. حينها فقط

(١٦) علامة تجارية ألمانية من المياه المعدنية الطبيعية مصدرها آبار في منطقة Selters في هيس في جبال Taunus.

لاحظتُ أن هذا الفلاح أعور. انتصب كالوتر، ولم يسمح لنفسه بأدنى حركة. كان واقفًا كالتمثال، في انتظار التعليمات.

همس له مدير أعمال الكونت بنبرة خفيضة عميقة ناعمة وموحية منظمة:

- يجدر بك يا كوزما أن تتناول سوطك وتجلد كل مواطن جسدك بنفسك! أبتلك الطريقة السيئة تنفذ أوامر السيد؟ ألم يتوجب عليك أن تطلب منه الحضور إلى هنا فورًا، وتعرف متى سوف يأتي بالضبط؟

اهتاج الكونت قائلاً:

- نعم، نعم، نعم... كان يجب عليك أن تعرف كل شيء. لقد قال: «سوف آتي»، ولكن هذا لا يكفي. أحتاج أن يحضر إلى هنا فورًا. هذا ضروري. أنت طلبت منه الحضور وهو لم يفهمك.

سأل الرجل السمين الكونت:

- لماذا تحتاج إلى حضوره الآن؟

- أحتاج إلى رؤيته.

- هكذا وحسب؟ في رأيي سوف يكون من الأفضل لو مكث محققك المدعو أليكسي في منزله ولم يحضر. لا أرغب في لقاء ضيوف الآن.

فتحتُ عينيَّ على آخرهما بدهشة. ما الذي عناه هذا السيد بتلك النبرة الآمرة؟

أجابه صديقي بلهجة استعطاف:

- ولكنه ليس ضيقاً. لن يكدر راحتك بعد هذه الرحلة. من فضلك
لا تعامله بطريقة رسمية. سوف ترى بنفسك كم هو إنسان رائع.
سوف تحبه وتصادقه على الفور يا عزيزي.

خرجت من خلف أجسام الليلك وتوجهت إلى الطاولة. رأني
الكونت وعرفني، ولمعت ابتسامة على وجهه المشرق. قال وقد تورّد
وجهه من الرضى، مُبتعداً بسرعة عن الطاولة:

- ها هو! ها هو! كم هو رائع أنك أتيت!

ركض صوبي وعانقني وخدش وجنتي أكثر من مرة بشاريه
الخشنين. بعد أن قبّلني ظل يصافحني بحرارة طويلاً محدقاً في عينيّ.
- لم تتغير كثيراً يا سيرجيه. لا تزال كما أنت؛ بنفس الجمال والقوة.
شكراً أنك وافقت وأتيت.

بعد أن تحررت من معانقة الكونت، حييت مدير أعمال الكونت
الذي أعرفه معرفة جيدة، وجلست إلى الطاولة.

واصل الكونت المضطرب والمبتهج حديثه قائلاً:

- آه يا عزيزي^(١٧)! آه لو عرفت كم تبهجني رؤية ملامح وجهك
الجادة! ألا تعرف؟ اسمح لي أن أقدم لك صديقي العزيز كائيتان
كازيميروفيتش بشيخوتسكي.

ووجّه حديثه للرجل السمين مشيراً إليّ:

(١٧) الكلمة في الأصل تعني حمامة صغيرة، ولكن رأيت أن أترجمها بـ: عزيزي.

- وهذا صديقي العزيز الذي أعرفه منذ فترة طويلة سيرجيه بتروفيتش زينوفيف، محقق مقاطعتنا القضائي.

اعتدل الرجل السمين ذو الحاجبين الأسودين قليلاً في جلسته، وقدم إليّ يده السمينة المتعركة بشكل رهيب، وتمتم ناظرًا إليّ:
- أهلاً وسهلاً. يسرني التعارف إليك.

بعد أن نفّس الكونت عن مشاعره واستراح، صبّ لي كأساً باردة من شاي بني قاتم، وحرك صوب يديّ صندوقاً من الكعك.

- كُلْ! لقد جلبت هذا الكعك من متجر إينيم أثناء مروري بموسكو. أنا غاضب منك يا سيريوجا^(١٨)... غاضب إلى حد أنني أريد أن أتشاجر معك؛ فعلاوة على أنك لم تكتب إليّ خطاباً واحداً خلال هذين العامين، لم تتعطف حتى بكتابة رد واحد على أي من خطاباتي! لا ينم هذا عن ود.

قلت:

- لا أستطيع أن أكتب خطابات، غير أنني ليس لديّ وقت من الأساس لكتابتها. قل لي ما الذي يمكنني أن أكتب إليك عنه؟

- أقليلة هي الأمور التي يمكن أن تكتب إليّ عنها؟

- نعم، ليس هناك شيء بالفعل. أنا لا أعترف سوى بثلاثة أنواع من الخطابات: خطابات حب - خطابات تهنئة - خطابات تتعلق بالعمل. لم أكتب إليك النوع الأول لأنك لست امرأة، ولستُ طريح غرامك. لست في حاجة إلى النوع الثاني. أما ما يتعلق

(١٨) صيغة تدليل لسيرجيه.

بالنوع الثالث فالحمد لله تخلصنا من عبئه، فلم يحدث أن كانت هناك أبدًا أي شؤون عمل بيننا.

أيّد الكونت حديثي فقد كان يسرع -وكله رغبة- في الموافقة على كل شيء.

- فلنقل إن الأمر كذلك فعلاً، ولكن كان بإمكانك أن تكتب إليّ ولو سطرًا واحدًا. ولكن بيتر يجوريتش يحكي لي عن أنك خلال هذين العامين لم تأتِ إلي هنا أبدًا، كأنك تعيش على بعد ألف فرست! أو ربما تحتقر أملاكي! كان عليك أن تعيش هنا وتصطاد كيفما تشاء، ففي غيابي كان بالإمكان أن يحدث الكثير!

تحدث الكونت كثيرًا وطويلاً. عندما يبدأ حديثه عن أمر ما، يظل يثرثر بلا انقطاع ودون نهاية، مهما كان الموضوع تافهًا أو بائسًا.

لا يكل أو يمل من التحدث، تمامًا مثل طائري إيفان ديميانيتش. لا يمكنني أن أتحمّل هذه المقدرة إلا بصعوبة بالغة. أوقفه تلك المرة حوذيوه إيليا، وهو إنسان طويل القامة، نحيل يبدو في الخمسين تقريبًا، وقد جلب للكونت كأس فودكا على طبق فضي وكوب ماء. شرب الكونت الفودكا، ثم تلاها بالماء وعبس وجهه وهز رأسه.

قلت:

- يبدو أنك لم تتوقف بعد عن شرب الفودكا.

- لا، لم أفارقها يا سيريوجا.

- على الأقل توقف عن عادة السكارى هذه التي تجعلك تعبس وتهز رأسك. إنها منفرة!

- سوف أتوقف عن كل ذلك يا عزيزي. لقد حرّم عليّ الأطباء الشُّرب. السبب الوحيد لشربي الآن هو شعوري بأنني لست على ما يرام... يجب إنجاز الأمر تدريجيًا.

نظرتُ إلى وجه الكونت الشاحب المشوه وإلى الكأس والحودي بحذائه الأصفر... نظرتُ إلى ذلك البولندي ذي الحاجبين الأسودين، والذي بدا لي من الوهلة الأولى لسبب ما وغدًا محتالًا، ونظرتُ أيضًا إلى الفلاح المنتصب ذي العين الواحدة، ومن ثم جفلتُ وشعرتُ بالاختناق... فجأة أردتُ أن أفارق هذه الأجواء القذرة، بعد أن فتحتُ عيني الكونت على كراهيتي غير المحدودة تجاهه. مرت لحظة كنت مستعدًا فيها بالفعل للنهوض من مكاني والانصراف... لكنني لم أنصرف... لاحظت -وكلي خجل أن أعترف بذلك- أنني لم أفعل ذلك ببساطة لمجرد الكسل.

قلت لإيليا:

- أعطني فودكا.

انبسطت ظلال طويلة في الرواق وفي ساحتنا...

رافق غروب الشمس نقيق ضفادع بعيد ونعيب غربان وغناء طيور مغردة. حلت ليلة ريعية...

همستُ للكونت:

- اسمح لأوربينين بالجلوس. إنه واقف أمامك كصبي.

- آه، لم ألحظ ذلك أبدًا.

ثم توجه إلى مدير أعماله وقال:

- بيتر يجوريتش... اجلس رجاء.. هل ستظل واقفًا هكذا؟

جلس أوربينين ونظر إليّ نظرة عرفان. كان يبدو لي دائمًا في تمام الصحة والسرور، لكن تلك المرة بدا لي مريضًا ضجرًا. بدا وجهه مُجعدًا ناعسًا، تنظر عيناه إلينا بكسل وفطور.

سأل كارنيف:

- ما الجديد لدينا يا بيتر يجوريتش؟ هل لدينا أي فتاة جميلة؟

أليس لدينا شيء من هذا القبيل؟ شيء مميز؟

- كل شيء على عهده سعادتك.

- أليست هناك فتيات جميلات يا بيتر يجوريتش؟

احمر وجه بيتر يجوريتش البريء.

- لا أعرف سعادتك، فأنا لا أتدخل في مثل هذه الأمور.

قال كوزما ذو العين الواحدة الذي ظل صامتًا طوال تلك المدة:

- هناك سعادتك... من النوع الذي يستحق الانتباه إليه.

- جميلات؟

- كل الأنواع متوفرة سعادتك، ولكل ذوق؛ السمرء والشقراء ومختلف الأنواع.

- آآه.. توقف، توقف! بدأت أتذكرك الآن يا ليوبريل^(١٩)... أنت سكرتير لي نوعًا ما. اسمك كوزما على ما أظن، أليس كذلك؟ بالضبط.

- أتذكر، أتذكر.. حسنًا، ما الذي لديك الآن؟ هل كلهن فلاحات؟
- أغلبهن كذلك، ولكن ثمّة نوعية جيدة منهن.
- أين أجد هذه النوعية؟
هكذا تساءل إيليا مُحدقًا في عيني كوزما.

- في عيد القديسين سوف تأتي شقيقة ساعي البريد ناستاسيا إيفانوفنا لتقيم معه. فتاة من نوعية ممتازة. لو كانت معي نقود لالتهمتها بنفسي. الخدود متوردة وكل شيء آخر فيها جميل. وهناك نوعية أفضل كذلك في انتظار سعادتكم: فتاة في ريعان الشباب، ذات جسد ريان ورشيق... جمال خارق! لا يمكنك أن تجد سعادتكم مثل هذا الجمال في بطرسبرج.
- مَنْ هي؟

- أولينكا: ابنة حارس الغابة سكفورتسوف.
طقطق المقعد أسفل أوربينين. تورد وجهه واعتدل في جلسته ببطء، مستندًا بيديه إلى الطاولة، وحوّل وجهه صوب الفلاح الأعور. تراجع تعبير الإنهاك والملل ليفسح مكانًا لغضب قوي. قال متأففًا:

(١٩) خادم دون جيوفاني بأوبرا موتزارت في المشهد الذي عرض فيه ليوبريلو على سيده قائمة بانتصارات السيد العاطفية.

- اصمت يا نذل! إنك أفعى عوراء حقًا! قُل ما تشاء، ولكن إياك
وأن تمس المحترمين بسوء!

قال كوزما برباطة جأش:

- إني لا أتعرض لك بشيء يا بيتر يجوريتش.

- أنا لا أتحدث عن نفسي يا أحمق! (ثم توجه صوب الكونت)
مع ذلك ألتمس عذر سعادتك... عذرًا على أنني أثرت ضجيجًا،
لكني أتمنى من سعادتك لو تحظرون على لييورلا - كما
أسميته - أن يمس بحماسة هذه أناسًا يستحقون كل احترام.

همس الكونت الساذج:

- أنا لا أفهم شيئًا... لم يقل شيئًا مُسيئًا.

ابتعد أوربنين عن الطاولة في تمام الاستياء والاضطراب ووقف
مُوليًا جانبه إلينا. صَلَّب^(٢٠) على صدره وعيناه تطرفان، وقد أخفى عنا
وجهه المتورد خلف غصن واستغرق في التفكير.

تُرى هل حَدَسَ هذا الإنسان أن ما سيحدث في المستقبل القريب
سوف يجعل حسه الأخلاقي مضطربًا لمواجهة ما يجلب إليه الإساءة
والحزن أكثر ألف مرة من ذلك؟

همس لي الكونت:

- لا أفهم ما الذي جعله يستاء؟ إنه غريب الأطوار. لم يقل أحد
شيئًا مُسيئًا.

(٢٠) رشم علامة الصليب كعادة المسيحيين.

بعد عامين من حياة بعيدًا عن السكر، تركتُ في كأس الفودكا تأثيرًا مُسكرًا بعض الشيء؛ فاض في عقلي وجسدي شعور بالخفة والسرور. إلى جانب ذلك بدأتُ أشعر ببرودة المساء التي كانت تُستبدل تدريجيًا بشعور النهار الخائق. اقترحت أن نتمشى. جلبوا إلى الكونت وصديقه البولندي سترتيهما من المنزل وبدأنا تمشيتنا. تبعنا أوريبنين.

تستحق حديقة الكونت التي تمشينا فيها وصفًا خاصًا، نظرًا لما تعكسه من ترف مذهل. من الناحية النباتية والاقتصادية وجوانب أخرى عديدة هي أكثر ثراءً وفخامة من كافة الحدائق التي رأيتهَا يومًا ما. بالإضافة إلى أزقتها الشاعرية بدرجة تفوق الوصف وأقواسها المغطاة بالنباتات يمكن للمرء أن يجد فيها كل ما لا يمكن لأحد أن يطلبه في حديقة سوى شخص مدلل غريب الأطوار. هنا يجد المرء كل ما يمكن أن يوجد من أشجار فاكهة روسية وأجنبية، بدءًا من أشجار الكرز والبرقوق وانتهاءً بأشجار المشمش الضخم الذي بحجم بيضة أوزة. مع كل خطوة تجد توتًا وبرباريس وبرجموت (ليمونًا عطريًا) فرنسي وحتى زيتون يتساقط أمامك. هنا أيضًا تجد كهوفًا مُهدمة قد كستها الطحالب، ونافورات وبركًا صغيرة مخصصة للأسماء الذهبية وأسماء الشبوط المدججة، وروابي وسراقات ودفئيات أخرى... هذا الترف الاستثنائي قد تكون بيد الأجداد والآباء.... أهملت هذه الثروة من الزهور الغنية الكبيرة والكهوف الشاعرية والأزقة اللانهائية بهمجية، وسُلمت تمامًا لسلطان الأعشاب الخبيثة وفؤوس اللصوص وغربان الزروع ونمو أعشاشها القبيحة عشوائيًا فوق هذه الأشجار

النادرة! كان الوريث الشرعي لكل هذه الثروة يسير بجانبني، ولم يرمش جفن واحد على وجهه الضعيف الرخو لمرأى هذا الإهمال واللامبالاة الإنسانية الصارخة، كأنه لم يكن صاحب المكان. حدث مرة واحدة من جراء فراغه أن وجهه ملاحظة لمدير أعماله قائلاً إنه سيكون من الجيد لو غطوا الممشي بالرمال. لفت انتباهه غياب الرمل؛ الأمر غير الضروري والذي لا يهم أحداً، لكنه لم يلحظ الأشجار العارية التي احتضرت إبان الشتاء القارس، ولا الأبقار الهائمة في الحديقة. أجاب أوربينين على ملاحظته بأن العناية بالحديقة تحتاج إلى عشرة رجال، وبما إن سعادته لا يُسر بالعيش داخل ضيعته، سيكون إذن تبديد المال على العناية بالحديقة ترفاً لا حاجة له، وأمرًا غير عملي. وافقه الكونت بالطبع على ذلك الاستنتاج.

أضاف أوربينين مُلوحًا بذراعه:

- بالإضافة إلى ذلك يلزم أن أعترف بأنني ليس لدي وقت لذلك. طوال فترة الصيف في الحقل، وطوال الشتاء أبيع الخبز في المدينة. ليس لدي وقت هنا للحديقة.

كان جمال الزقاق الأساسي، المدعو: «الرئيس» يعود في الأساس إلى أشجار زيزفونه الضخمة العجوز ونباتات الخزامى التي شكّلت صفين بطول الزقاق بأكمله ينتهيان ببقعة صفراء. هذه البقعة كانت سرادق أصفر كان فيه يومًا ما خوان وطاولة بليارد وبولينج ولعبة صينية. توجهن بلا هدف صوب ذلك السرادق. التقينا في مدخله بكائن حي وتّر أعصاب رفاقي غير الشجعان.

صاح الكونت وقد شحب وجهه وأمسك بيدي:

- انظر! إنها أفعى!

تراجع البولندي خطوة وتوقف في مكانه، باسطاً ذراعيه كما لو أنه يعترض طريق شبح. على الدرجة الحجرية العلوية للسلم الصغير المهدّم كان ثمة أفعى من نوعية الأفاعي الروسية المنتشرة. ما إن رأنا حتى رفعت رأسها وبدأت تتحرك. صاح الكونت مجدداً واختبأ خلف ظهري.

قال أوريبنين بتكاسل وقد رفع قدمه إلى درجة السلم الأولى:

- لا تخف سعادتك.

- وماذا إن لدغتنى؟

- إنها لا تلدغ أحداً. بالمناسبة ثمة مبالغة في الحديث عن الضرر الناتج عن لدغات هذه الأفاعي. لدغتنى ذات مرة أفعى عجوز، ولم أمت كما ترون.

وأضاف متنهّداً، دون أن يصيب نجاحاً في قول حكمة أخلاقية:

- لدغة البشر أسوأ من لدغة الأفاعي.

وهذا ما حدث تماماً؛ لم يكد مدير أعماله يخطو خطوتين أو ثلاثاً حتى امتدت الأفعى بكل طولها وانطلقت بكل سرعتها لتتوارى بين حجرين. ما إن انخرطنا في الحديث حتى واجهنا كائناً حياً آخر. على طاولة البليارد القديمة الباهتة المغطاة بقماش بال استلقى رجل عجوز متوسط القامة يرتدي سترة زرقاء وسروالاً مقلماً وقلنسوة فارس صغيرة.

كان مستغرقاً في نوم هادئ عذب، والذباب يحوم حول فمه الخالي من الأسنان الذي يشبه تجويفاً، وكذلك حول أنفه الحاد. كان نحيلاً كهيكل عظمي، فاغر الفم، ساكناً، ولذلك بدا كأنه جثة قد أُحضرت لتوها من مستودع الجثث بهدف التشريح.

هزه أوربينين قائلاً:

- فرانس... فرانس.

بعد خمس أو ست صدمات، أغلق فمه ونهض ونظر إلينا جميعاً، ثم استلقى مجدداً. فغر فمه ثانية خلال دقيقة، وحام الذباب حول أنفه، ثم قاطعت الصدمات نومه مجدداً.

صاح أوربينين:

- ينام كخنزير داعر!

سأل الكونت:

- أهذا هو البستاني خاصتنا تريخير؟

- هو بعينه. هكذا هو حاله كل يوم. ينام نهاراً كالقتيل، ويستغرق الليل في لعب الورق. يقولون اليوم إنه ظل يلعب حتى السادسة صباحاً.

- ماذا يلعب؟

- ألعاب مقامرة... أغلب الوقت ستوكولكا^(٢١).

(٢١) لعبة ورق.

- هؤلاء السادة يؤدون أعمالهم على نحو سيئ. يتقاضون رواتبهم مقابل لا شيء.

قال أورينين سريعاً:

- لم أقصد بقولي هذا لسعادتكم أن أعرب عن شكواي أو استيائي، بل أردت ببساطة أن... أردت أن أعبر عن إشفائي على عبودية إنسان كفء كهذا الرجل لشهواته. إنه إنسان كادح، ولا يتقاضى راتبه عبثاً.

نظرنا ثانية إلى هذا المقامر المدعو فرانس، ثم خرجنا من السرادق. توجهنا إلى بوابة الحديقة وخرجنا صوب الحقل.

نادرًا ما نصادف رواية لا تلعب فيها بوابة الحديقة دورًا مهمًا. إن لم تكونوا قد لاحظتم ذلك بأنفسكم، كل ما عليكم هو أن تتوجهوا صوب طائري بوليكارب الذي ابتلع على مدار حياته عددًا كبيرًا من روايات مريعة وغير مريعة، وسيؤكد لكم قطعًا هذه الحقيقة التافهة، والدالة رغم ذلك.

لن تفرغ روايتي أنا أيضًا من بوابة. لكن بوابتي تختلف عن بقية البوابات بما سيحلبه قلبي إليها من أناس تعساء ليس بينهم حتى شخص واحد سعيد؛ الأمر الذي يحدث بصورة معاكسة في بقية الروايات. الأسوأ من كل ذلك هو أنني اضطررت ذات مرة إلى وصف هذه البوابة، لا كروائي، بل كمحقق قضائي... في رواياتي سوف يمر عبرها مجرمون أكثر من عاشقين.

خلال ربيع ساعة كنا نصعد صوب البقعة المسماة «المقبرة الحجرية»، مستندين إلى عصينا. ثمة أسطورة بالقرية مفادها أنه تحت هذه الكومة الحجرية يرقد جسد خان تترى خشى أن يُمثّل الأعداء بجثمانه بعد مماته، لذا أوصى بأن يضعوا فوق جثمانه كومة من الحجر. لكن هذه الأسطورة لا تتضمن أي شيء حقيقي تقريباً. تلك الطبقات الحجرية من حيث حجمها وموقعها تجعل الأمر مستبعداً أن تكون وُضعت بيد بشر. إنها موجودة وحدها وسط الحقل على شكل قلنسوة مقلوبة.

بصعودنا هذه الرابية لاحت أمام أعيننا البحيرة بكل اتساعها وجمالها المستعصي على الوصف. لم يكن ضوء الشمس منعكساً على صفحتها، فقد غربت وتركت من ورائها شريطاً قرمزيّاً لَوْنُ المكان المحيط بضوء أصفر وردي لطيف. امتدت تحت أقدامنا ضيعة الكونت بمنازلها وكنيستها وحديقته، ولاحت القرية الصغيرة على الضفة الأخرى من البحيرة حيث أفضى بي القدر إلى الإقامة فيها. كانت صفحة مياه البركة ساكنة كعهدها، وقد أسرع قوارب العجوز ميخي المنفصلة صوب الشاطئ.

بعيداً عن قرיתי الصغيرة عبست محطة السكة الحديد، نافثة دخانها من محرك القاطرة، ومن خلفنا؛ من الناحية المقابلة للمقبرة الحجرية، تشكلت لوحة جديدة. امتد طريق تحت المقبرة انبسطت أشجار الحور القديمة على جانبيه. كان هذا الطريق يؤدي إلى غابة الكونت الممتدة حتى حدود الأفق.

وقفنا - أنا والكونت - على قمة المكان. بينما فضّل أوريينين والبولندي الانتظار على الطريق بالأسفل، كما يفعل عادة ذوو الأجساد الممتلئة.

سألت الكونت مشيرًا برأسي إلى البولندي:

- من هذا الكوز؟ من أين التقطته؟

- إنه سيد لطيف جدًا... إنه لطيف جدًا يا سيريوجا. سرعان ما سوف تتصادقان.

هكذا أجاب الكونت بابتهاج.

- هذا غير محتمل. لماذا هو صامت طوال الوقت؟

- هذه طبيعته، لكنه ذكي.

- من أي نوع هو؟

- تعرفت عليه في موسكو. إنه شديد اللطف. ها قد عرفت كل

شيء يا سيريوجا. لا تسألني شيئًا الآن رجاءً. هل نهبط؟

هبطنا المقبرة وسرنا في الطريق صوب الغابة. بدأت تظلم بوضوح.

تناهت إلينا وقوة الوقاويق وصوت طائر مرتعش منهك، ربما كان عندليبًا صغيرًا.

باقتربنا من الغابة سمعنا صوتًا طفوليًا رنانًا:

- أوه! أوه! أمسك بي!

رأينا طفلة صغيرة تركض من الغابة في الخامسة تقريبًا، برأس

أبيض كالكتان، وستان أزرق. ما إن رأتنا حتى قهقهت عاليًا وقفزت

صوب أوربيينين واحتضنت ركبتيه. رفعها أوربيينين وقبَّلها على وجتها
قائلاً:

- أقدم لكم ابنتي الصغيرة ساشا.

اندفع من الغابة طالب بالجيمنازيا^(٢٢) في الخامسة عشر يطاردها،
وكان ذلك الطالب ابنًا لأوربيينين. ما إن رآنا حتى خلع قبعته بارتباك،
وارتداها ثم خلعها مجددًا. تَبَعْتُهُ بقعة حمراء، سرعان ما استولت على
انتباهنا.

صاح الكونت ممسكًا بذراعي:

- يا له من منظر رائع! انظر! يا للفتنة! يا لروعة هذه الفتاة! لم أكن
أعرف أن مثل هذه الحوريات الفاتنة تقطن غاباتي.

التفتُ إلى أوربيينين لأسأله «مَن هذه الفتاة؟» والغريب أنني لم ألحظ
إلا في هذه اللحظة وحسب أن مدير الأعمال ثمل تمامًا. بدا أحمر
كسرطان البحر، أوشك على فقدان توازنه وأمسك بي من مرفقي.

همس في أذني وقد غمرني بروائح الكحول المنبعثة من فمه:

- سيرجيه بتروفيتش! أتوسل إليك أن تمنع الكونت من الإدلاء بأي
ملاحظات أخرى عن هذه الفتاة. يمكنه بحكم العادة أن يتجاوز
الحد في الحديث، بينما هي شخصية محترمة جدًا.

كانت هذه الـ «الشخصية المحترمة جدًا» فتاة في التاسعة عشر،
ذات شعر أشقر جميل وعينين زرقاوين طيبتين وشعر متموج طويل.

(٢٢) نوع من المدارس بروسيا، كان الطلبة يدرسون فيه اللاتينية والتاريخ وبعض المواد الأخرى.

ظهرت بستان أحمر ساطع، لا هو فستان طفلة ولا هو فستان بالغة.
ساقاها رشيقتان كريشتين، وقد ارتدت جوربين أحمرين وحذائين
صغيرين يشبهان أحذية الأطفال. من فرط إعجابي بدا لي كتفاها
الجميلان يرتجفان طوال الوقت كما لو أنهما يشعران بالبرودة، أو أن
نظرتي إليهما كانت تلدغهما.

همس لي الكونت الذي فقد منذ شبابه المبكر القدرة على احترام
النساء وعدم النظر إليهن من منظور حيوان فاسد:

– يا له من وجه شاب، ويا لها من نوعية متطورة!

أذكر أن شعورًا جيدًا اعتمل بداخلي. كنت لا أزال شاعرًا، في
حضرة الغابات في مساء من أمسيات مايو حيث تبدأ نجوم المساء في
الوميض... كنت لا أزال غير قادر على النظر إلى المرأة سوى كشاعر.
نظرتُ إلى الفتاة ذات الرداء الأحمر بذات التبجيل الذي تعودت أن أنظر
به إلى الغابات والجبال والسماء اللازوردية. كانت بعض بقايا الشاعرية
لا تزال داخلي؛ تلك التي ورثتها عن أُمِّي ذات الأصول الألمانية.

سأل الكونت:

– مَنْ هذه الفتاة؟

أجاب أوربينين:

– هذه ابنة حارس الغابة سكفورتسوف سعادتك.

– أهذه أولينكا التي كان الفلاح الأعور يتحدث عنها؟

أجاب مدير الأعمال بنظرة توصل من عينيه الكبيرتين:

- نعم، لقد ذكر اسمها.

تركنتا الفتاة ذات الرداء الأحمر نمر جانبها دون أن توجه إلينا أي انتباه. كانت عيناها تنظران إلى شيء ما في زاوية المكان، لكن بحكم معرفتي بالنساء جيداً، لاحظت أنها تنظر إلى وجهي بطرف عينيها. سمعتها تهمس من خلفنا:

- مَن منهم الكونت؟

أجابها طالب الجيمينازيا:

- هذا هو، ذو الشوارب الطويلة.

سمعتُ ضحكة رنانة من خلفنا. كانت ضحكة مثبطة للآمال... ظنّنتُ أنني أنا هو الكونت مالك تلك الغابات الشاسعة والبحيرة الضخمة، لا ذلك القزم ذو الوجه الهازل والشاربين الطويلين.

سمعتُ تنهيدة عميقة تخرج من أعماق أوربينين. بالكاد استطاع هذا الرجل الحديدي أن يتحرك.

همستُ للكونت:

- اصرفُ مدير أعمالك. إما أنه مريض أو ثمل.

توجه الكونت بالحديث إلى أوربينين:

- يبدو أنك لست على ما يرام يا بيتر يجوريتش. لستُ في حاجة إليك الآن، وبالتالي لن أبقىك.

- لا تقلق سعادتكم. أشكرك على اهتمامك بي، لكني لست مريضاً.

التفتُ... البقعة الحمراء لم تتحرك بعد من مكانها، وكانت تنظر إلينا.

«يا لها من رأس أشقر بائس!» هل خَمَنْتُ في تلك الليلة الهادئة المليئة براحة أمسيات مايو أنها ستكون بطلة روايتي المضطربة؟

الآن، بينما أكتب هذه السطور، تدق قطرات مطر خريفية نوافذي الدافئة بضراوة، وتعوي الرياح في مكان ما من فوقي. أنظر إلى النافذة المظلمة، وأحاول في عتمة الليل استدعاء بطلتي الرقيقة بقوة مخيلتي... يمكنني أن أراها بوجهها الصغير الطفولي البريء وعينيها المحبتين. أريد أن أترك قلمي وأمزق وأحرق ما كتبت. ما الجدوى من حث الذاكرة على استعادة هذا الكيان الشاب البريء؟

بجانب المحبرة ثمة بورتريه لها. هنا يلوح رأس أشقر بكل عظمتة الدنيوية لامرأة جميلة متهدمة. العينان منهكتان لكن فخورتان بفسقهما وثباتهما. تبدو هنا تمامًا كالثعبان الذي يقول أوربنين عن ضرر لدغته إنه مبالغ فيه.

منحتُ العاصفة قبلة، ونزعت العاصفة زهرة من جذورها. أخذت الكثير، لكنها دفعت ثمنًا فادحًا. فليغفر لها القارئ ذنوبها...
سرنا عبر الغابة.

تشير أشجار الصنوبر الملل بتمائلها الصامت. لها جميعًا الطول ذاته، تشبه كل منها الأخرى، وتحافظ كل منها على الشكل ذاته طوال

العام، لا تعرف الموت ولا التجدد الربيعي. مع ذلك تظل جذابة حتى في عبوسها. إنها أشجار ثابتة هادئة، تبدو غارقة في أفكار كثيفة.

قال الكونت:

– ألا تجدر بنا العودة؟

لكن لم تتبع هذا السؤال إجابة. كانت الأمور سيان تمامًا للبولندي، أينما كان، أما أوريينين، لم يعتبر أن لرأيه أي أهمية، بينما كنتُ مسرورًا ببرودة الغابة وهوائها الراتنجي^(٢٣) بحيث لم أكن راغبًا في العودة. بالإضافة إلى ذلك كان من الضروري قتل الوقت بطريقة ما، حتى ولو بنزهة بسيطة، حتى يحل الليل. اقترن التفكير في اقتراب ليلة مسعورة بشعور عذب بخبو القلب. يخجلني الاعتراف بأنني كنت أحلم بها وكنت أتطلع ذهنيًا إلى المتع التي ستهبني إياها. لكن الطريقة التي كان ينظر بها الكونت إلى ساعته النائمة عن نفاد صبر كانت واضحة وكشفت عن أن الترقب كان يمزقه. شعرنا أننا فهمنا بعضنا.

استقبلنا نباح رخم لكليين صغيرين بلون أصفر ناري لا أعرف فصيلتهما تحديدًا بالقرب من كوخ حارس الغابة الصغير الكامن بين أشجار الصنوبر في مساحة مربعة صغيرة؛ كليين مرنين ولا معين كتحابين البحر. ما إن تعرفا على أوريينين، حتى هذا ذيلهما بسرور وركضا صوبه بطريقة تنم عن أن مدير الأعمال كان معتادًا على زيارة كوخ حارس الغابة. بالقرب من الكوخ التقانا شخص ما، لم يكن يرتدي حذاءه أو

(٢٣) الراتنج هو إفراز عضوي يحوي المواد الهيدروكربونية من النبات، خاصة أشجار الصنوبر.

قبعته، وجهه مليء بالنمش. ظل ينظر إلينا صامتاً لبرهة قصيرة بعينه المتفتحتين، وغالب الظن أنه عرف الكونت؛ فصاح وركض صوب الكوخ.

ابتسم الكونت قائلاً:

- أعرف لماذا ركض. أتذكره... هذا ميتكا.

لم يكن الكونت مخطئاً. في أقل من دقيقة كان ميتكا قد خرج من الكوخ حاملاً على صينية كأس فودكا ونصف كوب ماء. قدّم الصينية وابتسامة تملأ وجهه المندهش قال:

- بصحة سعادتك.

شرب الكونت كأس الفودكا، وتلاها بالماء، لكن وجهه لم يعبس تلك المرة. بعيداً عن المنزل بمائة خطوة كانت هناك دكة حديدية قديمة كأشجار الصنوبر. جلسنا عليها واستغرقنا في تأمل أمسية مايو بكل جمالها الهادئ. طارت فوق رؤوسنا غربان خائفة وقد علانعيها، وتناهت إلينا أصوات العنادل الشادية... هذا وحده ما خرق جدار الصمت.

ليس بمقدور الكونت أن يصمت، حتى في أمسية ربيعية هادئة كهذه، يكون فيها الصوت البشري أقل الأصوات عذوبة. التفت إليّ قائلاً:

- لا أعرف هل ستكون راضياً بهذا أم لا، لكنني طلبت للعشاء حساء سمك ودجاج. بالنسبة لمقبلات الفودكا سيأتونا بسمك حفش ولحم خنزير بالفجل الحار.

فجأة بدأت أشجار الصنوبر تهتز، كما لو أنها قد غضبت من هذا
الحديث النثري الفارغ من الشَّعر، وترددت في الغابة دمدمة هادئة. ريح
منعشة ملأت فرجة الغابة ولاعبت العشب.

- اهدأ!

هكذا صاح أوربنيين في الكلبين ذوي اللون الناري اللذين منعاه
بمداعباتهما من إشعال سيجارته. قال:

- أظن أنها ستمطر. أكاد ألمس ذلك في الهواء. كانت الليلة حارة
جداً، ولا يحتاج الأمر إلى عالم متخصص ليتوقع سقوط المطر.
سيكون ذلك جيداً للقمح.

قلتُ في نفسي: «وما حاجتك إلى القمح ما دام الكونت سينفق ثمنه
كاملاً على الخمر؟ ليست هناك حاجة للمطر والعمل».

هَبَّت نسمة ريح بالغابة مجدداً، لكنها تلك المرة كانت أقوى. تعالى
حفيف العشب وأشجار الصنوبر.

- لنعد إلى المنزل.

نهضنا وعدنا إلى المنزل بتكاسل. قلت لأوربنيين:

- من الأفضل أن تكون تلك الشقراء المدعوة أولينكا وتعيش وسط
الوحوش من أن تكون محققاً قضائياً يعيش مع الناس... هكذا
الأمر أهدأ، أليس كذلك يا بيتر يجوريتش؟

- طالما الروح هادئة، لا يهم من المرء يا سيرجيه بترفيتش.

- وهل روح تلك الحسناء أولينكا هادئة؟

- الله وحده يمكنه أن يطَّلِع على مكنونات الروح، ولكن يبدو لي أنه ليس هناك ما يكدر صفوها. ليست لديها أحزان كثيرة، وهي صغيرة على الخطايا. إنها فتاة رائعة. أخيراً بدأت السماء تكشف عن أنها ستمطر!

تناهى إلى أسماعنا ضجيج؛ تارة يشبه ضجيج مركبة بعيدة وتارة يشبه ضجيج لعبة بولنج... أرعدت من بقعة خلف الغابة... كان ميتكا الذي تبعنا طوال تلك الفترة يجفل ويُصَلِّب.

قال الكونت:

- عاصفة رعدية! مفاجأة! سوف يغرقنا المطر في طريق العودة. كم أظلمت! قلت إننا يجب أن نعود، لكنك رفضت وواصلت السير...

تقدمت باقتراح:

- ربما يجب أن نمكث في الكوخ حتى تنتهي العاصفة الرعدية.
قال أوريبينين وعيناه تطرفان بغرابة:

- لماذا الكوخ؟ سوف يستمر المطر طوال الليل، فهل سنمكث طوال الليل بالكوخ؟ لا حاجة للقلق سعادتكم. فلنعد ويمكن أن يسبقنا ميتكا ليرسل العربّة بحيث تلتقينا في الطريق.

- ربما لن تظل تمطر بقوة طوال الليل. السحب الرعدية تمر غالباً سريعاً. بالإضافة إلى ذلك لم أتعرف بعد على حارس الغابة الجديد، وأود لو أتحدث قليلاً مع هذه الفتاة المدعوة أولينكا، وأعرف أي أنواع الطيور هي.

وافقني الكونت قائلاً:

- وأنا لا أمانع.

دمدم أوربينين بقلق:

- ولكن كيف تذهبون سعادتكم إلى هناك والمكان... والمكان...

والمكان غير جاهز؟ لماذا يتوجب على سعادتكم أن تقيموا في غرفة خانقة بينما بالإمكان أن تعودوا إلى المنزل؟ لا أفهم ما وجه السرور في ذلك؟ كيف تتعرف على حارس الغابة وهو مريض؟

كان من الواضح أن مدير الأعمال لا يريد إطلاقاً أن ندخل كوخ حارس الغابة. بسط ذراعيه كما لو أنه يريد أن يسد علينا الطريق. فهمت من وجهه أنه كانت لديه أسبابه للرفض. أحترم أسباب وأسرار الآخرين، لكن في تلك المرة حثني الفضول بقوة. أصررتُ على موقفي ودخلنا الكوخ.

- تفضلاً رجاءً في حجرة الجلوس.

هكذا قال ميتكا الحافي. لا، لم يقلها، بل بدا كأنه يحزق، يكاد يختنق من الفرح.

حاولوا تخيل أصغر حجرة جلوس بجدران خشبية غير مطلية. غطت الجدران صوراً زيتية لمناظر نهر النيفا في إطارات مصنوعة من القواقع، أو كما تُدعى هنا: «إطارات خاصة بشهادات تصديق»... كانت إحدى هذه الشهادات خاصة بأحد البارونات، تقديرًا له على سنوات عمله المديدة، بينما كانت بقية الصور لجياد... هنا وهناك تجد لبلابًا

مجدولاً على الحائط... في الزاوية، أمام صورة صغيرة، يومض بخفوت ضوء أزرق، ينعكس بوهن على الإطار الفضي. تحتشد المقاعد عند الحوائط، ومن الواضح أنه قد تم شراؤها حديثاً. أغراض أخرى كثيرة تم شراؤها مؤخراً، لكنها موضوعة بطريقة غير منظمة، فليس لها مكان... هنا تتزاحم بعض المقاعد وأريكة مغطاة بأغطية بيضاء ذات زخارف وأشرطة زينة، بالإضافة إلى طاولة مطلية مستديرة. ثمة أرنب منزلي نائم على الأريكة... المكان هنا مريح ونظيف ودافئ... يفشي كل شيء فيه عن حضور امرأة. حتى خزانة الكتب الصغيرة، بما فيها من كتب تفوح منها رائحة بريئة أنثوية، كأنها تريد أن تقول إنها لا تضم سوى روايات ضعيفة وقصائد متواضعة. إنك لا تشعر بقدر فتنة هذه الغرف المريحة الدافئة في الربيع، بل في الخريف حينما تبحث عن ملجأ لك من البرودة والرطوبة.

أشعل ميتكا شمعتين بعد ضجيج وأصوات تنشق وتنفس وحك أعواد الثقاب بصوت عالٍ، ووضعهما على الطاولة بحذر كما لو أنه يضع لبناً. جلسنا على المقاعد وتبادلنا النظرات وابتسمنا.

وضَّح أوربينين غياب صاحب الكوخ قائلاً:

- نيكولاي يفيميتش يستلقي بالداخل مريضاً، أما أولجا نيكولايينا فلا بد أنها خرجت بصحبة أطفال...
تناهى إلينا صوت تينور^(٢٤) ضعيف من الغرفة المجاورة:

(٢٤) يصنف صوت التينور بأنه يحتل المجال بين نغمة C الأولى تحت C الوسطى حتى A فوق C الوسطى في الموسيقى الكورالية.

- ميتكا، هل الأبواب مغلقة؟

صاح ميتكا بخشونة:

- مغلقة يا نيكولاي يفيميتش!

وطار سريعاً إلى الغرفة المجاورة. أكمل الصوت الضعيف:

- تأكد أن... أن الأبواب كلها مغلقة. أغلق بالمفتاح بإحكام! إن

تسلل إلينا لصوص، يجب أن تقول لي... سوف أطلق النار على

الأوغاد ببندقيتي... سأطلق على هؤلاء الأندال.

- هذا مؤكد يا نيكولاي يفيميتش.

ابتسمنا ونظرنا إلى أوريينين نظرة استفهامية. تورد وجه الأخير خجلاً، وبدأ يُعدّل وضع الستارة على النافذة ليخفي خجله. ماذا يعني هذا الحلم؟ تبادلنا النظرات مجدداً.

لكن لم يكن هناك وقت للحيرة. تناهت من الساحة أصوات خطوات أقدام، ثم علا الصوت بالرواق، وسمعنا صفقة الباب. دخلت الفتاة ذات الرداء الأحمر إلى حجرة الجلوس.

تغنّت الفتاة بصوت سوبرانو^(٢٥) صاخب تقطعه ضحكاتها:

- كم أحب العاصفة الرعدية في بداااية مايو!

لكن ما إن رأتنا، حتى توقفتُ حركتها، وصمت.

(٢٥) الصوت ذو طبقة الأوكتاف الأعلى بين أصوات النساء. المجال صوتي للسوبران هو من C4 إلى A5 في الجوقة الموسيقية، أو إلى C6 في موسيقى الأوبرا.

ارتبكت وذهبت إلى الغرفة بهدوء كحمل وديع، ولم يُسمع من هناك سوى صوت أبيها نيكولاي يفيميتش.

ابتسم أوربينين قائلاً:

- لم تتوقع وجود أحد.

في غضون عدة دقائق دخلت إلينا بهدوء وجلست على المقعد القريب من الباب، وأخذت تنظر إلينا بجرأة دون توقف كما لو أننا لم نكن زوارًا جددًا بالنسبة لها، بل حيوانات تراها بحديقة الحيوانات. نظرتُ إليها بصمت وسكون لدقيقة... لم أكن لأمانع الجلوس ساكنًا والتحديق فيها لعام، فكم كانت جميلة في هذه الليلة! كانت منعشة كالهواء، متوردة، تلتقط أنفاسها كثيرًا فيرتفع صدرها، وخصلات شعرها متناثرة على جبهتها وكتفيها، تُعدل وضع ياقتها بيدها اليمنى، وعيناها كبيرتان لامعتان... يضم كل هذا جسد صغير تُحيطه كاملاً بنظرة واحدة. انظر مرة واحدة إلى هذا الجسد الصغير وسترى أكثر مما كنت لتراه إن نظرتَ إلى الأفق اللانهائي لقرون كاملة. كانت تنظر صوبي بجدية، من قدمي إلى رأسي، نظرة استفهامية، وعندما كانت تنقل نظرها مني إلى الكونت أو البولندي، كنت ألاحظ أنها تفعل العكس؛ تنظر من الرأس إلى القدم مبتسمة.

كنت أنا أول المتكلمين. نهضتُ وقلتُ متوجهاً إليها:

- دعيني أقدم لك نفسي: زينوفيف. وهذا صديقي الكونت كارنيف... نلتمس عذرك على اقتحامنا كوخكم الجميل دون دعوة مسبقة. لم نكن بالطبع لنفعل ذلك لولا العاصفة الرعدية.

- لكن ذلك لن يهدم كوخنا!

قالت هذا ضاحكة، وهي تمد يدها إليّ.

كشف حديثها إليّ عن أسنانها الرائعة. جلستُ على المقعد المجاور وحكيت لها عن كيف فوجئنا في طريقنا بالعاصفة الرعدية. بدأنا نتحدث عن الطقس... كانت هذه بداية كل البدايات! أثناء حديثنا معها نجح ميتكا مرتين في تقديم فودكا للكونت، مُلحِقًا إياها بالماء... استغل الكونت فرصة عدم انتباهي إليه، وكان بعد كل كأس فودكا يعبس بوجهه ويهز رأسه.

سألتني أولينكا:

- ربما تريد بعض المقبلات... أليس كذلك؟

ولم تنتظر إجابة، وخرجت من الغرفة.

قرعت قطرات المطر الأولى زجاج النافذة. اقتربتُ من النافذة. كانت قد أظلمت تمامًا، ولم أرَ عبر الزجاج شيئًا سوى بضعة قطرات هابطة، وانعكاس أنفي. لمع البرق، وانعكس على بعض أشجار الصنوبر القريبة.

سمعتُ مجددًا صوت التينور الضعيف:

- هل الأبواب مغلقة؟ ميتكا... تعال هنا أيها الوغد وأغلق الأبواب.

آه يا سيدي من هذا العذاب!

دخلتُ الغرفةَ فلاحَةً بربطة مزدوجة على بطنها ووجه مكدر غبي، وانحنيت بشدة للكونت وغطت الطاولة بمفرش أبيض. تحرك ميتكا

من خلفها بحذر حاملاً المقبلات. في غضون دقيقة افترشت الطاولة بفودكا ورم (شراب مسكر) وجبن وطبق يحوي طائرًا ما محمرًا. شرب الكونت كأس فودكا، لكنه لم يأكل شيئًا. أما البولندي، فتشمم الطائر متشككًا ثم بدأ يقطعه.

قلت لأولينكا التي دخلت الغرفة مجددًا:

- بدأ المطر فعلاً. انظري!

اقتربت الفتاة ذات الرداء الأحمر من نافذتي، وفي تلك اللحظة سطع ضوء أبيض علينا للحظة. سمعنا صوت طقطقة بالأعلى، وبدأ لي كما لو أن شيئًا كبيرًا وثقيلًا قد تمزق في السماء وسقط على الأرض بضجة. ارتج زجاج النوافذ والكؤوس الموضوعة أمام الكونت وتعالى زينها. كانت الضربة قوية.

سألت أولينكا:

- هل تخشين العواصف الرعدية؟

ضغطت وجنتها على كتفها المستدير ونظرت إليّ نظرة تشي بالثقة الطفولية، وهمست بعد تفكير:

أخافها! لقد قتلت العاصفة الرعدية أُمي. كتبوا عن ذلك في الصحف. كانت أُمي تسير في الحقل باكية. عاشت حياة مريرة في هذا العالم... أشفق الرب عليها وقتلها بكهربائه السمائية.

- وكيف عرفت أن ثمة كهرباء في الرعد؟

- لقد تعلمت في... أتعرف أن من تقتلهم عاصفة رعدية أو حرب

أو عمليات ولادة متعثرة يذهبون إلى الجنة؟ لم يُكتب ذلك في الأسفار المقدسة، لكنه صحيح. أمي الآن في الجنة! أظن أن عاصفة رعديّة سوف تقتلني أنا أيضًا ذات يوم، وسأذهب إلى الجنة. هل أنت مثقف؟

- نعم.

- لن تسخر مني إذن... أود أن أموت بهذه الطريقة: أرتدي فستانًا غاليًا على أحدث طراز، مثل الفستان الذي رأيت جارتنا الثرية ترتديه منذ أيام؛ أقصد السيدة شيفير، والأساور التي ارتدتها. ثم أصعد إلى أعلى قمة المقبرة الحجرية وأترك البرق يقتلني بحيث يراني الناس جميعًا... رعد مريع، وكما تعرف ينتهي الأمر.

- يا له من خيال جامح!

ابتسمت وحدثت في عينيها المليئتين بهذا الفزع المقدس أمام الموت المريع والمذهل في الآن ذاته. وأكملت:

- ولا تريد أن تموتي بفستان عادي؟

هزت أولينكا رأسها قائلة:

- لا، وأريد أن أموت بهذه الطريقة التي يراني بها الجميع.

- فستانك الذي ترتدينه الآن أفضل من كافة الفساتين الغالية المصنوعة على أحدث طراز... إنه يليق بك. تشبهين به زهرة حمراء في غابة خضراء.

تنهدت أولينكا قائلة ببراءة:

- لا، هذا غير حقيقي. هذا فستان رخيص ولا يمكن أن يكون جيدًا.
اقترب الكونت من نافذتنا بنية واضحة أن يتحدث مع أولينكا الجميلة. يجيد صديقي التحدث بثلاث لغات أوروبية، لكنه لا يجيد التحدث مع النساء. وقف بالقرب منا بطريقة خرقاء، مبتسمًا بسخافة، متممًا «إممم» ثم ابتعد صوب دورق الفودكا.

قلتُ لأولينكا:

- عندما دخلتِ إلى هذه الغرفة، كنتِ تنشدين «أحب العاصفة الرعدية في بداية مايو». هل تم تلحين هذه الأبيات؟

- لا، أغني الأبيات بطريقتي؛ بلحني الخاص.

فجأة التفتُ إلى الخلف. كان أورينين ينظر إلينا، وقرأتُ في عينيه نظرة كراهية وضعينة لا يناسبان أبدًا وجهه الطيب اللين. قلتُ في نفسي: «هل يشعر بالغيرة؟».

نهض المسكين من مقعده بعد أن التقط نظرتي الاستفهامية وخرج إلى الرواق لسبب ما... حتى مشيته وشت باضطرابه. تكررت ضربات الرعد، وكانت كل ضربة أقوى وأكثر دويًا من السابقة. ظل البرق يبسط نوره الجميل وفي الآن ذاته العامي للأبصار على صفحة السماء وأشجار الصنوبر والتربة الرطبة مرارًا وتكرارًا... لم يَبْدُ أن المطر سوف يتوقف قريبًا. تنحيت عن النافذة متوجهًا صوب خزانة الكتب وانشغلت بالنظر إلى كتب أولينكينا^(٢٦). يُقال «قل لي ماذا تقرأ،

(٢٦) صيغة تحب وتدلّل لأولينكا.

أَقُلْ لَكَ مَنْ أَنْتَ». لكن كان من الصعب أن يُكوّن المرء أي انطباع من خزانة الكتب هذه الطيبة المتداعية عن مستوى ذكاء أولينكا وجدارتها. كانت تضم مزيجاً غريباً: ثلاث مختارات؛ كتاب لبورن، وكتاب مسائل رياضية ليفتوشيفسكي^(٢٧)، والجزء الثاني من أعمال ليرمنتوف^(٢٨) الكاملة، وكتاب لشكلياريفسكي^(٢٩)، ومجلة «العمل»، وكتاب طبخ «الموائد المشتركة»... كان من الممكن أن أحصي لكم كتباً أخرى، لكن في تلك اللحظة التي أخذت فيها كتاب «الموائد المشتركة» من خزانة الكتب وبدأت أتصفحه انفتح باب الغرفة الأخرى، ودخل إلى غرفتنا شخص، سرعان ما شئت انتباهي عن محاولة معرفة مستوى ثقافة أولينكينا. كان شخصاً طويلاً نحيلًا كالسلك، يرتدي مبدلاً قطنيًا وخفين باليين، بوجه أصيل إلى حد كبير. كان وجهه المغطى بعروق زرقاء مزينًا بشاربين كالشوارب التي يجدها المرء لدى ضباط الصف وسوالف تجعله بشكل عام يبدو كطائر. كان الوجه بأكمله مسحوبًا للأمام، كما لو أنه يجذب صوب مقدمة الأنف... يسمون هذه الوجوه: «ذات أنوف إبريقية»^(٣٠). استوت الرأس الصغير لهذا الشخص فوق العنق الطويل النحيل بتفاحة آدم الخاصة به، وارتجت كعش طائر تهزه الريح... نظر إلينا الرجل الغريب بعينيه الخضراوين الغائمتين، وحدّق في الكونت.

(٢٧) فاسيلي أدريانوفيتش يفتوشيفسكي: تربوي روسي ومؤلف عدد من الكتب المدرسية.

(٢٨) ميخائيل ليرمنتوف: أديب روسي شهير.

(٢٩) إيجور شكلياريفسكي: شاعر روسي.

(٣٠) نسبة إلى كلمة إبريق.

سأل بنبرة متوسلة:

- هل الأبواب مغلقة؟

نظر إليّ الكونت وهز كتفيه. قالت أولينكا:

- لا تقلق يا بابا... كل شيء مغلق. عُد إلى غرفتك.

- وباب السقيفة مغلق؟

همس أوريينين الذي لاح من ناحية الرواق:

- إنه أحيانًا... تستولي عليه نوبة. يخشى اللصوص، وكما ترون
يظل قلقًا بشأن الأبواب.

ثم توجّه إلى هذا الشخص الغريب قائلاً:

- نيكولاي يفيميتش... عُد إلى غرفتك ونم. لا تقلق! كل شيء
مغلق!

- والنوافذ مغلقة؟

أسرع نيكولاي يفيميتش صوب كافة النوافذ ليتفحصها ويتأكد من
إغلاقها، ثم عاد إلى غرفته دون أن ينظر إلينا.

بعد انصرافه، بدأ أوريينين يوضح الأمر قائلاً:

- أحيانًا تستولي على المسكين نوبة... إنه إنسان صالح ورائع،
وكما يمكن أن تتوقعوا لديه أسرة. يا لهذه النوبات! يتكرر الأمر
معه تقريبًا كل صيف.

نظرتُ إلى أولينكا. ارتبكتُ وأخفتُ وجهها عنا، وأخذت تنظم

كتبها المبعثرة في الخزانة. كان من الواضح أنها تشعر بالخزي من أبيها
المجنون.

قال أوربينين:

- وصلت المركبة سعادتك. يمكننا أن نرحل إن أردت ذلك.
سألتُ:

- من أين جاءت العربة؟

- أرسلتُ في طلبها.

في غضون دقيقة كنت قد جلست في العربة مع الكونت، أستمع
إلى رجيف الرعد غاضبًا. دمدمتُ في حالة غضب حقيقية:

- لقد أخرجنا ذلك المدعو بيتر يجوريتش من هذا الكوخ الجميل،
عليه اللعنة! هكذا حال دون أن نراقب هذه الفتاة المدعوة أولينكا.
لم أكن لألتهمها! آه من هذا الأحمق العجوز! يكاد ينفجر طوال
الوقت من الغيرة... إنه واقع في حب هذه الفتاة.

- نعم، نعم، نعم... تصور أنني لاحظتُ ذلك! لم يتركنا في الكوخ
بدافع الغيرة، وأرسل في طلب العربة بدافع الغيرة أيضًا.... هاها!

- يسقط في الحب بعد أن شابت لحيته! مع ذلك يا أخي يصعب
الألّا يُغرم المرء بهذه الفتاة ذات الرداء الأحمر، خاصة إن رآها كل
يوم كما رأيناها اليوم. جمال شيطاني! لكنها لا تلائم. عليه أن
يفهم ذلك، وألّا يغير بهذه الطريقة الأنانية. فليحبها إن أراد ولكن
لا يقف في طريق الآخرين! الأهم من ذلك أن يدرك أنها غير

مقدّرة له. يا له من عجوز أبله!

- هل تذكر كيف اضطرب بشدة عندما ذُكر اسمها أثناء شرب الشاي؟ (قهقهه الكونت) لقد ظننت أنه سيضربنا جميعًا. لا يدافع المرء عن سمعة امرأة بهذه الحرارة لو كان لا يبالى بها.

- قد يفعل البعض ذلك يا أخي، ولكن ذلك ليس هو الأمر المهم. إن سيطر علينا مثلما فعل اليوم، فماذا سيفعل حينما يتعلق الأمر بأناس صغار الشأن واقعين تحت إمرته؟ لا ريب أنه قد منع الخدم ومدبري المنازل والصيادين وكل صغار العالم الذين يسيطر عليه من مجرد الاقتراب منها. الحب والغيرة يجعلان الإنسان ظالمًا بلا قلب، كارهًا للإنسانية. أراهن أنه لا يولي أي خادم تحت إمرته هذا الاهتمام الذي يوليه لأولينكا. لذا سيكون من الذكاء أن تُقلل ثقّتك في شكواه من الخدم وتقاريره عن ضرورة طرد هذا أو ذاك. عليك بشكل عام أن تحاول الحد من سلطته... سيمضي الحب، ولن يكون هناك وقتها ما يستدعي القلق. إنه صالح وشريف ولطيف...

- وما رأيك في أبيها؟

قال الكونت ذلك، وانفجر في الضحك.

- مجنون! عليه أن يقيم في مستشفى المجانين، لا أن يشرف على الغابات. لن تكذب إن علّقت على بوابات ضيعتك لافتة مكتوب عليها: «مستشفى مجانين». لديك هنا مستشفى مجانين حقيقية: حارس الغابة- العجوز الشمطاء- فرانس المجنون بلعب

الورق- هذا العجوز العاشق الوله بفتاة- كونت سكير... ماذا تريد أكثر من ذلك لمستشفى مجانيين؟

- من الواضح أن أوربينين يبقيه في وظيفته بسبب الفتاة وحسب. يقول إن نيكولا ي يفيميتش يتعرض لهذه النوبات كل صيف تقريباً. لكن يبدو أن الأمر لا يقتصر على الصيف، بل يبدو أن حارس الغابة هذا مريض دائماً. من حسن الحظ أن صاحبك بيتر يجوريتش لا يكذب إلا نادراً، ويشي بنفسه إن فعل ذلك.

- في العام الماضي أخبرني أوربينين أن حارس الغابة العجوز أخميتيف سوف يترهب بجبل آثوس^(٣١) وشرح لي سكفورتسوف ووصفه بالخبير والأمين والجدير... أعطيته بالطبع موافقتي كما أفعل دائماً. إنهم لا يشون بأنفسهم عندما يكذبون.

دخلت العربة الفناء وتوقفت عند الرواق. خرجنا منها. كان المطر لا يزال يتساقط. أسرع سحابة رعدية تلمع بالبرق، مصدره ضجيجاً غاضباً نحو الشمال الشرقي، لتكشف تدريجياً عن السماء الزرقاء المرصعة بالنجوم. بدا الأمر كما لو أن قوة مسلحة تسليحاً قوياً قد خرّبت المدينة وفرضت عليها ضريبة مريعة، ثم سعت إلى إحراز نصر جديد. أسرع السحب المتبقية خلفها، كأنها خشت ألا تلحق بها... استعادت الطبيعة سلامها.

لاح هذا السلام في الهواء الهادئ المعطر، المليء بالنعيم وشدو

(٣١) يُعرف أيضاً بالجبل المقدس. يقع في شمال اليونان. يقيم هناك رهبان من مختلف الكنائس الأرثوذكسية.

العنادل... لاح السلام في صمت الحديقة النائمة، ونور القمر العذب.
استيقظت البحيرة بعد غفوة الظهيرة، وعادت بجرجرة^(٣٢) رقيقة لتعلن
عن نفسها لسمع الإنسان.

في وقت كهذا يحلو للمرء أن يتجول في الحقول داخل عربة هادئة
أو يعمل مجدافه في البحيرة. لكننا دخلنا المنزل... كان في انتظارنا
شيء شاعري آخر.

يصفون الشخص بالمتحر حينما يُطلق رصاصة على جبهته بتأثير
من ألم نفسي أو معاناة ضاغطة غير محتملة، بينما لا تتضمن أي لغة
إنسانية تسمية معينة لمن يطلق العنان لشهواته البائسة في أيام الربيع
والشباب المقدسة. تعقب الرصاصة راحة القبر، بينما يعقب فترة
الشباب المدمرة أعوام من الأسى والذكريات الجالبة للعذاب. لن يفهم
حالة روعي الآن إلا من دنس ربيع. لم أهرم بعد ولم يشب رأسي،
لكني لم أعد حيًا. يحكي الأطباء النفسيون عن جندي أصيب بمعركة
واترلو^(٣٣) وفقد عقله، ومن ثم أخذ يؤكد للجميع -وصدق نفسه فعلا-
أنه قد مات في واطرلو، وأن ما يرويه أمامهم الآن هو مجرد ظل؛ انعكاس
للماضي. إنني أختبر الآن حالة شبيهة بذلك... نصف ميت!

قال لي الكونت عندما دخلنا المنزل:

(٣٢) جرجرة: صوت الماء الجاري.

(٣٣) معركة فاصلة وقعت في ١٨ يونيو عام ١٨١٥م في قرية واطرلو قرب بروكسل عاصمة بلجيكا،
وهي آخر معارك الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت، وهُزم فيها هزيمة كبيرة غير متوقعة
لقائد بخبرته، وهذا ما جعل الإنجليز يصفون فيما بعد الشخص الذي يعاني من حظ سيئ جدًا
بأنه صادم واطرلو.

- يسعدني جدًا أنك لم تتناول شيئًا عند حارس الغابة ولم تفسد شهيتك. سوف نتناول طعامًا رائعًا كما تعودنا في الماضي.
وأمر إيليا الذي كان يعاونه في خلع معطفه وارتداء رداء منزلي:
- أعدوا الطعام!

توجهنا إلى غرفة الطعام. بدت الحياة في حالة فوران على هذه الطاولة المُعدّة؛ زجاجات من مختلف الأطوال والألوان، مصطفة إلى جانب بعضها، كما يكون الأمر في بوفيهات المسارح، ينعكس عليها ضوء المصباح، في انتظار أن نُوجّه انتباهنا إليها. على الطاولة الأخرى مقبلات مملحة ومخللة من كل نوع، ودورق فودكا ودورق خمر إنجليزي مر. كان هناك طبقان أمام زجاجات الخمور؛ بأحدهما لحم خنزير، وبالأخر سمك حفش بارد.

بدأ الكونت بصب ثلاث كؤوس مرتعشًا، كما لو أن ذلك بأثر البرودة.

- حسنًا... بصحتكم! أمسك كأسك يا كائتان كازيميروفيتش!
شربتُ، بينما رفض البولندي بإيماءة من رأسه. جذب إليه سمك الحفش وتشممه في البداية ثم بدأ يأكل.
فليعذرني القارئ. سيتوجب عليّ الآن أن أصف مشهدًا غير رومانسي البتة.

قال الكونت بينما يصب دورًا جديدًا:

- حسنًا... هيا، لقد شربوا كأسًا أخرى... هيا أطلق العنان يا ليكوك^(٣٤)!

تناولتُ كأسِي ونظرتُ إليها، ثم تركتها مجددًا. قلتُ لنفسي:

- اللعنة! لم أشرب منذ زمن! ألا يجدر بنا تذكُّر الأيام الخوالي؟

ولم أفكر طويلاً، وسرعان ما أفرغت الكأس الخامسة في فمي، واحدًا تلو الآخر. لا أعرف الشرب بطريقة أخرى. يتعلم الطلبة الصغار التدخين من الطلبة الكبار. نظر إليَّ الكونت، وصبَّ لنفسه هو الآخر خمس كؤوس، وشربها كاملة. بدت له كؤوسي الخمس نوعًا من التفاخر بالشباب، لكنني لم أشربها لأفخر بقدرتي على الشرب... أردت أن أتمل بصورة جيدة وقوية لم أختبرها منذ زمن بعيد بعيشي في هذه القرية. بعد أن شربت جلست إلى الطاولة وبدأت في تناول لحم الخنزير.

لم يجعلني السُّكَّر أنتظر طويلاً؛ سرعان ما شعرت بدوار خفيف. اكتنفتُ صدري برودة حلوة، وبدأت تعتريني حالة سعيدة منفتحة. فجأة، ودون أن ألاحظ أي تحول، أصبحتُ مسرورًا بدرجة غير معقولة. أفسح الشعور بالخواء والملل مكانًا لشعور بفرحة وسرور شديدين. بدأت أضحك. أردت فجأة أن أثرثر وأضحك مع المحيطين بي. بدأت أشعر بامتلائي بالحياة، أو بشعور قريب من الرضى عن الحياة أو السعادة.

توجهت بحديثي إلى البولندي:

(٣٤) راجع حاشية ١٠.

- لماذا لا تشرب؟

قال الكونت:

- إنه لا يشرب أبدًا. لا تجبره على ذلك.

- لكن يمكنك أن تشرب شيئًا هنا بالتأكيد.

وضع البولندي في فمه قطعة سمك حفش كبيرة، ورفض بإيماءة من رأسه. أغضبني صمته. سألته:

- اسمع يا كائيتان... ما اسم أبيك؟ لماذا أنت صامت؟ لم أخطَ بمتعة سماع صوتك.

ارتفع حاجباه الشبيهان بطائرين سنونو يطيران، ونظر إليّ. سألني بلهجة بولندية قوية:

- هل تريد أن أتحدث؟

- جدًا.

- ما السبب؟

- عذرًا... عندما يتناولون الطعام على متن البواخر، يتحدث الناس غير المتعارفين، وها قد تعرفنا منذ عدة ساعات، وتأمل كل منا الآخر، ورغم ذلك لم نوجّه إلى بعضنا كلمة واحدة. فكيف ذلك؟

صمت البولندي. سألته بعد أن انتظرت لبرهة:

- لماذا أنت صامت؟ أجب بشيء!

- لا أريد أن أجيبك. أشتم في حديثك نبرة سخرية، وأنا لا أحب السخرية.

تنبه الكونت وقال:

- إنه لا يسخر أبداً. أين وجدت هذه النبرة يا كائيتان؟ إنه يتحدث بود و...

قال كائيتان وقد اكفهر وجهه:

- لا يتحدث معي السادة والأمراء بهذه اللهجة. لا أحب هذه اللهجة.

- لن تتعطف إذن وتحدث، أليس كذلك؟

هكذا واصلتُ إزعاجه بينما أصب لنفسي كأساً آخر ضاحكاً.

قاطع الكونت الحديث، رغبة في تغيير مجراه:

- أنعلم لماذا عدتُ إلى هنا تحديداً؟ ألم أحدثك عن ذلك بعد؟ في بطرسبرج ذهبت إلى طبيب معروف يتابع حالتي باستمرار، واشتكيت له من مرضي. استمع إليّ وفحص جسدي وجسّه. أتعرف ماذا قال بعد كل ذلك؟ «لستَ جباناً، أليس كذلك؟»، ورغم أنني لست جباناً، لكنني شحبت بينما أجيبه «لستُ جباناً».

- قُل المختصر المفيد يا أخي. لقد مللت.

- أخبرني أنني سأموت سريعاً إن لم أترك بطرسبرج. لقد تلف كبدي من الإفراط في الشرب. قررت أن آتي هنا. نعم، من الغباء أن أمكث هناك. الضيعة هنا توفر لي ترفاً وثراءً، وهذه هي الأجواء

التي يرغب فيها المرء. الطقس هنا وحده يساوي الكثير. على الأقل
يمكنني هنا أن أشغل نفسي بالعمل. العمل هو أفضل دواء وأكثرها
فاعلية. أليس كذلك يا كائيتان؟ عليّ أن أشغل نفسي بشؤون الضيعة
وأفارق الشرب. لم يسمح لي الطبيب ولو بكأس واحدة!
- حسنًا، لا تشرب إذن.

- لن أشرب... اليوم هي المرة الأخيرة، احتفالًا بلقائك.
واقترب مني الكونت وطبع قبلة على وجنتي، وأكمل:

- احتفالًا بلقاء صديقي الطيب اللطيف. بدءًا من الغد لن أسمح
لنفسي حتى بقطرة واحدة. اليوم أودع باخوس^(٣٥) إلى الأبد.
دعنا نشرب يا سيريوجا كأس كونياك نخب هذا الوداع.
شربنا كأس كونياك.

- سوف أتعافى يا عزيزي سيريوجا، وأبشر أعمال ضيعتي...
أديرها إدارة رشيدة. أوربينين الصالح والعزيز يفهم كل
شيء، ولكن هل هو السيد؟ إنه يمارس الأعمال الروتينية
وحسب. يتطلب الأمر اقتباس بعض الأجزاء من المجالات
وقراءتها ومتابعتها والمشاركة في المعارض الزراعية، لكنه
غير مهياً لذلك. أيعقل أن يكون قد وقع في غرام أولينكا؟
هاها! يجب أن أعني بكل شيء، وأجعله مديرًا لأعمالي.
سوف أشارك في الانتخابات وأتمتع بالمشاركة في

(٣٥) إله الخمر الروماني.

الجمعيات المختلفة، أليس كذلك؟ يمكنني هنا أن أعيش
بسعادة. ما رأيك؟ لكنك تضحك! إنك تضحك فعلاً!
صحيح، الحديث معك مستحيل.

كنت سعيداً مستمتعاً. أضحكني الكونت، وكذلك الشموع
وزجاجات الخمر والأرانب اللدنة والإوز وحوائط حجرة الطعام
المزينة... الشيء الوحيد الذي لم يضحكني كانت سيماء وجه كائيتان
كازيميروفيتش. أغضبني حضور ذلك الإنسان. همست للكونت:

- ألا يمكنك أن ترسل هذا السيد البولندي إلى الجحيم؟

تمتم الكونت وهو يمسك بذراعيّ، كما لو أنني قد اعتزمت ضرب
البولندي:

- ماذا تقول؟ بحق الله... اتركه لحاله!

- لكنني لا أطيق رؤيته (ثم توجهت بحديثي إلى بشيخوتسكي)
اسمع: لقد رفضت التحدث معي، ولكن باختصار ... اعذرني،
إنني لم أفقد الأمل بعد في التعرف على قدرتك على التحدث.

جذبني الكونت من كُمي قائلاً:

- اتركه لحاله! أتوسل إليك!

واصلت قائلاً:

- سوف أستمّر في إزعاجك إلى أن تجيبني. لماذا تعبس؟ هل
تشتّم في نبرتي الآن أي سخريّة؟
دمدم البولندي:

- لو كنت قد ثملتُ مثلما ثملتُ لتحدثتُ معك، لكننا الآن لا
نشكل ثنائياً مناسباً.

كان يجب أن نثبت أننا لسنا ثنائياً مناسباً... أردت أن أقول ذلك
تحديداً. الخنزير ليس رفيق الإوزة، وكذلك المفيق ليس رفيق الثمل.
الثلمل يزعج المفيق، والعكس صحيح. في قاعة الاستقبال المجاورة
ثمة أرائك ناعمة ممتازة. من الرائع أن يستلقي عليها المرء بعد تناول
سمك الحفش بالفجل الحار. لن يكون بإمكانك هناك أن تسمع صوتي.
ألا تريد أن تتوجه إلى هناك؟

رفع الكونت يديه وأخذت عيناه تطرفان، وهو يطوف غرفة الطعام.
- إنه جبان، ويخشى دائماً الحوارات «الخطيرة». على النقيض،
عندما أتمل أحب أن يحدث سوء فهم واستياء...
تأوه الكونت غير عالم ماذا يجب عليه أن يقول أو يفعل:
- أنا لا أفهم... أنا لا أفهم.

«لقد عرف أنه كان من الصعب إيقافني»، واصلتُ:

- لم أتعرف عليك بعد بصورة كافية. ربما تكون أروع الناس،
لذا لا أريد أن أتعارك معك في وقت مبكر للغاية... لن أتعارك
معك... كل ما في الأمر أنني أريدك أن تفهم أنه لا مكان للمفيق
بين الثملين. وجود إنسان مفيق يثير غضب الثمل. عليك أن تفهم
ذلك.

تنهد البولندي قائلاً:

- قُلْ ما يحلو لك. لن يثيرني شيء أيها الشاب.

- أَلن يؤثر فيك شيء؟ أَلن تستاء أيضًا إن أَسَميتك بالخنزير العنيد؟

احمر وجه البولندي وحسب. اقترب مني الكونت الشاحب، ونظر إليَّ نظرة متوسلة باسطاً ذراعيه قائلاً:

- أتوسل إليك أن تصمت!

كنت قد تقمصت فعلاً دور الثمل، وأردت أن أواصل، ولكن لحسن حظ الكونت والبولندي تناهت إلينا أصوات أقدام، ودخل أوريبنين غرفة الطعام. بدأ حديثه قائلاً:

- أتمنى لكم وجبة شهية. جئت لأعرف: هل لسعادتكم أي أوامر؟

- إلى الآن لا، ولكن ثمة طلب... أنا سعيد جداً أنك جئت يا بيتر يجوريتش... اجلس وتناول عشاءك معنا ودعنا نتحدث عن أمور الضيعة.

جلس أوريبنين. شرب الكونت كونياك، وبدأ يعرض له خططه المستقبلية في مجال الإدارة الرشيدة. ظل يتحدث حديثاً طويلاً منهكاً، تارة يكرر الموضوع، وتارة يُغيّره. استمع إليه أوريبنين بالطريق التي يستمع بها العقلاء إلى ثرثرة الأطفال والنساء؛ بتكاسل وانتباه. تناول حساء السمك الخاص به، ونظر إلى طبقه بحزن.

قال الكونت بشكل عابر:

- لقد جلبتُ معي بعض الخطط الرائعة... خطط رائعة حقاً. أتريد أن أريها لك؟

نهض كارنيف فجأة من مكانه وركض إلى غرفته ليجلب الخطط.
استغل أوربينين غيابه وسرعان ما صبّ لنفسه نصف كأس فودكا،
وشربها دون مشهيات. قال ناظرًا إلى الكونت بكراهية:

- مريعة هذه الفودكا!

سألته:

- لماذا لا تشرب في حضور الكونت يا بيتر يجوريتش؟ هل
تخشاه؟

- الأفضل يا سيرجي بتروفيتش أن أناقّه؛ الشرب خفية أفضل من
الشرب في حضوره. أنت تعرف أن شخصية الكونت غريبة. إن
سرقْتُ منه عشرين ألفًا بذكاء، لن يقول شيئًا بسبب لا مبالته،
ولكن إن نسيْتُ أن أعطيه حسابًا عن عشرة كوبيكات أنفقت، أو
شربتُ فودكا في حضوره، سيبدأ في البكاء قائلاً إن لديه مدير
أعمال لصًا. أنت تعرفه جيدًا.

صب أوربينين نصف كأس أخرى وشربها.

- أظن أنك لم تشرب قبلاً يا بيتر يجوريتش.

- نعم، لكنني أشرب الآن... (وهمس) أشرب بفضاعة! أشرب
بفضاعة نهارًا وليلاً، دون أن أترك لنفسي دقيقة راحة واحدة. لم
يشرب الكونت بهذه الدرجة التي أشرب بها الآن. الأمر صعب
ل للغاية يا سيرجي بتروفيتش. الله وحده يعلم مدى ثقل الحمل
الذي يعذب قلبي. في الواقع أنا أشرب من فرط الحزن. لطالما

أحببتك وشعرت بالاحترام صوبك يا سيرجيه بترفيتش، وأقول
لك بصراحة أنني أود لو أشق نفسي!
- لماذا؟

- بسبب غبائي... ليس الأطفال وحدهم أغبياء، ثمة حمقى بلغ
سنهم الخمسين. لا تسألني عن أسباب.
دخل الكونت فتوقف عن حديثه المتدفق. بدلاً من أن يضع على
الطاولة «خططه الرائعة»، وضع زجاجة بينديكتين (مشروب كحولي)
سمينة، وقال:

- عندما مررتُ بموسكو جلبتها من متجر ديري. أتود أن تشرب
يا سيريو جا؟
قلت له:

- ظننتك ذهبت لتُحضر خططك!
- أي خطط؟ آآه... نعم! ولكنك تعرف يا أخي أن حتى الشيطان
نفسه لا يستطيع أن يجد شيئاً داخل حقائبي! بحثتُ وبحثتُ ثم
توقفتُ... هذه خمر جيدة جداً... ألا تريد؟

جلس أوربينين لبرهة أخرى، ثم استأذن وانصرف. ما إن غادر،
حتى أقبلنا على شرب نبيذ أحمر. قضى على هذا ما تبقى مني تمامًا.
وصلت إلى حالة الثمالة التي أردتها تحديداً عندما ذهبت إلى الكونت.
أصبحت روعي في حالة مرح مفرطة ونشاط وسرور غير عاديين. أردت
أن أقوم بعمل غير عادي ضاحك؛ أردت أن أتباهى... بدا لي في هذه

اللحظات أنني قادر على عبور البحيرة كلها عومًا، وعلى حل أصعب المسائل والظفر بأي امرأة... أفضى بي العالم بكل ما فيه من حيوات إلى البهجة، وأحببته، لكنني في الآن ذاته أردت أن أعارك شخصًا ما وأن أطلق عبارات سامة حادة، وأن أهزأ بأحدهم. شعرت أنه عليّ أن أهزأ بهذا البولندي داكن الحاجبين المثير للسخرية، وبالكونت؛ أن أهاجمهما هجومًا لا ذعًا وأطحنهما تمامًا. بدأت:

- لماذا أنت صامت؟ تكلم، كلي آذان صاغية. هاها... أحب جدًّا عندما يقول أناس ذوو ملامح وجه جادة قاسية هراءً طفوليًّا. هذه سخرية... سخرية من العقول الإنسانية. وجوه لا تتفق مع عقولها! إن تحرير الصدق كان لزامًا عليك أن تحظى بوجه ذي ملامح حمقاء، بينما سيماء وجهك تشبه أوجه حكماء اليونان!

لم أنتهِ. تعثر لساني بسبب فكرة أنني أتحدث مع أناس تافهين لا يستحقون حتى كلمة واحدة من كلماتي! كنت في حاجة إلى ردة مليئة بالناس والنساء الفاتنات وآلاف الأضواء. نهضتُ وتناولت كأسًا وذهبت لأذرع الغرف. عندما نسرف في تناول الخمر لا نُقيّد أنفسنا بمكان. لا نكتفي بحجرة الطعام وحسب، بل نشغل المنزل كله، وأحيانًا الضيعة بأكملها.

انتقيت أريكة تركية في حجرة الجلوس الفسيفسائية، واستلقيت عليها وسلّمت نفسي لقياد الأوهام والقلاع المشيدة في الهواء. أحلام ثملة، لكن أحدها استولى على عقلي تمامًا، وكان أسمى من الأخرى، لا يحده شيء... شُيّد عالم جديد أمامي مليءً بالمفانن المسكرة غير القابلة للوصف.

لم يكن ينقصني سوى نظم الشعر ورؤية الهلاوس.

اقترب الكونت مني وجلس على طرف الأريكة. أراد أن يقول شيئاً لي. كنت قد قرأت هذه الرغبة في عينيه؛ الرغبة في أن يقول لي شيئاً ما خاصاً بعد تناول الكؤوس الخمس التي ذكرتها سابقاً. عرفتُ ما أراد قوله لي. قال:

- ما أكثر ما شربْتُ اليوم! الخمر بالنسبة لي أسوأ من أي سم.
لكنها المرة الأخيرة اليوم... كلمة شرف: هذه المرة الأخيرة.
لديَّ الإرادة لـ....

- حسناً... حسناً.

- للمرة الأخيرة... سيريوجا يا صديقي، للمرة الأخيرة: أليس علينا
أن نرسل برقية إلى المدينة؟

- لا مانع... أرسلها!

- لنثمل للمرة الأخيرة إذن كما ينبغي! انهض واكتبها!

لم يكن الكونت قادراً على كتابة البرقيات بنفسه. يكتب جملاً
طويلة وغير مكتملة. نهضت وكتبت:

«س... مطعم لندن. قائد الجوقة: كاربوف. اترك كل شيء وتعال
فوراً في قطار الساعة الثانية. الكونت».

قال الكونت:

- الساعة الآن ٤٥, ١٠ دقيقة. سوف يستغرق ساعة إلا ربعاً ليصل
إلى المحطة بالجياد، ساعة على أقصى تقدير... ستصل البرقية

إلى كاربوف في الساعة الواحدة. سيلحق إذن بالقطار... إن لم يلحق به، يمكنه أن يأتي في قطار البضائع، أليس كذلك؟
أُرسلت البرقية بواسطة كوزما الأعور... أمر إيليا بأن يرسل المركبات إلى المحطة في غضون ساعة... بدافع من الرغبة في قتل الوقت، بدأت أضيء المصابيح والشموع ببطء في كافة الغرف، ثم فتحت البيانو وجربت بعض المفاتيح.

بعد ذلك تذكرت... استلقيت على الأريكة ولم أفكر في شيء بعينه، ولوّحت بذراعي مشيرًا للكونت الذي أتى رغبة في التحدث معي، أن يتركني لحالي. كنت وسان، في حالة أقرب إلى النوم، غير شاعر بشيء سوى نور المصباح الساطع وحالة مزاجية مبهجة هادئة. انتصبتُ أمامي صورة الفتاة بردائها الأحمر، وهي تُميل رأسها على كتفها، بعينها المليئتين بالهلع من التفكير في طريقة الموت المؤثرة هذه، وتحذرنني بهدوء بإشارة بإصبعها الصغير. كما عبرتُ أمامي صورة فتاة أخرى ترتدي رداءً أسود، ذات وجه شاحب فخور، ونظرت إليّ نظرة يمتزج فيها التضرع بالتأنيب.

بعدها سمعت ضحيجًا وضحكًا وصوتَ عدوّ... أعين سوداء عميقة حجبت عني الضوء. رأيت بريقها وضحكها. ارتسمت ابتسامة مفرحة على الشفاه الريانة... هكذا كانت غجريتني تينا تبتسم... سألتني:
- أهذا أنت؟ هل أنت نائم؟ انهض يا عزيزي! لم أرك منذ فترة طويلة.

مددت إليها يدي صامتًا وجذبتها إليّ.

- فلنمضِ إلى هناك. لقد وصلوا جميعاً.

- فلنبقَ. أنا بخير هنا يا تينا.

- ولكن هنا الضوء ساطع. أنت مجنون... يمكنهم أن يدخلوا هنا.

- سوف ألوي عنق مَنْ يدخل... أنا بخير يا تينا. انقضى عامان بالفعل منذ آخر مرة رأيتك فيها.

عزفوا على البيانو بقاعة الاستقبال. وصدحت بعض الأصوات بالغناء:

آه يا موسكو، يا موسكو

موسكو، ذات الحجارة البيضاء^(٣٦)

- أرايتِ؟ إنهم جميعاً يغنون هناك. لن يدخل أحد.

- نعم، نعم.

انتزعني تينا من وسني. في غضون عشر دقائق كانت قد أخرجتني إلى قاعة الاستقبال حيث شكَّلت الجوقة نصف دائرة. كان الكونت جالساً على المقعد منفرج الساقين، كأنه على جواد، يدق الإيقاع بيده. وقف بشيخوتسكي خلف مقعده، ناظراً بعينين ذاهلتين إلى الصادحين بالغناء كالطيور. انتزعتُ البالالاياكا^(٣٧) من يد كاربوف، وضربت على الأوتار:

أسفل عند أمنــــا... أمنا الفولجا

ورددت الجوقة من خلفي:

(٣٦) أغنية شهيرة عن موسكو.

(٣٧) آلة موسيقية روسية شعبية تشبه العود.

أمنّا الفولجا...

لَوّحت بيدي، وفي غمضة عين، مع ضربة برق، حدث تحول
جديد...

ليالٍ مجنونة... ليالٍ بهيجة

لا شيء يمكنه أن يثير أعصابي ويدغدغها أكثر من مثل هذه
التحولات الحادة. كنت أرتجف من فرط البهجة، ممسكاً تينا بيدٍ،
وبالأخرى ألوّح بالبالا لا يكا في الهواء، حتى وصلت إلى نهاية «ليالٍ
مجنونة». سقطت البالا لا يكا على الأرض بعنف وتحطمت إلى قطع
صغيرة.

- هاتوا النبيذ!

تعارض الفوضى ذاكرتي فيما يتعلق بما حدث بعد ذلك. اختلط
كل شيء... كل شيء ضبابي وغير واضح. أتذكر سماء الصباح الباكر
الرمادية... نبحر بالزوارق... تضطرب مياه البحيرة قليلاً وتدمدم وهي
تنظر إلى مجونتنا. أقف وسط الزوارق وأتمايل... تينا تؤكد لي أنني بهذه
الطريقة سوف أسقط في الماء، وتطلب مني الجلوس. أعلن بصوت
عالٍ أسني على غياب الأمواج التي يصل ارتفاعها إلى ارتفاع المقبرة
الحجرية عند البحيرة، وأخيف بصيحتي طيور الخطاف اللامعة كنقاط
بيضاء على سطح البحيرة الأزرق. تبع ذلك نهار طويل حار بوجبات
إفطار لا نهائية وخمور معتقة منذ عشرات الأعوام وشراب بنش^(٣٨)

(٣٨) خليط من المشروبات الكحولية وغير الكحولية.

وفسق... لا أتذكر من هذا اليوم سوى بعض اللحظات... أتذكر نفسي
أتأرجح مع تينا في الحديقة على الأرجوحة. أجلس على طرف اللوح،
وتجلس هي على الطرف الآخر. أحاول الضغط بكل قوة جذعي
المتيبس، بأذلاً كل قوتي، ولا أعرف ما أريده تحديداً: هل أريد أن تسقط
تينا من الأرجوحة وتموت أم تطير إلى السحاب العالي؟ تبدو تينا شاحبة
شحوب الموت، لكنها تصر على أسنانها بفخر وحب للذات، حتى لا
تطلق صوتاً واحداً يفشي خوفها. نظير أعلى فأعلى... لا أتذكر كيف
انتهى الأمر. لا بد أن نزهة مع تينا قد تلت ذلك في الزقاق البعيد ذي
الأقواس الخضراء التي تحجب ضوء الشمس. عتمة شاعرية، وجدائل
سوداء وشفاه ريانة وهمس. بعدها يرافقني صوت كونترالتو^(٣٩)...
شقراء صغيرة ذات أنف حاد وعينين طفوليتين وخصر دقيق جداً. أنزّه
معها إلى أن تلتحق تينا بنا. لم تجعل مني أضحوكة. الغجرية شاحبة
وغاضبة... تقول لي إني «لعين» وتنوي الرحيل إلى المدينة وهي
غاضبة. يركض الكونت شاحباً صوبنا بيدين مرتعشتين، وكعاداته لا
يجد الكلمات المناسبة ليقنع تينا بالبقاء. انتهى الأمر بصفعة منها لي.
الغريب أنني عادة ما أصاب بالجنون من أقل إساءة يوجهها لي رجل،
بينما لا أبالي على الإطلاق بصفعات النساء. قيلولة طويلة مجدداً بعد
الغداء، والثعبان على السلم مجدداً، وفرانس النائم والذباب حول
فمه، والبوابات مرة أخرى. تقف الفتاة ذات الرداء الأحمر عند المقبرة

(٣٩) نوع من الأصوات الغنائية، ويعتبر أكثر الأصوات النسائية عمقاً وندرة، حيث يقع بين تينور
وميزو-سوبرانو. يصنف صوت كونترالتو بأنه يحتل المجال بين نغمة F تحت C الوسطى حتى
G الثانية فوق C الوسطى.

الحجرية، ولكن ما إن ترانا حتى تتلاشى كالسحلية.

قُبالة المساء نصالح تينا ونعود أصدقاء مجدداً. تتبع المساء ليلة صاخبة بمصاحبة الموسيقى، وغناء فاضح وتحولات عصبية مثيرة.... ولا دقيقة نوم واحدة.

همس لي أوريبنين قائلاً حينما توقف للحظة بينما يستمع لغنائنا:

- هذا تدمير ذاتي!

إنه محق بالطبع. أذكرني بعد ذلك واقفاً مع الكونت في الحديقة وجهاً لوجه نتجادل. يسير بالقرب منا كائتان ذو الحاجبين الأسودين، دون أن يشارك أدنى مشاركة في لهونا، ومع ذلك لا ينام، ويتبعنا طوال الوقت كالظل... السماء بيضاء، وعلى قمة أعلى شجرة تبدأ أشعة الشمس المشرقة في الوميض. تنعب الغربان من حولنا وتزرز الزرايزر، وبحلول الليل اشتدت خشخشة وحفيف الشجر. كان بالإمكان سماع يعار الغنم وصيحات الرعاة. ثمة منضدة بالقرب منا ذات لوح رخامي، وعليها شموع تبعث ضوءاً شاحباً. أعقاب سجائر وأوراق لف حلوى وكؤوس محطمة وقشر برتقال.

أقول مُقدِّماً للكونت حزمة أوراق مالية:

- يجب أن تأخذها. سأجبرك على قبولها.

قال الكونت ليقنعني، محاولاً أن يمسك بأحد أذرتي:

- أنا من دعوتهم لا أنت. أنا السيد هنا. أنا من دعوتك للوليمة.

لماذا تدفع إذن؟ عليك أن تدرك أنك بهذا تسيء إليّ.

- لقد استأجرتهم أنا أيضًا، لذا سأدفع النصف. ألن تأخذ؟ لا
أستطيع قبول هذا التفضل! أيعقل أن تظن أنه طالما أنك ثري
كالشيطان، يحق لك أن تتفضل عليّ؟ اللعنة! أنا من استأجرت
كاربوف، وأنا من سيدفع له. لست في حاجة إليك لتدفع النصف.
أنا من أرسل البرقية.

- يمكنك يا سيريوجا أن تدفع في المطعم كما يحلو لك، لكن
منزلي ليس مطعمًا. بالتالي أنا لا أفهم إطلاقًا سبب هذه الجلبة
وذلك الإسراف. ليس لديك الكثير من المال، بينما لديّ من
المال ما لا أعرف طريقة لإنفاقه. الصواب في جانبي إذن.

- ألن تأخذ المال إذن؟ لا؟ حسنًا، لا ضرورة لها إذن.

أقرب الأوراق المالية من وهج الشمعة الشاحب، وأشعل النار فيها
ثم ألقها على الأرض. تنفجر صيحة من صدر كائتان فجأة. يفتح عينيه
على آخرهما، ويشحب وجهه ويسقط بكامل وزنه على الأرض محاولاً
إطفاء النار المشتعلة بالأوراق المالية... ينجح في ذلك. يقول واضعاً
النقود في جيبه:

- أنا لا أفهم... أتحرق المال؟ كما لو أنها خطابات غزل أو حب

عفا عليها الزمن. أن تمنحها للفقير أفضل من أن تمنحها للنار!

أدخل المنزل... أجد في كافة الغرف الغجر نائمين، على الأرائك
والسجاجيد، منبطحين، سكارى... تينا العزيزة تنام على أريكة بحجرة
الجلوس الفسيفسائية.

كانت ممددة على الأريكة، تتنفس بعمق. الشفاه مزمومة والوجه شاحب. ربما تحلم بالأرجوحة. تذرع العجوز الشمطاء الغرف كلها، وتنظر بعينيهما الحادتين بضغينة إلى أولئك الذين هتكوا فجأة ستار صمت الموت بهذه الضيعة المنسية. إنها لا تذرع المكان وتحرك أطرافها عبثاً. هذا كل ما تبقى في ذاكرتي بعد ليلتين مسعورتين. أما بقية الأمور فإما إنها لا تبقى في عقول السكارى، وإما لا يصح وصفها. يكفي ذلك! لم يحدث أبداً أن أقلتني زوركا بهذه الحمية كما حدث في الصباح التالي لحرق الأوراق المالية. أرادت هي أيضاً أن تعود إلى المنزل. تناهى خرير موجات الماء الهادئ بالبحيرة، وقد انعكست الشمس المشرقة على صفحة الماء، واستعدت لقيولة النهار. انتصبت الغابات وأشجار الصفصاف المحيطة بصفاف البحيرة في سكون، كما لو أنها منخرطة في صلاة صباحية. يصعب وصف حالة روحي حينها بدقة. لن أقول الكثير، وسأكتفي بقول إني ابتهجت بهجة يصعب التعبير عنها، وفي الآن ذاته كدت أحترق من فرط شعوري بالخجل عندما شاهدت على ضفة البحيرة أثناء انعطافي مبتعداً عن ضيعة الكونت الوجه الورع للعجوز ميخي؛ الوجه العجوز الشاحب المنهك من العمل الشريف. يُذكّرني مرأى ميخي بصيادي السمك الذين ورد ذكرهم بالأناجيل. إنه أشيب ككلب الصيد، ملتج، ينظر إلى السماء بتأمل. عندما يقف ساكناً على ضفة البحيرة، ويتتبع بنظره السحب الراكضة، يمكن للمرء أن يظن أنه ينظر إلى ملائكة على صفحة السماء. أحب هذه الوجوه.

عندما رأيته أوقفتُ زولكا ومددتُ له يدي، كما لو أنني قد رغبت في التطهر بلمس يده الصلبة الطاهرة. رفع عينيه الصغيرتين صوبي وابتسم.

قال مُقدِّمًا إليَّ يده على نحو أخرق:

- مرحبًا أيها السيد الطيب... ما الذي جاء بك إلى هنا مجددًا؟ هل

عاد ذلك المتبطل إلى هنا؟

- نعم عاد.

- نعم نعم... يمكنني رؤية ذلك على وجهك. أقف هنا وأنظر...

العالم هو العالم... باطل الأباطيل^(٤٠). انظر هناك! لا بد أن

الموت سيلحق بهذا الألماني، بينما لا يهتم إلا بما هو باطل...

أترى؟

أشار العجوز بعصاه صوب حوض السباحة الكونت. أبحر زورق

سريعًا من ناحية حوض السباحة، ولاح فيه إنسان يرتدي قلنسوة فارس

وسترة زرقاء. كان ذلك فرانس البستاني.

في كل صباح يأخذ مالا إلى هذه الجزيرة ويخفيه هناك. هذا الغبي

لا يستطيع أن يفهم أن للمال قيمة الرمل. سيموت المرء ولن يأخذ معه

شيئًا. أعطني سيجارة يا سيدي.

قدمت له علبة السجائر. أخذ ثلاث ووضعها في جيب الصدر قائلاً:

- هذه لابن أخي... يمكنه أن يدخن إذن.

تحركت زوركا بنفاد صبر وقفزت من مكانها. انحنيت للشيخ

شاعرًا بالامتنان له على إعطاء عيني الفرصة لأن تستريحاً بالنظر إلى

وجهه. ظل يتتبعني بنظره طويلاً.

(٤٠) إشارة إلى سفر الجامعة باطل الأباطيل، الكل باطل. ٢: ١.

بوصولي المنزل التقيت ببوليكارب. أحاط جسدي الضخم بنظرة
ازدراء مربكة، كما لو أنه يريد أن يعرف هل نزلت إلى المياه بكامل ثيابي
تلك المرة أم لا. دمدم:

- أهنتك... يبدو أنك استمتعت بوقتك.

قلت:

- صمتًا أيها الأحمر!

أغضبتني ملامح وجهه الحمقاء. خلعت ثيابي سريعًا، وتدفرت
بالغطاء، وأغلقت عيني.

دارت رأسي، وأحاط الضباب بالعالم. في قلب هذا الضباب
ظهرت لي أجسد أعرفها: الكونت - الأفعى - فرانس - كلاب بلون
اللهيب - الفتاة ذات الرداء الأحمر - نيكولا ي فيميتش المجنون.

- زوج قتل زوجته! آه، كم أنت غبي!

حذرتني الفتاة ذات الرداء الأحمر بإصبعها، وحجبت تينا الضوء
بعينيها السوداوين... نمت!

كم ينعم بنوم حلو ومطمئن! بالنظر إلى هذا الوجه الشاحب
المنهك، والابتسامة الطفولية البريئة، والاستماع إلى هذه الأنفاس
المنتظمة، لا يمكن للمرء أن يظن أن محققًا قضائيًا يرقد على هذا
الفراش بل ما يُجسّد أهدأ الضمائر! يمكن للمرء أن يظن أن الكونت
كارنييف لم يصل بعد، وأنه لم تحدث أي نوبات سُكر ولم يأت الغجر،
ولم تحدث فضائح عند البحيرة... انهض أيها الفاسق! إنك لا تستحق

أن تنعم بنعمة النوم الهادئ. قُم!

فتحت عينيّ وتمطعت بعدوبة... امتد من النافذة إلى فراشي شعاع ضوء عريض لاح فيه عدد لا نهائي من ذرات التراب في حالة اضطراب، تطارد كل منها الأخرى، بحيث بدا شعاع الشمس نفسه أبيض داكن. تلاشى الشعاع من أمام عيني، ثم عاود ظهوره، وذلك بسبب دخول طبيب مقاطعتنا العزيز بافل إيفانوفيتش فوزنيسينسكي الغرفة، وبالتالي دخوله مجال الضوء، ثم ابتعاده عنه. ظهر الطبيب بسترته الطويلة المفكوكة أزرارها، والتي تدلت منه كما لو أنها مُعلّقة على شماعة، واضعاً يديه في جيبي سرواله الطويل بشكل غير معقول، وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، مارّاً بكافة المقاعد واللوحات، تضيع حلقنا عينيه قصيرتا النظر أثناء النظر إلى كل شيء يجده في مجال رؤيته. نتيجة استسلامه لعادته التي تقضي بأن يحك أنفه ويدع عينيه تنظران إلى كل ما تستطيعان النظر إليه، كان تارة ينحني، وتارة يشب على أطراف قدميه ليحديق في حوض الاغتسال، ومنحنيات جانبه السفلي، والشقوق الخشبية والمصباح... كأنه يبحث عن شيء ما أو يريد التيقن من أن كل شيء على ما يرام... يعبس بينما ينظر عن كثب إلى شق ما أو بقعة ما على ورق الجدران، ويرسم تعبير قلق على وجهه، ويشتم الرائحة بأنفه الطويل ويكشطها بأظافره بكد... كان يفعل كل ذلك بطريقة آلية، دون وعي، وبحكم العادة لا أكثر، وبالرغم من أنه كان ينقل عينيه سريعاً من شيء لآخر، لكنه كان يبدو بمظهر الخبير الذي يقوم بعملية فحص دقيقة.

- انهض... ألا تسمعني؟

هكذا أيقظني بصوته التينور الرخيم، ناظرًا إلى حامل الصابونة،
منتزعًا بظفره من الصابونة شعرة ما.

قلت له متثائبًا بعد أن رأيته منحنيًا على إناء الاغتسال:

- آه... مرحبًا يا سيد «عفريت»! منذ فترة طويلة جدًا لم نلتق!

تسخر المقاطعة كلها من الدكتور «عفريت» بسبب تضيقه الأبدي
لعينه، وكذلك سخرتُ منه. عندما رأى فوزنيسينكي أنني استيقظت،
اقترب مني وجلس على طرف الفراش وسحب علبة أعواد ثقاب
بالقرب من عينيه الضيقتين. قال:

- لا ينام بهذه الطريقة إلا المتسكعون وأولئك من ينعمون بضمير
صافٍ، وأنت لست من هؤلاء ولا من أولئك. سيكون من الأفضل
لك يا صديقي لو نهضت أبكر من الآن قليلًا.

- كم الساعة الآن؟

- قاربت على الحادية عشرة.

- عليك اللعنة يا عفريت! لم يطلب منك أحد أن توقظني في هذه
الساعة المبكرة. لم أنم إلا في السادسة، ولولاك لنمتُ حتى
المساء.

سمعت صوت بوليكارب العميق من الغرفة المجاورة يقول:

- فعلاً! كل هذا ولم ينام بما فيه الكفاية! ينام يومين ويقول إن هذا
قليل! هل تعرف نحن في أي يوم؟

سألني هذا السؤال وهو يدخل غرفة نومي ناظرًا إليَّ نظرة الأذكاء
إلى الحمقى! قلتُ:

- الأربعاء.

- نعم، بالطبع! لقد صنعوا لك خصيصًا أسبوعًا يضم يومي الأربعاء!
قال الطبيب:

- اليوم الخميس! هكذا تركت نفسك يا عزيزي تنام طوال الأربعاء!
جيد... جيد جدًا! اسمح لي أن أسألك: كم شربت؟

- لم أنم ليومين، وشربت قدر... لا أتذكر... لا أتذكر كم شربت.
ما إن سمعت حديث بوليكارب، حتى بدأت أرتمي ثيابي وأصف
للطبيب هذه الليالي المجنونة والأحاديث غير المترابطة التي قضيتها
مؤخرًا، وكيف تبدو جميلة ومؤثرة في الروايات، بينما تبدو شديدة
القبح في الواقع. حاولت في أوصافي ألا أتخطى حدود الحكى الخفيف
وأن أتمسك بالحقائق وألا أنساق إلى المواعظ الأخلاقية، رغم أن كل
ذلك يتعارض مع طبيعة الشخص الشغوف بالوصول إلى استنتاجات.
تظاهرت أنني أتحدث عن تفاهات لا تجذب اهتمامي. أخفيت الكثير،
شفقة بعفة بافل إيفانوفيتش، واضعًا في اعتباري نفوره من الكونت، ولم
ألمس الكثير من الموضوعات سوى بحذر. بالرغم من ذلك، وبالرغم
حتى من نبرة المزاح في حديثي وطريقتي الكاريكاتيرية، ظل الطبيب
طوال حديثي يحدق في وجهي بجدية، يهز رأسه حينًا، ويهز كتفيه بنفاد
صبر حينًا آخر. لم يتسم أبدًا... من الواضح أن حكى الخفيف قد ترك
فيه انطباعًا قويًا. سألته بعد أن انتهيت:

- لماذا لا تضحك يا «عفرت»؟
- لم أكن لأصدق ذلك أبدًا لو أنك الراوي، ولولا توفر ظرف محدد. الأمر قبيح بصورة مؤلمة يا صديقي.
- أي ظرف تقصد؟
- قضيت مساء الأمس كاملاً مع فلاح هاجمته بالمجداف بطريقة غير لائقة؛ أقصد إيفان أوسيوف.
- إيفان أوسيوف؟ (هزئت كتفي) لم أسمع اسمه من قبل.
- طويل القامة، متورد الوجنتين، يغطي النمش وجهه... هل تذكرته؟ ضربته على رأسه بالمجداف.
- لا أتذكر شيئاً من ذلك. لا أعرف ذلك المدعو أوسيوف، ولم أضرب أحداً بمجداف. يبدو أنك حلمت بكل ذلك أيها العم!
- ليته كان حلمًا... لقد جاء إليّ بشهادة من مقاطعة كارنيف وطلب مني شهادة طبية. ذكر التقرير أنك أنت من تسببت في هذا الجرح، وهو لا يكذب. هل تذكرت الآن؟ الجرح أعلى الجبهة على حدود شعر الرأس. لقد وصل الجرح إلى العظام يا عزيزي!
- همستُ:
- لا أتذكر ذلك. من ذلك الشخص؟ ماذا يعمل؟
- فلاح عادي من مقاطعة كارنيف. كان يجدف بالبحيرة بينما كنتُ تعربد.

- إمام... ربما! لا أتذكر... يُحتمل أنني قمت بشيء غير متعمد
أثناء سُكري.

- لا... لم يكن الأمر غير متعمد. يقول إنك تضايقت منه بسبب أمر
ما، واشتعلت غضبًا. ظللت تسبه، ثم اندفعت صوبه وأصبتة على
مرأى من الشهود. بالإضافة إلى ذلك صرخت: «سوف أقتلك
أيها الوغد!».

احمر وجهي وأخذت أذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا. قلتُ بينما أعتصر
ذاكرتي:

- أقسم لك بحياتي لا أتذكر شيئًا. تقول إنني اشتعلت غضبًا...
حينما أئمل أصبح وغدًا يؤدي أفعالًا لا تُغتفر.

- ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- من الواضح أن الفلاح يريد أن يُشعل فضيحة. لكن ذلك ليس
هو المهم... المهم هي حقيقة الضرب. هل يُعقل أنني قادر على
العراك؟ ولماذا من الأساس أضرب هذا الفلاح البائس؟

- نعم سعادتك، لم أعطه بالطبع شهادة طبية، لكنني أخبرته أن يتوجه
إليك. يمكنك أن تسوّي الأمر معه بطريقة ما... قلت له إن جروحه
طفيفة، لكنني أقول لك بشكل غير رسمي إن جرح الرأس غائر
وخطير، وصل حتى عظام الجمجمة. يحدث في حالات كثيرة أن
ينتهي أمر أبسط جروح الرأس الناتجة عن ضربة خفيفة إلى تآكل
عظام الجمجمة، ومن ثم ينتهي الأمر بالجريح إلى اللحاق بأسلافه!

قاطعتُ ثرثرته الطيبة قائلاً:

- كُف عن هذه الثرثرة! ألا تدرك كم يبدو ذلك مضجراً؟!

- لا يهم أنه مضجر. اسمع حديثي واقرع نفسك... ربما تتحلى في المرة القادمة بمزيد من الحذر ولا ترتكب مثل هذه الحماقات. يمكن أن تفقد وظيفتك إذا لم تسوّ أمرك مع هذا الشقي المدعو أوسيبوف. حتى كاهن سميث^(٤١) يمكن أن يُحاكم على جرح كذلك. إنها فضيحة!

بافل إيفانوفيتش هو الإنسان الوحيد الذي أستمتع إلى إداناته ببساطة، دون أن أعبس، وهو الوحيد الذي أسمح له أن يُوجّه إليّ نظرات استفهامية، وأترك يديه تستكشفان روحي. نحن صديقان بأفضل معاني الكلمة، يحترم كلانا الآخر، رغم أن بيننا حسابات تتعلق بموضوع حساس وغير لطيف. مرت بيننا امرأة كقط أسود. هذا الموضوع الذي يتسبب دوماً في اندلاع حرب، لكنها لم تستطع أن تشعل حرباً بيننا، وظللنا في سلام متبادل. السيد «عفرت» رفيق طيب جداً. أحب وجهه البسيط... وجهه الذي يصعب وصفه تماماً بأنه بلاستيكي مرن... وجهه بأنف ضخمة وعينين ضيقتين، ولحية ضاربة إلى الحمرة ناعمة. أحب جسده الطويل النحيل ضيق الكتفين، والذي تبدو عليه السترة كما لو أنها متدلّية على شماعة.

تجتمع الثنيات المشوهة لسرواله المصمم بشكل قبيح عند الركتين،

(٤١) إله القانون في الميثولوجيا اليونانية.

وتطأ القدمان ثنيات نهاية السروال بلا رحمة. دائماً ما تبدو ربطة رابطة عنقه البيضاء في غير مكانها... لكن لا تظنوا أنه قذر. تكفي نظرة واحدة إلى وجهه الطيب الغارق في التركيز لتدركوا أنه ليس لديه وقت لهذا الهذر المتعلق بالمظهر الخارجي. بالإضافة إلى ذلك لا يمكنه أن... إنه شاب طاهر، غير منغمس في الملذات، يحب علمه الطبي، في حالة حركة دائمة. يكفي ذلك لتبرير كافة عيوبه. إنه كالفنان، لا يعرف قيمة المال، يضحي بكل هدوء براحته ونعم الحياة من أجل أهداف شغفه البسيطة، لذا يعطي انطباعاً لغيره بأنه مفلس، يمكنه بالكاد أن يكسب قوته. إنه لا يدخن ولا يشرب خمرًا، ولا يدفع من أجل أن يحظى بامرأة، وبالرغم من ذلك تطير من بين يديه الألفا روبل التي يربحها من وظيفته وعمله الخاص سريعًا، كما يتبدد المال مني سريعًا حينما أنغمس في المجون. شغفان يسلبانه تمامًا: أن يُقرض غيره وأن يطلب ما يُعلن عنه في الصحف. يعطي مالا لكل من يسأله، دون كلمة واحدة عن موعد استرداد المال. لم يُدق مسمارًا واحدًا في نعش إيمانه الطائش بطيبة الناس، ويلوح هذا الإيمان في أبهى صوره في شرائه المستمر لتلك الأغراض التي يُعلن عنها في الصحف. يشتري كل ما يُعلن عنه، سواء كان في حاجة إليه أم لا. يشتري كتبًا وتليسكوبات ومجلات فكاهية وأدوات طعام مكونة من مائة قطعة، ويشتري كرونومتر^(٤٢). لا عجب إذن أن يظن مرضاه غرفته مستودعًا أو متحفًا. يغشه الناس مرة تلو الأخرى، ويظل إيمانه كما هو: قويًا وطائشًا. إنه صديق عظيم فعلاً،

(٤٢) أداة لقياس الزمن بدقة بالغة.

وسنلتقي به في صفحات تلك الرواية أكثر من مرة.

- يااه... لقد مكثت طويلاً عندك!

قال هذا بعد أن نظر فجأة إلى ساعته الرخيصة ذات الغطاء الواحد التي طلبها سابقاً من موسكو «بضمان ٥ أعوام»، ورغم ذلك أصلحها مرتين.

- حان وقت انصرافي يا صديقي. وداعاً وتذكر كلماتي: حفلات الكونت الماجنة الصاخبة هذه لن تنتهي بخير، ناهيك عن تأثيرها على صحتك. آاه... نعم... هل ستذهب غداً إلى تينيفو؟

- وماذا سيحدث هناك غداً؟

- عيد تدشين الكنيسة^(٤٣) هناك. الجميع سوف يذهبون، فتعال أنت أيضاً. لا بد أن تأتي. لقد قطعْتُ عهداً بأنك ستأتي، فلا تجعلني كاذباً.

لم يكن ضرورياً أن أسأله: «لَمَنْ قطعْتَ وعداً؟»، فهمنا بعضنا. ودّعني الطبيب، وارتدى معطفه القديم ورحل.

بقيتُ وحدي. اقتربت من مكتبي لأتخلص من الأفكار غير السارة التي بدأت تعتمل في ذهني، وحاولت ألا أفكر، وألا أقدم لنفسي حساباً عن شيء وأنشغل بالبريد الوارد.... تضمن أول ظرف وقعت عليه عيني الخطاب الآتي:

«عزيزي الغالي سيريوجا... اعذرني على إزعاجي لك، لكنني مندهشة حقاً إلى حد أنني لا أعرف إلى من يجب أن أتوجه. الأمر غريب

(٤٣) اليوم الموافق لذكرى القديس الذي دُشنت كنيسة ما باسمه.

جداً، لا يشبه غيره. بالطبع لن يحل ذلك المشكلة الآن، وأنا لا أشعر بالأسف من ذلك، ولكن احكم بنفسك: إن تسامحنا مع اللصوص، لن يمكن لامرأة محترمة أن تنعم بأي هدوء. بعد أن رحلت، استيقظتُ على الأريكة ولم أجد أغراضي عليَّ. لقد سرقوا السوار وزر زينة ذهبياً وعشر لآلئ من القلادة وحوالي مائة روبل من محفظة نقودي. أردت أن أشتكي للكونت، لكنه كان نائماً، وبالتالي رحلتُ. هذا أمر سيئ. يسرقون في بيت الكونت كما لو أنهم في حانة. بلغ الكونت بالأمر. قبلاتي وتحياتي. حبيبتك تينا».

حقيقة أن منزل الكونت يعج باللصوص ليست جديدة عليَّ، وقد ألحقت خطاب تينا ببقية ما هو عالق في ذاكرتي تجاه ذلك الأمر. عاجلاً أم عاجلاً سيتوجب عليَّ استخدام تلك المعلومات في قضية ما... عرفت من هم اللصوص.

خطاب تينا ذات العينين السوداوين وخطها الكبير اللذين ذكّراني بقاعة الاستقبال الفسيفسائية، وحثاً فيَّ رغبة تشبه الرغبة في السكر مجدداً، لكنني غالبتني وأجبرتني على العمل بقوة إرادتي. في البداية شعرت بملل لا يوصف في فك شفرة خطوط ضباط الشرطة الفضفاضة، ولكن تدريجياً تركز انتباهي على عملية سرقة بالإكراه، وبدأت أعمل باستمتاع. عكفت طوال اليوم على العمل على مكتبي، ومر بوليكارب بالقرب مني، ونظر إلى عملي بريبة. لم يكن يثق بحالة إفاقتي، وانتظر أن أنهض من على مكتبي في أي دقيقة وأمر بأن يعدوا زوركا. لكن قبالة المساء، عندما رأى مثابرتي أفسح عبوس وجهه مكاناً لتعبير بالرضى.

كان يسير على أطراف أصابعه، يتحدث همساً... عندما مر بعضهم تحت نافذتي بصحبة أكورد يون، خرج إلى الشارع وصاح:

- لماذا تتسكعون هنا أيها الشياطين؟ اذهبوا إلى شارع آخر! ألا تدركون أيها المحمديون^(٤٤) أن السيد يعمل هنا؟

بعد أن أعد السماور بحجرة الطعام في المساء، فتح بابي بهدوء ودعاني بلطف إلى شرب الشاي.

- هل تأتني رجاءً لتشرب بعض الشاي؟

قالها بلطف مبتسماً باحترام.

بينما كنت أشرب الشاي، اقترب من خلفي بهدوء وقبّل كتفي متمماً:

- هكذا أفضل يا سيرجي بتروفيتش، فلتبصق على هذا الشيطان الأشقر جداً! عسى أن... هل يليق بشخص يتمتع بذكائك وتعليمك أن يخالط مثل هؤلاء الجبناء؟ إن عملك نبيل. يجب أن يبجلك الجميع ويخشوك، ولكن إن تركت الناس يفقدون عقولهم مع هذا الشيطان، وسبحت في البحيرة بكامل ثيابك سيقولون جميعاً: «إنه مجنون. إنسان تافه!»، وحينها قل على الدنيا السلام. الوقاحة تلائم تاجرًا، لا نبيلًا... العلم والوظيفة هما ما يلائمان النبيل.

(٤٤) لم يكن المسلمون قديمًا في روسيا والغرب يُسمون: مسلمين، بل محمديين، ويبدو أن صيحة الخادم هنا هي نوع من التحقير العنصري، حيث لا توجد إشارة إلى أن المارة مسلمون، والاحتمال الآخر أن يكونوا تترًا، وبالتالي عرفهم الخادم من ملامحهم وثيابهم.

- حسنًا... هذا يكفي... هذا يكفي.

- سيرجي بتروفيتش... لا تخالط ذلك الكونت! إن أردتَ صديقًا،

فهل يوجد أفضل من الطبيب بافل إيفانيتش؟ صحيح أنه رث

الثياب ولكن كم هو ذكي!

تأثرتُ بإخلاص بوليكارب. أردتُ أن أقول له كلمة رقيقة. سألته:

- في أي رواية تقرأ الآن؟

- كونت مونت كريستو. يا له من كونت! كونت حقيقي فعلاً،

وليس ككونتك القدر.

بعد شرب الشاي، عملتُ مجددًا حتى انهار جفناي وانغلقت عيناي
المجهدتان. استلقيت لأنام، وأمرت بوليكارب أن يوقظني في الخامسة.

في اليوم التالي، في السادسة صباحًا، تمشيت إلى تينيفو مرحًا
أطلق صفيحًا، أداعب بعصاي رؤوس الأزهار، حيث كان عيد تدشين
الكنيسة الذي دعاني إليه صديقي «العفريت» بافل إيفانوفيتش. كان
صباحًا رائعًا. بدت لي السعادة ذاتها كأنها تتدلى فوق الأرض، منعكسة
على قطرات الندى الماسية، تجتذب أرواح المارين بها. كانت الغابة
المُكتنفة بنور الصباح هادئة وساكنة، كأنها تنصت السمع لخطواتي
ولزققة الطيور الأخوية التي التقتني بتعبير يشي بعدم الثقة والخوف.
كان الهواء مُشبَّعًا برائحة خضرة الربيع، وداعب برقته رثيَّ القويتين.
استنشقتُ هذا العبير، تاركًا لعينيَّ المسرورتين العنان لتنظرا إلى المتسع
من حولهما، وشعرتُ بالربيع والشباب، وبدا لي أن أشجار البتولا الشابة

والعشب الموجود على جانبي الطريق وحفيف الخنافس المستمر دون توقف يشاركونني شعوري.

قلتُ في نفسي: «لماذا يحبس أهل هذا العالم أنفسهم داخل إطار أفكارهم الضيق، في الوقت الذي يوجد فيه متسع للحياة والفكر؟ لماذا لا يأتون إلى هذه الرحابة؟».

رفضتُ مخيلتي الشعريّة أن تزعجني بالتفكير في الشتاء والخبز؛ مصدرى الأسى الطاردين للشعر في بطرسبرج الباردة المبتدلة، وكذلك في موسكو القذرة حيث يمدان الشاعر هناك بالمال مقابل قصائده، لكنهما لا يلهمانه بالشعر أبدًا.

عبرتُ بالقرب مني بعض مركبات الفلاحين وعربات السادة، مسرعة لحضور القداس والسوق. اضطرني ذلك إلى خلع قبعتي والرد على تحيات وانحناءات الفلاحين والسادة الملاك من المعارف. عرض كل منهم أن يوصلني، لكن المشي كان أفضل بالنسبة لي، وبالتالي رفضت عروضهم. الشيء بالشيء يذكر، عبر بي بستان الكونت فرانس مستقلًا عربته، وكان يرتدي سترة زرقاء وقبعة فرسان. نظر إليّ بتكاسل وبعينين ناعستين ماكرتين، ولمس بيده حافة قبعته ليحييني بمزيد من التكاسل. رأيت خلف عربته برميلًا ذا خمسة دلاء مقيّدًا بها بحلقة معدنية، وكان من الواضح أنه برميل فودكا. أفسدت سيماء وجه فرانس المنفرة وبرميله مزاجي الشاعر، ولكن سرعان ما انتصر الشعر مجددًا عندما سمعتُ من خلفي ضجيج عربة؛ فالتفتُ ورأيت عربة ثقيلة مربوطة إلى جوادين كستنائيين، ورأيت بداخل هذه العربة الثقيلة

على مقعد جلدي يشبه الصندوق شخصية تعرفتُ عليها حديثاً؛ الفتاة ذات الرداء الأحمر التي تحدثتُ معي منذ يومين عن تلك الكهرباء التي قتلتُ أمها. توهج وجه أولينكا الجميل المغسول حديثاً والناعس بعض الشيء، وتورد قليلاً عندما رأيتني أسير على الجانب الفاصل بين الغابة والطريق. هزّت لي رأسها بسرور وابتسمت ابتسامة دمثة كما يتسم من يعرفون بعضهم منذ فترة طويلة. صحتُ قائلاً لها:

- صباح الخير.

حيّتي بيدها، وسرعان ما تلاشتُ هي وعربتها الثقيلة من مرمى عيني، دون أن تمنحني فرصة لأتمعن النظر في وجهها الجميل المفعم بالحياة. في تلك المرة لم ترتدِ رداءها الأحمر. ارتدتُ فستاناً بلون أخضر داكن ذا أزرة كبيرة، وكذلك قبعة قش واسعة الحواف. لكن رغم ذلك راقت لي كما راقت لي قبلاً. كنت لأتحدث معها وأسمع صوتها بنفس السرور. أردت لو أهدق في عينيها العميقتين في ضوء الشمس مثلما حدثتُ فيهما ذات مساء في وميض البرق. أردت أن أنزلها من عربتها البسيطة وأعرض عليها أن تكمل طريقها سيراً معي، وبقيناً كنت لأفعل ذلك لولا قواعد هذا المجتمع. لسبب ما بدا لي أنها كانت لتوافق طواعية على عرضي. لا عجب أنها نظرت إليّ مرتين عندما انعطفت العربّة خلف أشجار جار الماء!

كانت المسافة التي تفصل مسكني عن تينيفو تصل إلى ستة فرسات، وهي مسافة بسيطة بالنسبة لشاب يسير في صباح جميل. مع حلول السابعة، كنت أشق طريقي فعلاً إلى كنيسة تينيفو بين العربات

وسقيفات السوق. تعالى ضجيج البيع والشراء، بالرغم من التوقيت المبكر، وبالرغم من أن صلاة القداس لم تكن قد انتهت بعد. صرير العربات وصهيل الجياد وخوار البقر وأصوات ألعاب الأطفال التي على شكل أبواق... امتزج كل ذلك مع صيحات باعة الفجر وغناء الفلاحين الذين ثملوا رغم الصباح الباكر. يا لعدد الشخصيات المتبيلة! يا لأنواعها المختلفة! يا للفتنة والحركة المعتلجتين في قلب هذا الحشد الغارق في نور شمس الصباح بثيابه المبرقشة بألوان ساطعة! تسكعت هذه الأعداد التي تصل إلى عدة آلاف في المكان وضجت حتى تستطيع أن تنهي عملها في غضون عدة ساعات وترحل قبالة المساء، تاركة في الميدان من خلفها بقايا التبن وبعض الشوفان المتناثر وقشورًا جوزية الشكل كذكرى لها. تدفقت حشود كثيفة من الكنيسة إليها.

انبعثت أشعة ذهبية من صليب الكنيسة... أشعة ساطعة سطوع الشمس ذاتها. بدا من فرط بريقه كما لو أنه يحترق بنار ذهبية. توهجت أسفل قمة الكنيسة نفسها بالنار وقبة الكنيسة الخضراء المطلية حديثاً في ضوء الشمس، ومن خلف الصليب البراق انبسط لون أزرق صافي على نطاق واسع. اقتربت من السياج المحتشدة حوله أعداد ضخمة من الناس، وشقيت طريقي إلى الكنيسة. كانت صلاة القداس قد بدأت منذ فترة بسيطة، وعند دخولي كانوا يقرأون فصلاً من الرسائل^(٤٥). خيم الصمت على الكنيسة، ولم تخرقه سوى قراءة السفر المقدس وخطوات الشماس الحانق. وقف الحضور صامتين ساكنين يرمقون

(٤٥) مقطع من إحدى رسائل بولس أو رسول آخر من نصوص العهد الجديد. في الكنيسة المصرية يطلقون على قراءة رسائل بولس: البولس، ورسائل بقية الرسل: الكاثوليكون.

بوابات الهيكل المقدسة المفتوحة بورع، وينصتون لقراءة الشماس المطوّلة. الآداب القروية، أو بالأحرى آداب القرية الصارمة تضطهد أي محاولة لكسر حجاب الصمت الورع بالكنيسة. كنت أشعر دائماً بالخزي عندما كان يضطرنني أحدهم للابتسام له في الكنيسة أو التحدث معه. لسوء الحظ، كان من النادر ألا ألتقي في الكنيسة بمعارفي، وهم للأسف كثيرون جداً. عادة بعد دخول الكنيسة - كما فعلتُ الآن - يقترب مني أحد هؤلاء «المثقفين»، وبعد مقدمات طويلة عن الطقس، يبدأ حديثه عن حالة الإفلاس التي يعيشها. كنت أجيب بـ «نعم» و«لا» ولكن همساً، فلم يكن بإمكانني أن أرفض تماماً تحويل أي انتباه إلى مُحدّثي. لكن هذه الهمسات كانت تكلفني الكثير: كنت أنبس بها وأنظر إلى المصلين بجواري بارتباك، خشية أن أسيء إليهم بشرثرتي البطالة.

لم يمر الأمر تلك المرة كذلك دون لقاء بمعارف. ما إن دخلت الكنيسة حتى رأيت بطلتي مباشرة؛ تلك الفتاة ذات الرداء الأحمر التي رأيتها تشق طريقها إلى تينفو.

احمر وجه المسكينة كسرطان البحر، وبدت متعركة في وقفاتها بين الحاضرين، تُقلّب عينيها المتوسلتين على وجوه الجميع عسى أن يُخلّصها أحد. علقتُ بين حشود الحاضرين، غير قادرة على الحركة إلى الأمام أو إلى الخلف، وبدت كطائر صغير تُمسك به قبضة ما بإحكام. ما إن رأيتني حتى ابتسمت بمرارة وأومأت إليّ بذقنها الجميل. أمسكتُ بكمي قائلة:

- خذني إلى الأمام بحق الله. الجو هنا خانق بدرجة مريعة والمكان شديد الازدحام. أرجوك!

قلت لها:

- ولكن مزدحم أيضًا في المقدمة.

لكنهم هناك يرتدون جميعًا ثيابًا نظيفة ولائقة. أما هنا فمكان العامة. ثمة مكان محجوز لنا في المقدمة. لا بد أن ثمة مكانًا لك أيضًا.

اتضح إذن أن وجهها لم يتورد بسبب الجو الخانق والازدحام الشديد. كان رأسها الصغير مُعذَّبًا بمسألة ضيق الأفق. استجبت للطلبات الدنيوية الخاصة بصلوات الفتاة الصغيرة واصطحبتها إلى الأُميون^(٤٦) ذاته، دافعًا المحتشدين بحذر، حيث كانت هناك صفوة مقاطعتنا. بعد أن وضعت أولينكا في المكان الملائم لرغباتها الأرستقراطية، وقفتُ خلف تجمع الصفوة السالف وانشغلت بالمراقبة.

تهامس السادة والسيدات وضحكوا كعادتهم. كان قاضي الصلح^(٤٧) كالينين يشير بأصابعه ويهز رأسه ويحكي بصوت مبسوح لمالك الأراضي ديريايف عن أمراضه. سبَّ ديريايف الأطباء بصوت مسموع تقريبًا ونصح القاضي بالعلاج لدى شخص يُدعى يفسترات إيفانيتش. ما إن رأت السيدات أولينكا، حتى انكببن عليها حيث قد رأين فيها هدفًا جيدًا لنمائهن. كانت هناك فتاة واحدة انخرطت كما يبدو في الصلاة... كانت راکعة على ركبتها، موجَّهة عينيها السوداوين

(٤٦) المساحة الموجودة بالكنيسة أمام أبواب الهيكل مباشرة.

(٤٧) موظف قضائي معين من إحدى المحاكم بهدف حل المنازعات.

إلى أعلى، تتمم شفتاها بشيء ما. لم تلاحظ كيف تدلت خصلة شعر من أسفل قبعتها بشكل عشوائي على وجنتها... لم تلاحظ كيف وقفتُ بصحبة أولينكا بالقرب منها.

كانت هذه هي ابنة قاضي الصلح كالينين ناديجدا نيكولايفنا^(٤٨). عندما تحدثتُ سابقاً عن امرأة عبرت بيني وبين الطبيب كقط أسود، كنت أقصدها... أحبها الطبيب؟ أحبها كما يمكن لأصحاب تلك الطبائع الطاهرة من أمثال صديقي «العفريت» بافل إيفانوفيتش أن يحبوا. إنه الآن واقف بالقرب منها كالعمود، مُمسك وجنتيه بيديه، ماداً عنقه... كان ينظر أحياناً بعينه الرقيقتين المتسائلتين إلى وجهها الذي تبدو عليه أمارات التركيز. بدا كأنه يحرس صلاتها، وقد ومضت في عينيه رغبة ملحة ضاغطة لأن يكون هو موضوع صلاتها. ولكن لسوء حظه كان يعرف موضوع صلاتها. لم يكن هو...

أومأت لبافل إيفانوفيتش عندما التقت نظرانا، وخرج كلانا من الكنيسة. اقترحت عليه:

– دعنا نتجول في السوق.

دَحَنَّا ثم تجولنا حول المتاجر. سألتُ الطبيب عندما دخلنا إلى إحدى الخيم حيث يبيعون ألعاباً:

– كيف حال ناديجدا نيكولايفنا؟

(٤٨) فليتنبه القارئ إلى اختلاف الشخصيتين رغم تشابه الأسماء: أولجا نيكولايفنا – ناديجدا نيكولايفنا. فليلاحظ كذلك أن ناديجدا يمكن تدليلها بنادينكا أو ناديا، كما أنها تُدعى أحياناً ناديجدا كالينينا.

- يجدر بي القول إنها تبدو بصحة جيدة. إنها تسأل عنك.
هكذا أجباني محدقًا في لعبة على شكل جندي صغير بوجه
أرجواني وثياب عسكرية قرمزية.

- تسأل عني بخصوص ماذا؟

- كلام عام. تقول إنها غاضبة منك لأنك لم تزرهم منذ فترة
طويلة. تريد أن تراك لتسألك عن أسباب هذه البرودة المفاجئة
التي اكتفتك تجاههم. كنت تذهب إليهم كل يوم تقريبًا ثم تغير
الأمر. كما لو أنك تقاطعها. تقول إنك لم تعد حتى تُحييها.

- إنها تكذب يا عفريت. الحقيقة أنني لم أعد أزور منزل آل كالينين
بسبب ضيق الوقت. هذه هي الحقيقة. لا تزال علاقتي بهذه
الأسرة ممتازة كما كانت. أحيي كل من التقيه منهم باستمرار.

- لكنك التقيت بأبيها يوم الخميس الماضي، ولسبب ما لم ترد
تحيته.

- أنا لا أحب هذا القاضي الثرثار. لا يمكنني أن أنظر إلى وجهه
بلا مبالاة، ورغم ذلك لا تزال لديّ القوة لأحييه وأصافح
يده الممدودة إليّ بالتحية. ربما لم ألاحظه أو لم أعرف عليه
يوم الخميس. يبدو أنك اليوم لست في حالة مزاجية جيدة يا
«عفريت» وتحاول افتعال مشكلة.

تنهد بافل إيفانوفيتش قائلاً:

- أحبك يا عزيزي لكني لا أصدقك. لست في حاجة إلى تبريراتك

«لم ألاحظه - لم أعرفه» ولا ذرائعك. ما الحاجة إليها طالما أنها غير حقيقية؟ أنت إنسان رائع وصالح، ولكن هناك مسمار مغروس في عقلك المريض - ولتعدرنني على قلبي هذا - يجعلك قادرًا على ارتكاب أي بذاءة.

- جزيل الشكر والامتنان.

- لا تغضب يا عزيزي. أتمنى أن أكون مخطئًا، ولكن يبدو لي أنك مضطرب العقل بعض الشيء. أحيانًا، بالرغم من إرادتك وطبيعتك الطيبة تهاجمك هذه الرغبات والأفعال، حتى أن كل مَنْ يعرفونك كشخصية مبجلة يحتارون في فهمك. إنك تصنع معجزة حينما تستطيع أن تجعل مبادئ الأخلاق الرفيعة التي لي شرف معرفتها تنسجم مع هذه البواعث المفاجئة التي تؤدي بك إلى نذالة صارخة.

وفجأةً توجهَ بافل إيفانوفيتش بحديثه إلى تاجر بعد أن غيّر لهجته، ناظرًا إلى لعبة على شكل حيوان من الغابة بأنف إنساني وعُرف أسد وخطوط رمادية على ظهره:

- ما هذا؟!

تثاءب التاجر قائلاً:

- أسد، أو ربما هو كائن آخر... الشيطان وحده يعرف!

خرجنا من سقيفات الألعاب وتوجهنا صوب تلك المتاجر الحمراء حيث كان البيع والشراء على أوجهما. قال الطبيب:

- هذه الألعاب لا تخدع سوى الأطفال. إنهم يقدمون لهم أكثر المفاهيم انحرافاً عن عالم الحيوانات والنباتات. هذا الأسد مثلاً... مقلّم وأرجواني ويصدر زقزقة. هل رأيت أسداً يزقزق من قبل؟

- اسمع يا عفريتي العزيز. من الواضح أنك تريد قول شيء ما لي، لكنك لم تحسم أمرك تماماً. تكلم... يسرني أن أستمع إليك حتى عندما تقول أموراً غير سارة.

- لا بد أن تسمع إليّ يا صديقي سواء كانت الأمور سارة أو غير سارة. أردت أن أتحدث معك عن أمور كثيرة.

- ابدأ إذن! سوف أتحوّل تماماً إلى أذنٍ واحدة كبيرة.

- لقد أخبرتك فعلاً بفرضيتي الخاصة بأنك مضطرب العقل. هل تريد أن تسمع الدليل الآن؟ سوف أتحدث بصراحة، وأحياناً سيكون حديثي حاداً بعض الشيء. سوف يزعجك حديثي ولكن لا تغضب يا صديقي. أنت تعرف حقيقة مشاعري تجاهك؛ تعرف أنك أكثر من أحبه وأحترمه في هذه المقاطعة. أنا لا أحدثك بهدف التقرّيع والإدانة ولا بهدف الطعن فيك. فلنكن موضوعيين يا صديقي. لنلقِ نظرة على جهازك النفسي بعين محايدة، كأننا نفحص كبداً أو معدة.

- حسناً، فلنكن موضوعيين.

- ممتاز. فلنبداً بعلاقتك مع آل كالينين. لو شحذت ذاكرتك قليلاً

ستذكر أنك بدأت زيارة آل كالينين فور وصولك إلى مقاطعتنا المباركة. هم لم يسعوا إلى معرفتك. في البداية لم تُثر إعجاب قاضي الصلح بكبريائك ولهجتك الساخرة وصدافتك للكونت الماجن، ولم تكن تزور بيت القاضي أبدًا بناءً على دعوة منه. أتذكر ذلك؟ لقد تعرفت على ناديچدا نيكولايفنا وبدأت تزور منزل القاضي كل يوم تقريبًا. أي شخص يزورهم كان يجدهم هناك دائمًا. استقبلوك بأقصى ود ممكن. لاطفوك بقدر الإمكان، سواء الأب أو الأم أو حتى الأخوات الصغيرات. ارتبطوا بك ارتباطهم بقريب عزيز. أُعجبوا بك وحملوك على كفوف الراحة وكانوا يضحكون من فكاهاتك. بالنسبة لهم كنت نموذجًا للذكاء والكياسة والنبيل. فهمتَ كل ذلك وكافأتَ تعلقهم بتعلقك، وكنت تذهب إليهم كل يوم، حتى في ليالي الأعياد حينما كان المنزل يضج بالتنظيف والترتيب. في النهاية لا يخفى عليك هذا الحب البائس الذي أيقظته في قلب ناديچدا. أخفى عليك ذلك؟ عرفتَ أنها غارقة في حبك حتى النخاع ورغم ذلك واطبتَ على زيارتك. وماذا حدث حينها يا صديقي؟ منذ عام توقفت فجأة دون سابق إنذار عن زيارتك. انتظروك أسبوعًا... شهرًا... إلى اليوم لم تزرهم. يرسلون إليك خطابات ولا تجيب عنها. في النهاية لا تُكَلِّف نفسك حتى عناء تحيتهم. لا بد أن تبدو سلوكياتك هذه في قمة الوقاحة حينما تصدر من شخص يعطي أهمية كبيرة لالتزام الياقة في التعامل. هل أساءوا إليك؟ لا. هل

مللت منهم؟ كان بإمكانك في هذه الحالة أن تنقطع عن زيارتهم
تدريجياً دون هذه الطريقة المسيئة والمهينة دون سبب.

ابتسمت وقلتُ:

- توقفتُ عن زيارتهم فأصبحتُ مضطرب العقل! كم أنت ساذج
يا عفريت! ما الفارق بين أن أقطع علاقتي بهم تدريجياً أو بشكل
فجائي؟ بل إن الأمر يبدو بهذه الطريقة أكثر صدقاً وأقل رياءً،
ولكن كل هذه محض تفاهات!

- لنفترض أن كل ذلك محض تفاهات أو أن سبب انقلابك الحاد
تجاههم سر لا يخص أحداً. ولكن بما تفسر سلوكياتك التي
تلت ذلك؟

- أعطني مثلاً.

- أحياناً تزور مجلس الزيمستفو^(٤٩) الخاص بنا، ولا أعرف لماذا،
وتجيب على سؤال رئيس المجلس المتعلق بأسباب توقفك عن
زيارة آل كالينين قائلاً... حاول أن تتذكر... قلت: «أخشى أن
يدفعوني إلى الزواج». هذا ما قُلته بلسانك هذا! قلت هذا وسط
الناس بوضوح وبصوت عالٍ حتى يسمعك كل الموجودين
بالقاعة. أيروقك ذلك؟ ردّاً على كلماتك يتعالى الضحك وتنطلق

(٤٩) بعد إلغاء القنانة ظهرت الحاجة إلى تغييرات عاجلة في نظام الحكم الذاتي المحلي. في أوائل
عام ١٨٦٣، أعدت لجنة خاصة مسودة حول ظهور شكل جديد من الحكم المحلي، والذي
أصبح يعرف بعد ذلك باسم زيمستفو. أنشئت مجالس الزيمستفو على أساس المقاطعات
والمناطق. وقّع القيصر ألكسندر الثاني هذه الوثيقة في ١ يناير ١٨٦٤.

السخریات البذيئة عن اصطیاد الأزواج. يلتقط أحد الأندال
كلماتك ويذهب إلى منزل آل كالینین ويبلغها لنادیجدا أثناء
تناول الغداء. ما الداعي إلى هذه الإهانة یا سیرجیه بتروفیتش؟
- سد بافل إیفانوفیتش الطريق عليّ وظل ينظر إليّ بعینه المتوسلتین
الموشكتین على البكاء قائلاً:

- ما الداعي إلى هذه الإهانة؟ لماذا؟ هل بسبب أن هذه الفتاة
الجميلة تحبك؟ فلنفترض أن أباهم أمل - كأبي أب - أن تتقدم
لها. إنه يتصرف كأبي أب آخر، يضع عينه عليك أو عليّ أو على
ماركوزین... الآباء جميعاً على نفس الشاكلة. لا شك أنها
غارقة في حبك حتى النخاع، وبالتالي تأمل أن تصیر زوجتك.
هل يستحق ذلك هذه الصفة المدوية؟ آه یا صديقي... آه یا
صديقي... ألسنت أنت المسؤول عن استشارة هذه الآمال بشأنك؟
كنت تذهب إليهم كل يوم، والزائر العادي لا يفعل ذلك. تقضي
معها الظهر في صيد السمك، وفي المساء تتجولان في
الحديقة، وتحافظ بغيرة على لقاءاتكما وجهاً لوجه (بالفرنسية
في الأصل)... عرفت أنها تحبك، ورغم ذلك لم تُغيّر سلوكك
مثقال ذرة. هل يمكن بعد كل ذلك ألا تُثار الشكوك حول نواياك
الطيبة؟ كنت متيقناً من أنكما سوف تتزوجان. وأنت... أنت
شكوت وابتسمت. ما الداعي لكل ذلك؟ ماذا فعلت لك؟

قلت متحاشياً بافل إیفانوفیتش:

- لا تُصَحّ يا عفريت، الناس ينظرون إلينا. أوقف هذا الحوار! هذه

ثرثرة نسائية. سأقول لك ثلاثة أمور وحسب، وستكتفي بذلك:
كنت أزور آل كالينين بدافع من شعوري بالوحدة، وبسبب
اهتمامي بنادينكا. إنها فتاة مشوقة جدًا. ربما كنت سأتزوج بها،
لكني ما إن عرفت أنك وقعت في حبها قبلي، وأن الأمر مهمٌ لك،
حتى قررتُ أن أختفي تمامًا. كان الأمر سيبدو قاسيًا من جانبي
إن وقفت في طريق رفيق رائع مثلك.

- أشكرك (بالفرنسية) على كرمك. لكني لم أطلب منك أن تتفضل
عليّ بهذا الإحسان، وبقدر ما يمكنني أن أحكم على تعبير
وجهك، فأني أدّعي أنك لا تقول الحقيقة. تقول هراء دون أن
تفكر حتى في كلماتك. إن حقيقة أنني رفيق رائع لم تمنعك من
أن تعرض على نادينكا ذات مرة في إحدى زياراتك الأخيرة أمرًا
لم يكن ليُجلب خيرًا لرفيقتك الرائع إن تزوج بها.

- أووه! كيف عرفت بهذا الطلب يا عفريت؟ إن كنت قادرًا على
معرفة مثل هذه الأخبار، فأمورك لا بأس بها إذن. يبدو أن وجهك
احمر من فرط الغضب وأنت على وشك أن تضربني. لكن ألم
نتفق على أن نكون موضوعيين؟ يا لك من عفريت مشير للسخرية!
فلنكتفِ من هذا الهراء ولنذهب إلى مكتب البريد.

توجهنا إلى قسم البريد الذي بدا مُبهجًا للأبصار بنوافذه الثلاث
الصغيرة المفتوحة على الميدان. في الحديقة الرمادية الصغيرة لمعت
الزهور الملونة التي زرعها مدير مكتب بريدنا مكسيم فيدوريتش،
المعروف في مقاطعتنا بخبرته في إقامة مشاتل الزهور وصنع الأسرة
والعناية بالمروج... إلخ.

وجدنا مكسيم فيدوريتش مسرورًا جدًا بعمله. كان وجهه متوردًا من البهجة، مبتسمًا، جالسًا إلى طاولته الخضراء يتصفح حزمة قديمة من أوراق نقدية من فئة المائة روبل ككتاب. من الواضح أن رؤية نقود شخص آخر يمكن أن تؤثر عليه بشدة. حييته قائلاً:

- مرحبًا يا مكسيم فيدوريتش! من أين جئت بكومة المال هذه؟
ابتسم ابتسامة حلوة، وأشار بذقنه إلى الزاوية حيث جلس على المقعد الوحيد بمكتب البريد شخص ما، قائلاً:
- سوف يرسلونها إلى سان بطرسبرج.

ما إن رأيته ذلك الشخص، حتى نهض من جلسته واقترب مني. أدركت أنه الشخص الذي تعرفت عليه حديثًا؛ عدوي الجبان الذي أسأت إليه عندما ثملتُ عند الكونت. قال لي:
- أقدم لك احترامي.

- مرحبًا يا كائتان كازيميروفيتش. هل الكونت بخير صحيحًا؟
هكذا أجبته، متظاهرًا بأنني لا أرى يده الممدودة إليّ. قرأت على وجهه بشيخوتسكي الرغبة في التحدث معي. كيف يمكن أن تظهر مثل هذه الرغبة بعد أن عاملته ذلك المساء كخنزير، وما مصدر هذا التغيير في طريقة التعامل؟ قلتُ ناظرًا إلى أكوام المال التي سوف تُرسل من فئة المئة روبل:

- يا لها من كمية كبيرة من المال!

شعرت كما لو أن أحدهم قد صعقني! لاحظت على إحدى رزم
المائة روبل حواف محترقة وزاوية محترقة تمامًا. كانت هذه هي الرزمة
التي أردت أن أحرقها بلهب الشمعة عندما رفض الكونت أن يأخذها
ليدفع للعجر، وهي التي التقطها بشيخوتسكي عندما ألقيت بها على
الأرض. قال حينها: «إعطاؤها لأحد الفقراء أفضل من إلقائها بالنار».
إلى أي فقير يُرسلها الآن؟!

قال مكسيم فيدوروفيتش بصوت مرتعش:

- سبعة آلاف وخمسمائة... مضبوط تمامًا.

ليس حسنًا أن أنطفل على أسرار الآخرين، لكن راودتني رغبة
مريعة في معرفة من صاحب هذا المال، وإلى من بيترسبرج قد أرسله
ذلك البولندي ذو الحجاب الأسود؟ في كل الأحوال لم تكن أمواله،
وليس لدى الكونت أحد ليرسل إليه هذه الأموال.

قلتُ في نفسي: «ربما سرق الكونت الثمل. إن كان بإمكان العجوز
الشمطاء الصماء الحمقاء أن تسلب الكونت، فما الصعوبة التي
ستواجهها هذه الإوزة لتدس قدمها في جيبه؟».

استدرك بافل إيفافيتش حديثه قائلاً:

- آه، بمناسبة أنني سأرسل مالا، هل تصدقون ذلك يا سادة؟ أمر
غريب جدًا! يمكن للمرأة أن يشحن خمسة أشياء في عربة مقابل
١٥ روبلاً! منظار مكبر - كونومتر - تقويم وشيء آخر... مكسيم
فيدوريتش... أعطني ورقة ومظروفًا رجاءً.

أرسل «العفريت» الخمسة عشر روبلاً، وحصلتُ على الصحف والخطابات وخرجنا من مكتب البريد.

توجهنا صوب الكنيسة. سار «العفريت» خلفي شاحباً كثيباً كيوم خريفي. انزعج بشدة -أكثر مما توقع- من هذا الحديث الذي حاول أن يبدو فيه موضوعياً.

رنت أجراس الكنيسة. هبط حشد كثيف درجات رواق الكنيسة، بدا كأنه لا نهاية له. تقدم الحشد صليب قاتم ورايات قديمة للقيام بموكب الصليب. انعكست الشمس بمرح على ثياب الكهنة، وشعت صورة والده الإله بأشعة تعمي الأبصار.

قال الطبيب مُشيراً إلى صفوة مقاطعتنا التي فصلت نفسها عن بقية الحشد، واعتزلت جانباً.

- ها هم جماعتنا.

- جماعتك لا جماعتي

- سيان... لنذهب إلى هناك.

اقتربت من معارفي وحييتهم. وقف قاضي الصلح كالينين، طويل القامة، عريض المنكبين، بلحية شيباء وعينين جاحظتين كسرطان البحر، متقدماً الجميع وهمس بشيء ما في أذن ابنته. تظاهر بأنه لم يرني وبالتالي لم يرد تحيتي إليه.

- وداعاً يا ملاكي. عودتي إلى المنزل بمفردك، وسوف أعود قبالة المساء. لن تطول زياراتي.

قال ذلك بصوت باكٍ، مُقبِّلاً جبهة ابنته الشاحبة. قبَّلها مجدداً وابتسم
ابتسامة حلوة لصفوة مقاطعتنا، ثم تجعد حاجباه بقسوة، وانعطف بحدة
على أحد كعبيه صوب الفلاح الواقف خلفه الذي ارتدى شارة قيادة،
قائلاً بصوت جهوري:

- أسرع... متى ستأتيني الجياد؟

ارتعش الفلاح ولَّوَحَ بيديه قائلاً:

- أفسحوا الطريق!

تنحى الجمع السائر في موكب الصليب واقتربتُ عربة قاضي
الصلح بأناقة يتعالى منها رنين الأجراس. جلس وانحنى للواقفين بأبهة،
ثم توارى عن الأنظار بعد تنبيه الواقفين بصيحة «أفسحوا الطريق» دون
أن ينظر إليَّ نظرة واحدة. همستُ في أذن الطبيب:

- يا له من خنزير فخم! فلنبتعد.

سألني بافل إيفانيتش:

- أَلن تتحدث مع ناديجدا نيكولايفنا؟

- يجب أن أعود للمنزل حالاً. ليس لديَّ وقت.

نظر إليَّ الطبيب بغضب وتنهَّد ثم انصرف. حيتت الحضور بانحناءة
عامة وتوجهت صوب السقائف. أثناء مروري بين الحشد الكثيف تلفتُ
ونظرتُ إلى ابنة قاضي الصلح. كانت تتبعني بنظرها كأنها تختبر ما إن
كان بإمكانني تحمل نقاوة نظرتها الثاقبة المليئة باللوم والاستياء المرير.
قالت لي عيناها:

- لماذا كل ذلك؟

اعتلج شيء في صدري، وشعرت بالألم والخزي من سلوكي الغبي. أردتُ فجأة أن أعود بكل قوة روعي الرقيقة التي لم تكن قد فسدت كلية، إلى ملاطفة ولمس هذه الفتاة التي أحببني كثيرًا، والتي أسأتُ إليها. أردتُ أن أقول لها إنني لستُ مذنبًا، بل هي كبريائي اللعينة التي لا تعطيني فرصة للعيش والتنفس أو حتى لأن أخطو خطوة واحدة. إنه كبرياء غبي سميك مليء بالغرور. هل كان بإمكانني أنا الإنسان التافه أن أمد يدي بالمصالحة لو كنتُ قد عرفتُ ورأيتُ أن كل خطوة أخطوها تتبعها أعين نامي المقاطعة والعجائز المشؤومات؟ أفضلُ أن يغمروها بنظراتهن وابتساماتهن الساخرة عن أن يكفُّوا عن ثقتهم بعناد شخصيتي وكبريائي اللذين يروقان بشدة للنساء الغيبات.

لم يكن حديثي صريحًا مع بافل إيفانيتش بشأن الأسباب التي دعنتني للتوقف فجأة عن زياراتي لآل كالينين، بل كان خاطئًا تمامًا. أخفيت السبب الحقيقي؛ أخفيتُه لأنني يبعث في الخزي من فرط تفاهته. كان بسيطًا جدًا كحفنة غبار. كان السبب كالآتي: في زيارتي الأخيرة إليهم، وبعد أن سلَّمتُ زوركا للحوذي ودخلت منزل آل كالينين، تناهت إلى أسماعي هذه العبارة: «نادينكا (تدليل ناديحدا)، أين أنتِ؟ لقد وصل عريسك!».

أبوها القاضي من قال هذه العبارة، وربما لم يتوقع أن بإمكانني سماعها. لكنني سمعتها، وتحدثت كبريائي داخلي قائلة: «أنا عريس؟ من الذي سمح له أن يُسميني عريسًا؟ على أي أساس؟».

اعتلج شيء في صدري. غلت الكبرياء داخلي ونسيتُ كل ما استعدته إلى ذاكرتي في طريقي إلى منزلهم. نسيت أنني غررت بالفتاة وأني بدأتُ أنجذب إليها فعلاً، حتى أنني لم أتصور أن بإمكانني قضاء ليلة واحدة دون لقائها. نسيتُ عينيها الجميلتين اللتين لم تكونا تفارقان ذهني نهاراً وليلاً، وابتسامتها الطيبة وصوتها الشجي. نسيتُ الأمسيات الصيفية الهادئة التي لن تتكرر أبداً لي أو لها. انهار كل شيء تحت وطأة كبرياء شيطاني استثارته العبارة الحمقاء التي تفوه بها الأب الساذج. غادرتُ المنزل غاضباً، وامتطيت زوركا وعدوت بها، مُقسِّماً على أن أُمَرِّغ أنفه في التراب؛ لوقاحته التي سمحتُ له بأن يعتبرني عريساً لابنته دون إذنٍ مني.

في طريق عودتي، بررتُ لنفسي رحيلي المفاجئ بالقول: «بالإضافة إلى ذلك فإن فوزنيسينكي يحبها. لقد بدأ الاقتراب منها قبلي، واعتبر نفسه عريساً لها حقاً قبل أن أتعرف عليها. لن أقف في طريقه إذن».

منذ ذلك الوقت لم أزرُ منزل آل كالينين أبداً، رغم مرور لحظات شعرتُ فيها بالمعاناة من افتقادي لنادينكا وبتمزق روحي المشتاقة إلى استعادة الماضي مجدداً. لكن المقاطعة بأكملها عرفتُ خبر قطع علاقتي بهم، وعرفتُ أنني فررت من الزواج، وقلتُ لنفسي: «لا يمكن لكبريائي أن تتنازل».

مَن يعرف ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم يقل كالينين هذه العبارة، ولو لم أكن مغروراً وموسوساً بغباء؟ ربما لم أكن قد التفتُ، ولم تكن هي قد نظرتُ إليَّ بهاتين العينين. لكن من الجيد أنها نظرت إليَّ تلك

النظرة. حسناً أن راودني ذلك الشعور بالاستياء واللوم. هذا أفضل مما شاهدته في هاتين العينين منذ عدة شهور مضتُ بعد لقائنا بالقرب من كنيسة تينيفو. لم يكن الحزن اللامع الآن في أعماق هاتين العينين السوداوين سوى بداية تلك البلية المريعة التي اكتسحت هذه الفتاة من على سطح الأرض، كقطار في أوج سرعته. بدت كأزهار قريبة من ثمرات توت قد أينعت بالفعل، أوشكت على صب سمها المريع في جسدها الهش وروحها المعذبة.

بخروجي من تينيفو، سرتُ على الطريق ذاته الذي قطعته صباحاً. كان الوقت منتصف الظهيرة. تناهت إلى آذاني صرير عربات السادة والفلاحين وصلصلة أجراسها المعدنية كما حدث صباحاً. عبر بي مجدداً فرانس البستاني ومعه برميل الفودكا، ولكن من المحتمل أنه كان مليئاً تلك المرة. نظر إليّ مجدداً بعينيه الكريهيتين، وحيّاني بلمس حافة قبعته. أزعجتني سيماء وجهه المنفرة، لكن في تلك المرة توارى ذلك الانطباع الثقيل الذي تركه فيّ لقائي به تماماً إثر رؤيتي لابنة حارس الغابة أولينكا التي كانت تقترب مني بعربتها. صحت فيها:

– هل يمكن أن تقلّيني معك؟

هزّت لي رأسها بسرور، وأوقفتُ العربة. جلستُ بجوارها، وتعالى ضجيج العربة السائرة على الطريق الذي بدا كشريط منير ممتد عبر أفق غابة تينيفو يصل إلى ثلاث فرسات. ظللنا صامتتين دقيقتين، يراقب كل منا الآخر.

قلتُ في نفسي، ناظرًا إلى عنقها وذقنها اللحيمة: «كم هي فاتنة حقًا! لو خيروني بينها وبين نادينكا، لاخترتها. إنها أبسط وأنضر، وطبيعتها أرحب... لديها ذراعان جميلتان، يمكن أن يفعل بهما المرء الكثير! لكن الأخرى شاحبة، حالمة، وذكية».

عند قدمي أولينكا كانت هناك قطعتان من الكتان، وعدة صرر.
قلتُ:

- كم حجم مشترواتك؟ وما حاجتكِ إلى الكتان؟
أجابت أولينكا:

- إني في حاجة إلى المزيد. اشتريت ذلك دون تخطيط. لا يمكنك أن تتصور كم المتاعب! ظللت أتجول اليوم بالسوق لساعة كاملة، وغدًا سيتوجب عليّ الذهاب إلى المدينة لجلب بعض المشتروات. بعدها يتوجب عليّ حياكة كل ذلك. قل لي: ألا تعرف نساء يمكنني أن أستأجرهن للحياكة؟

- أظن لا. ولكن ما حاجتكِ إلى كل ذلك؟ لمن تحيكين؟ أسرتك ليست كبيرة العدد. إنهما فردان وحسب.

- يا لغرابة جميع الرجال! إنكم لا تفهمون شيئًا. عندما تتزوج ستغضب إن أتتكِ زوجتك بعد الزفاف في حالة سيئة. أعرف أن بيتر يجوريتش ليس في حاجة إلى شيء، ولكن يظل من الحماقة ألا أظهر أمامه من البداية كسيدة محترمة.

- ما علاقة بيتر يجوريتش بالأمر؟

قالت أولينكا وقد تورد وجهها قليلاً:

- إِمم... إنك تخذعني، كأنك لا تعرف شيئاً.

- يا آنسة إنك تتحدثين بالألغاز.

- ألم تسمع بالأمر؟ سوف أتزوج بيتر يجوريتش.

تعجبتُ.

- تتزوجينه؟ أي بيتر يجوريتش تقصدين؟

- يا إلهي! أوريينين!

حدّقتُ في وجهها المتورد والمبتسم.

- تتزوجين؟ تتزوجين أوريينين؟ هل هذه مزحة؟

- لا مزاح هنا. إنني حتى لا أفهم ما المثير للسخرية هنا.

- أنتِ تتزوجين من أوريينين؟

قلتُ هذا وقد شحب وجهي، دون أن أعرف السبب. أكملتُ:

- إن لم يكن ذلك مزحة، فكيف نصفه؟

قالت أولينكا، زامة شفيتها:

- أي مزحة هنا؟ إنني حتى لا أفهم ما المدهش والغريب في الأمر.

انقضتُ دقيقة في صمت. نظرتُ إلى الفتاة الجميلة؛ إلى وجهها اليافع الذي يبدو كوجه طفلة تقريباً، وتعجبتُ من قدرتها على ذلك المزاح! تصورتُ فوراً بجانبها ذلك العجوز السمين أوريينين، بوجهه الأحمر، وأذنيه المتفختين، ويديه القاسيتين اللتين لا يمكن للمستهما

إلا أن تخدش ذلك الجسد الأثوي الشاب الذي بدأ حياته لتوه. لا بد أن تخيّل مثل هذه الصورة سيخيف حورية الغابات الجميلة التي بإمكانها أن تنظر إلى السماء بشاعرية حينما يضربها البرق، ويرجف فيها الرعد بقوة، أليس كذلك؟ حتى أنا خفتُ من تخيّل هذه الصورة!

تنهدت أولينكا قائلة:

- صحيح أنه عجوز بعض الشيء، لكنه يحبني. لا شك في حبه لي.

- الأمر لا يتعلق بحب لا شك فيه، بل بالسعادة.

- سوف أكون سعيدة معه. حمدًا لله حالته جيدة، ليس فقيرًا وليس

أميرًا. لست واقعة في غرامه بالطبع، ولكن أليس بإمكان أحد أن

ينعم بالسعادة إلا إن تزوج عن حب؟ أعرف جيدًا حقيقة تلك

الزيجات التي تتم عن حب!

سألتها، ناظرًا إلى عينيها المشرقتين بهلع:

- يا طفلي... متى استطعتِ حشو عقلك بهذه الحكمة الدنيوية

المريعة؟! دعنا نفترض أنك تمزحين معي، ولكن أين تعلمتِ

هذا المزاح الفج الذي نجده عند العجائز؟ أين؟ متى؟

نظرت أولينكا إليّ بتعجب، وهزت كتفيها قائلة:

- لا أفهم ما تقول. هل ما يسوءك هو أن فتاة شابة ستتزوج من رجل

عجوز؟ هل الأمر كذلك؟

تنهدت أولينكا فجأة، وحكّت ذقنها بعصبية، وتحدثت سريعًا دون

أن تنتظر إجابتي:

- هل لا يروق لك ذلك؟ سرِ إذنْ في الغابة... سرِ وسط هذا الممل
حيث لا تجد سوى الصقور وأب مجنون. انتظر هناك حتى يأتيك
عريس شاب! لقد سُررتَ بقضاء المساء هناك، ولكن لتنظر المكان
هناك شتاءً حينما لا يرغب المرء إلا في أمر واحد؛ أن يأتي الموت.
- آه، كل هذه محض حماقات يا أولينكا... هذه سذاجة وحماقة!
إن لم يكن ذلك مزاحاً ف.... لا أعرف حتى ماذا أقول! الأفضل
أن تصمتي ولا تسيئي للهواء بما ينطقه لسانك! لو كنتُ في
مكانك لشنقتُ نفسي على سبعة أشجار حور. أما أنتِ فتشتري
كتاناً وتضحكين!

تمتّت:

- على الأقل سيتولى علاج أبي.

صحتُ:

- كم تحتاجين لعلاج أبيك؟ خذي ما تحتاجينه مني. مائة؟ مائتين؟
ألفاً؟ إنكِ تكذبين يا أولينكا. الأمر لا يتعلق بعلاج أبيك.

انزعجتُ بشدة من الأخبار التي جلبتها لي أولينكا، فلم ألحظ كيف
عبرتُ العربة بالقرب من قريتي، وكيف انعطفتُ إلى ساحة الكونت،
وتوقفتُ عند بوابات مدير أعمال الكونت. عندما رأيت الأطفال
يركضون، ووجه أوربينين المبتسم الذي هرع لمساعدة أولينكا على
النزول من العربة، قفزتُ من العربة وركضتُ صوب منزل الكونت،
ووجدت هناك خبراً جديداً في انتظاري.

- في الوقت المناسب! في الوقت المناسب!

هكذا التقاني الكونت، خادشًا وجتّيّ بشاربيه الطويلين الواخدين،
وأكمل:

إنه أنسب وقت. لقد جلسنا لتونا لتناول الإفطار. تعرفهما بالطبع.
من المؤكد أنك تصادمت معهما من قبل في قسمك القضائي.. هههه!
أشار إليّ الكونت بكلتا يديه إلى رجلين جالسين على مقعدين
ناعمين، يتناولان لسانًا باردًا^(٥٠). واحد منهم كان للأسف قاضي
الصلح كالينين، والآخر كان صديقي العجوز ضئيل الحجم، الأسيب،
ذا صلعة على شكل قمر: بابايف، وهو مالك ثري، يشغل منصب عضو
دائم بمجلس مقاطعتنا.

نظرتُ بدهشة إلى كالينين، مُنحنيًا باحترام... كنت أعرف مدى
كرهه للكونت، والإشاعات التي أطلقها عنه في المقاطعة، بينما هو
يأكل في منزله الآن لسانًا بالبقعة^(٥١) بشهية، ويشرب خمراً معتقة منذ
عشر سنوات. كيف يمكن لرجل نبيل أن يُفسّر هذه الزيارة؟ التقط
القاضي نظرتي، وربما فهمها. قال لي:

لقد خصّصت اليوم للزيارات. أُمّر على المقاطعة كلها، وكما ترى
عرجتُ على سعادته.

جلستُ وشربتُ كأس فودكا وبدأتُ أتناول غدائي. واصل كالينين
حديثه الذي قطعه وصولي:

(٥٠) في بعض الأماكن يطهون ألسنة بعض الحيوانات.

(٥١) نوع من أنواع النباتات.

- ليس حسنًا سعادتكم... ليس حسنًا. ليست خطية بالنسبة لنا نحن
صغار الشأن، أما بالنسبة لنيل ثري لامع مثلك، فلا بد أن إهمال
الواجبات هو خطية.

وافقه بابايف:

- هذا صحيح... إنها خطية.

سألت:

- علام يدور الحديث؟

أشار الكونت برأسه إلى القاضي قائلاً:

- لقد عرض نيكولاي إجناتيتش عليّ فكرة جيدة. أتااني وجلس
لتناول الإفطار، فشكوت له من الملل.

قاطع كالينين الكونت قائلاً:

- وشكا إليّ أنا أيضًا من الملل. سعادته يشعر بالملل والحزن من
هذا وذاك... باختصار: سعادته خائب الأمل. يشبه أونيجين^(٥٢)
بعض الشيء. قلت لسعادته إنه هو المذنب. سألني كيف؟ قلت:
الأمر بسيط... إن أردت ألا تشعر بالملل، عليك بالعمل... تول
شؤون ضيعتك. إنها ضيعة ممتازة وبديعة. قال سعادته إنه ينوي
فعلًا تولي شؤون ضيعته، لكن الأمر في كل الأحوال ممل. تفتقر
أعمال الضيعة - إن جاز التعبير - إلى عنصر المرح والإثارة. لا
توجد بها... كيف أعبر عن الأمر؟ لا توجد بها انفعالات قوية.

(٥٢) يقصد بفجيني أونيجين بطل رواية بوشكين الشهيرة.

- وما الفكرة التي اقترحتها عليه؟

- في الواقع لم أعرض على سعادته أي فكرة، لكنني جرؤت على لومه. قلتُ: كيف تقول ذلك سعادتكُم؟ إنك شاب مثقف لاعم؛ فكيف تعيش منعزلاً هكذا؟ ألم أقل إنها خطية؟ إنك لا تزور أو تستقبل أحداً، ولا تظهر في أي مكان، كأنك عجوز أو ناسك. ماذا ستخسر إن رتبت اجتماعاً أسبوعياً هنا؟
سألته:

- وما الهدف من هذه الاجتماعات؟

- ماذا تقصد بما الهدف منها؟ أولاً: ستيح له هذه الاجتماعات أن يتعرف على المجتمع المحيط بسعادته، ويدرسه إن جاز التعبير. ثانياً: سيكون للمجتمع شرف الاقتراب والتعرف على واحد من أثرى الملاك لدينا. سيتم تبادل الأفكار والأحاديث وسيعم المرح الجميع. إن فكرنا في الأمر جيداً فكم سنجد بيننا من سادة وسيدات مثقفين! كم يمكننا أن ننظم حفلات موسيقية ورقصات ونزهات! حاول سعادتكُم أن تتخيل الأمر: قاعات عملاقة وسرادق بالحديقة، بالإضافة إلى عروض الهواة المسرحية، والحفلات الموسيقية التي يمكن تنظيمها والتي لم يحلم بها أحد في المقاطعة كلها... نعم بحق الله! هل تتخيل سعادتكُم؟! كل هذا يضيع عبثاً الآن، ويُدفن في التراب... كل ما يلزمنا هو الفهم! لو نَعَمْتُ بهذه الإمكانيات التي يتمتع بها سعادتكُم لأريتك كيف يليق العيش! تقول: أشعر بالملل! أقول

لك بحق الله إن ما تقوله مضحك، بل ومخزٍ.
أغمض كالينين عينيه، رغبة في التظاهر بأنه يشعر حقًا بالخزي.

قال الكونت، ناهضًا من جلسته، واضعًا يديه في جيبه:

- هذا صحيح تمامًا. يمكن أن أقيم حفلات رائعة هنا: حفلات موسيقية وعروض هواة مسرحية. يمكن تدبير كل ذلك على نحو رائع. لن تقتصر هذه الحفلات على بعث السرور في المجتمع، بل سيكون لها كذلك دور تثقيفي، أليس كذلك؟

وافقته قائلاً:

- نعم، فإن رأيت سيداتنا شكل شاربك، ستتخللهن روح الحضارة على الفور.

استاء الكونت قائلاً:

- أنت تمزح طوال الوقت يا سيريوجا، ولا تقدم إليّ أبدًا نصيحة أخوية! كل شيء بالنسبة لك مادة للسخرية. حان الوقت يا صديقي لتُقلع عن تلك العادات الصبيانية.

ظل الكونت يذرع المكان ذهابًا وإيابًا، وبدأ يوضح لي عبر جمل طويلة مملة الفائدة التي يمكن أن تجلبها مثل هذه الأمسيات للإنسانية. موسيقى، أدب، مسرح، جياد، وصيد... الصيد وحده يمكنه أن يوحد أفضل القوى بالمقاطعة.

قال الكونت لكالينين، أثناء وداعه له بعد الإفطار:

- سوف نتحدث لاحقًا عن ذلك.

- ستسمح سعادتك للمقاطعة إذن أن تعلق آمالها عليك؟
- بالطبع بالطبع... سوف أطور هذه الفكرة. سأحاول ذلك. أنا سعيد... سعيد جدًا. يمكنك أن تخبر الجميع.
يجدر بالمرء رؤية تلك السعادة التي ارتسمت على وجه القاضي عندما جلس داخل عربته وقال: «تحرك!»، لقد ابتهج إلى حد أنه نسي عدواتنا، وناداني عند الوداع بـ «عزيزي»، وشدّ على يدي بقوة.
بمخرج الزوار، جلستُ بصحبة الكونت إلى الطاولة وواصلنا تناول الإفطار حتى السابعة مساءً حتى رفعوا الأطباق عن المائدة وقدموا لنا الغداء. يعرف السكارى الشباب كيف يختصرون الفواصل الزمنية بين الوجبات. كنا نأكل ونشرب طوال الوقت بكميات بسيطة مما يُقدّم لنا، لنحافظ على شهيتنا التي كانت ستخزلنا إن توقفنا تمامًا عن تناول الطعام. سألتُ الكونت، بعد أن تذكرت رزم الأموال التي رأيتها صباحًا في مكتب بريد تينيفو:

- هل أرسلتَ مالا إلى أحدٍ؟

- لا.

- قُل لي إذن، هل هذا المدعو... نسيت اسمه... صديقك الجديد، آه... كازيمير كائيتانيتش أو كائيتان كازيميروفيتش، ثري؟

- لا يا سيريوجا... إنه فقير! ولكن كم قلبه وروحه رائعان! ليس هناك مبرر لأن تتحدث عنه بذلك الازدراء، وتهاجمه. عليك يا

أخي أن تتعلم التمييز بين نوعيات الناس المختلفة. هل تريد أن
تشرب كأسًا آخر؟

أثناء الغداء عاد بشيخوتسكي. عندما رآني جالسًا إلى الطاولة،
منخرطًا في الشرب، عبس، وبعد أن دار حول طاولتنا لبرهة، وجد أنه
من الأفضل أن ينسحب إلى غرفته. رفض تناول الغداء متذرعًا بصداق،
ولكن عندما نصحه الكونت بتناول الغداء في غرفته، على فراشه، لم يُبدِ
أي اعتراض.

أثناء تناولنا للطبق الثاني^(٥٣) دخل أوربينين. لم أعرفه. كان وجهه
الأحمر العريض يشع بالسرور. بدا أن ابتسامته رضى مرتسمة على كيانه
كله، حتى على أطراف أذنيه، وأصابعه اللحيمة التي كان يوجهها بين
الحين والآخر إلى رابطة عنقه الجديدة الأنيقة.
قدم تقريره قائلاً:

- مرضتُ أبقارنا سعادتكم. طلبتُ طبيينا البيطري، ولكن يبدو أنه
رحل. ألا يجدر بنا سعادتكم أن نرسل في طلب طبيب المدينة
البيطري؟ لو أرسلتُ في طلبه لن يستمع إليّ، ولن يأتي، ولكن
إن كتب سعادتكم إليه، سيختلف الأمر. قد تكون إصابة الأبقار
بسيطة، وقد لا تكون كذلك.

تمتم الكونت:

- حسنًا... سأكتب له.

(٥٣) يُقدم الطعام على عدة أطباق، تبدأ بالمشهيات.

قلتُ له وقد نهضتُ من مكاني ومددتُ يدي إليه:

- أهنتك يا بيتر يجوريتش.

تمتم:

- ما المناسبة؟

- بمناسبة أنك ستتزوج.

قال الكونت غامزًا بعينه لأوربينين الذي احمر وجهه:

- نعم، نعم... هل تتصور أنه سيتزوج؟ بمن؟ هههه... يكمن

ويكمن ثم يفاجئك! وهل تعرف بمن سيتزوج؟ لقد خمنّا الأمر

في ذلك المساء. قلنا حينها إن ثمة أمرًا ما خاطئًا يعتلج في قلبك

يا بيتر يجوريتش الشرير. عندما نظرنا إليك وإلى أولينكا قلنا:

«هذا الرجل واقع في الحب!» هههه... اجلس لتتغدى معنا يا

بيتر يجوريتش.

جلس أوربينين بحذر واحترام، وأشار بعينه لإيليا وطلب أن يجلب

له حساء. صببتُ لك كأس فودكا؛ فقال:

- أنا لا أشرب.

- هراء... إنك تشرب أكثر منا.

ابتسم مدير الأعمال قائلاً:

- كنت أشرب، لكني الآن لا أشرب. يستحيل أن أشرب الآن...

ليس هناك داع. حمدًا لله انقضى كل شيء بخير، وتم كل شيء

كما أراد قلبي بالضبط، بل وبصورة أفضل مما توقعْتُ.

قلتُ له بينما أُصب له شِري (خمر إسبانية):

- لكن يمكنك أن تشرب نخب أفراحك.

- لا بأس بذلك. كنت أشرب كثيرًا فعلًا. يمكن الآن أن أعترف أمام سعادته. كنت أشرب من مطلع الصباح وحتى نهاية الليل. ما إن أستيظ صباحًا حتى أفكر في الخمر، وكنت أذهب فورًا إلى خزانة الشراب. أما الآن، حمدًا لله لم يعد هناك ما يدفعني لأن أغرق نفسي بالفودكا.

شرب أوريينين كأس الشِّري. صببت له كأسًا أخرى. شرب وشمّل بعض الشيء دون أن يدري. قال وقد ارتسمت فجأةً على وجهه ضحكة طفولية سعيدة:

- أنا نفسي لا أصدق الأمر إلا بصعوبة. أنظر إلى هذا الخاتم وأتذكر كلماتها التي عبّرتُ بها عن موافقتها على الزواج مني، ولا أصدق... بل إن الأمر يبدو مضحكًا، فكيف أمكنني أن أمل في مثل هذا السن وبهذا المظهر ألا تزدرى هذه الفتاة الكريمة أن تصبح لي... أن تصبح والدّة أطفالٍ الذين سأتركهم يتامى من بعدي؟ إنها فاتنة كما يمكنكم أن تروا، ملاك متجسد! معجزة حقيقية! هل ملأت كأسٍ مجددًا؟ حسنًا... إنها المرة الأخيرة... كنت أشرب من الحزن، والآن أشرب من الفرح. كم تعذبتُ يا سادة! كم تحملتُ أحزانًا! رأيتها منذ عام مضى، وهل تصدقون؟ منذ تلك اللحظة لم أستطع النوم بهدوء ليلة واحدة، ولم يمر عليّ نهار واحد دون أن أغرق نفسي في هذا الضعف

الغبي؛ شرب الفودكا، ودون أن أسب نفسي على غبائي. أنظر إليها أحياناً من النافذة وأزداد ولهاً بها. تتساقط خصلات شعرها على جبهتها. في مثل هذه اللحظات أود لو أشنق نفسي. لكن حمداً لله أنني خاطرتُ وعرضتُ عليها الزواج. أتعرفون... لقد فاجأني! هاهاها. سمعت استجابتها ولم أكن أصدق أذني. قالت: «موافقة!»، وبدا لي أنها ستقول: «اذهب إلى الجحيم أيها العجوز الخرف»... بعدها قبلتني، وحينها صدقتُ أذني...

أغلق أوريينين البالغ من العمر خمسين عاماً عينيه أثناء تذكره لأول قبلة من أولينكا ذات الحضور الشعاعي، وتورد وجهه كصبي صغير. بدا لي ذلك منفراً.

قال، ناظرًا إلينا نظرة طيبة سعيدة:

- لماذا لا تتزوجان؟ لماذا تُضيعان حياتكما عبثاً، وتلقيان بها من النافذة؟ لماذا تتنحيان عن أفضل نعمة لكل من يحيا على هذه الأرض؟ إن الملذات التي يمنحها الفجور لا تُقدّم لصاحبها ولو واحد على مائة من لذة الحياة الأسرية الهادئة. أنتما لا تزالان شابين: سعادته وأنت يا سيرجيه بيتروفيتش. أنا سعيد الآن، ويعلم الله كم أحبكما. سامحاني على نصائحي الغبية، لكنني لا أريد لكم سوى السعادة. لماذا لا تتزوجان؟ الحياة الأسرية نعمة... إنها واجب على كل إنسان.

لم أعد أحتمل منظر هذا العجوز السعيد اللطيف الذي يوشك على الزواج من شابة، وينصحنا باستبدال حياة أسرية هادئة بحياتنا المنحلة. قلتُ:

- نعم، الحياة الأسرية واجبة على المرء. أوافقك. لذلك تؤدي واجبك للمرة الثانية، أليس كذلك؟

- نعم، للمرة الثانية. بشكل عام، أحب الحياة الأسرية. حياتي كأعذب أو أرمّل تعتبر بالنسبة لي نصف حياة. مهما قلتم أيها السادة، لن يُغيّر ذلك من حقيقة أن الزواج أمر عظيم.

- بالطبع أمر عظيم، ولكن حتى وإن كان عمر العريس ثلاثة أضعاف العروس؟

احمر وجه أوريينين. ارتعشت يده القريبة بالحساء إلى فمه، وسقط الحساء في الطبق. تمتم قائلاً:

- أفهم ما تريد قوله يا سيرجي بتروفيتش. أشكرك على صراحتك. أنا نفسي أتساءل: أليست فعلة وضيعة؟ أنا أتعذب. ولكن أين يجد المرء فرصة ليسأل نفسه مثل هذه الأسئلة ويحسم مسائل مختلفة، عندما يشعر في كل دقيقة أنه سعيد، وينسى شيخوخته وقبحه. إنه الإنسان (باللاتينية في الأصل) يا سيرجي بتروفيتش! وعندما يراود رأسي للحظة تسأول عن عدم توافق الأعمار، لا أعذب نفسي بالبحث عن إجابة، بل أهدئ نفسي بقدر المستطاع. يبدو لي أنني منحت أولجا السعادة؛ منحناها أباً، وأعطيْتُ لأطفالي أمّاً. يبدو كل ذلك كأنه رواية... رأسي تدور. لم يكن عليك أن تصب لي شري.

نهض أوريينين، وجفّف وجهه بالمنشفة، ثم جلس مجدداً. في غضون دقيقة كان قد شرب كأساً في جرعة واحدة، ونظر إليّ نظرة

متوسلة طويلة، كأنه يستجديني، ثم ارتعش كتفاه فجأة وانفجر في البكاء. تمتم محاولاً مغالبة بكائه:

- الأمر غير مهم... غير مهم. لا تقلق. شعرت بنذير سوء في قلبي بعد أن استمعت إلى كلماتك، ولكن الأمر غير مهم.

تحقق نذير السوء الذي شعر به أوربينين سريعاً إلى درجة أنني غير قادر على بدء صفحة جديدة. بداية من الفصل التالي سوف يتغير التعبير الهادئ المرتسم على وجه عروس شعري، وسيستبدله تعبير غضب وأسى. انتهت الافتتاحية وستبدأ المسرحية الآن.

الآن تدخل إرادة الإنسان المجرمة إلى أرض المسرح من تلقاء نفسها.

أتذكر صباح يوم أحد جميلاً. كان بالإمكان رؤية السماء الزرقاء من نوافذ كنيسة الكونت، واخترق شعاع داكن الكنيسة بأكملها، من قبتها وحتى أرضيتها، تلاعبت فيه بمرح سحب من دخان البخور. تناهت عبر النوافذ والأبواب المفتوحة أناشيد طيور السنونو والزرابير... طار عصفور، ويبدو أنه شديد الجراءة، ودخل عبر الباب وحلّق أكثر من مرة حول رؤوسنا، مزقزقاً بمرح، وتداخل عدة مرات مع الشعاع الداكن، ثم طار من النافذة. تصاعد نشيد من الكنيسة نفسها أيضاً. كانوا ينشدون جيداً، بتلك الطريقة التي يغني بها منشدون الروس الصغار حينما يشعرون أنهم أبطال اللحظة، وعندما يرون أن الأعين مصوبة إليهم. نغمات مرحة مفعمة بالحياة كبقع الشمس المتلألئة على الحوائط والشماعات. التقطت أذني نغمة ثقيلة محزنة وسط أصوات التينور غير

المتناسقة، لكن الرقيقة والحيوية، بالرغم من النعمة الفرحة للنشيد، كما لو أنها نعمة أسف على أن عجوزًا ثقیلاً قارب على نهاية حياته، يشبه دبًا، ويُدعى أوريبنين، يقف بجانب أولينكا الجميلة الشاعرية. نعم، ولم يكن صاحب ذلك الصوت التينور وحده من ينظر بأسف إلى هذين الزوجين غير المتكافئين، بل ارتسم ذلك التعبير على وجوه الكثيرين ممن كانوا على مرمى بصري، بالرغم من كافة الجهود التي بذلوها لبيدوا مسرورين خالين من الهم، وحتى الأحمق كان بإمكانه ملاحظة الأسف على وجوههم.

أقف بسترتي الجديدة خلف أولينكا أسند الإكليل فوق رأسها. أنا شاحب، ولستُ في تمام الصحة. رأسي تكاد تنفلق من سُكر الأمس والنزهة على البحيرة. أنظر مرارًا وتكرارًا إلى يدي التي تسند الإكليل لأرى ما إن كانت هناك رعشة أم لا. أشعر في قرارة روحي بالبوَس والخوف كما لو أنني في الغابة في ليلة خريفية ممطرة. أشعر بالكآبة والنفور والأسف... أشعر كما لو أن قططًا قد خدشت في قلبي خدوشًا تبدو لي كوخزات ضمير... في أعماق أعماق روحي ثمة شبح يهمس لي بعناد وإلحاح قائلاً أنه إن كان زواج أولينكا بأوريبنين الخرق خطية، فإني أنا المذنب في ذلك. من أين يمكن أن تراودني مثل هذه الأفكار؟ ألم أحاول إنقاذ هذه الحمقاء الفتية من خطر لا تدركه وخطأ لا شك فيه؟

همس العفريت بداخلي: «وَمَن يعلم! أنت تعرف ذلك أكثر من أي شخص آخر».

لقد رأيت في حياتي حالات زواج كثيرة غير متكافئة، ووقفت أكثر من مرة أمام لوحة بوكيريف^(٥٤) وقرأت روايات كثيرة مبنية على التنافر بين الأزواج والزوجات، وأخيرًا عرفت علم وظائف الأعضاء الذي يعاقب هذه الزيجات غير المتكافئة بشكل قاطع، لكنني لم أختبر أبدًا في حياتي هذا النفور النفسي الذي لا يمكن لأي قوة أن تزيله مني الآن، وأنا واقف خلف أولينكا أنفذ واجبي كإشبين^(٥٥). إن كان شعور الندم هو وحده ما يشير الاضطراب في روحي، فلماذا لم أختبره من قبل حينما حضرت بعض هذه الزيجات سابقًا؟

يهمس العفريت بداخلي: «هذا ليس ندمًا، بل غيرة». لكن لا يمكن لأحد أن يشعر بالغيرة إلا الذي يحب، فهل أحببت الفتاة ذات الرداء الأحمر حقًا؟ إن أحببت كل الفتيات اللاتي ألتقي بهن تحت ضوء القمر، لن يسعهن قلبي، كما أن الأمر سيكون سلوكًا أحمق.

يقف صديقي الكونت في المؤخرة، عند أبواب الكنيسة، خلف حارس الكنيسة، يبيع الشموع^(٥٦). يبدو أنيقًا، بشعر ناعم بأثر الزيت، تفوح منه رائحة عطور خانقة. يبدو اليوم لطيفًا جدًّا، حتى إنني لم أستطع عند تحيته في الصباح إلا أن أقول له:

- تبدو اليوم يا ألكسي كراقص كدريل مثالي^(٥٧)!

(٥٤) فاسيلي بوكيريف: رسام روسي شهير، واللوحة المقصودة هي لوحة «زواج غير متكافئ» تصور شابة واجمة تتزوج من عجوز.

(٥٥) يختار العريس إشبينًا (مرافقًا) وكذلك تختار العروس.

(٥٦) يبدو أنه تقليد كان متبعًا في حفلات الزفاف قديمًا بروسيا.

(٥٧) رقصة كانت شائعة في أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا ومستعمراتها.

يرافق كل مَنْ يدخل أو يخرج من المكان بابتسامة مسرقة، وأسمعُ مجاملاته الخرقاء التي يطري بها كل سيدة تشتري منه شمعة. هذا الكونت، الذي دلّته الأقدار، والذي لم يحمل أبدًا نقودًا نحاسية^(٥٨)، ولا يعرف حتى كيف يتعامل بها، كان يلقي على الأرض بين الحين والآخر عملة خمسة روبلات، أو ثلاثة روبلات. بالقرب منه، يقف كالينين مستندًا إلى الدولاب الصغير بأبهة، وشعار مدينة ستانيسلاف على وشاح ملتف حول عنقه. تبدو سيمائوه مشرقة ولا معة. إنه سعيد لأن فكرته عن إقامة حفلات بمنزل الكونت قد وجدت تربة طيبة، وبدأت تثمر. في أعماق روحه كان يغمر أوريينين بالشكر ألف مرة. صحيح أن حفل زفافه كان سخيًّا، لكنه كان فرصة لتدبر أمر الحفلة الأولى.

لا بد أن أولينكا المختالة كانت سعيدة. امتد صفان من أفضل سيدات بستان مقاطعتنا، من منصة الزواج وحتى أبواب الهيكل المقدس. كان المدعوون متأنقين، كما لو أنهم في حفل زفاف الكونت نفسه. لم يكن للمرء أن يأمل في ثياب أكثر أناقة من ذلك. الحضور هنا بأكمله من الأرستقراطيين؛ لا توجد زوجة كاهن أو تاجر واحدة، بل إن الحضور شمل أولئك من اعتبرت أولينكا نفسها غير جديرة حتى بالانحناء بالتحية لهن. عريس أولينكا مدير أعمال وخادم ذو امتيازات، ولكن لم يكن لكبريائها أن تعاني بسبب ذلك. إنه نبيل، ولديه ضيعة في المقاطعة المجاورة. كان أبوه رئيس مقاطعة، وظل هو نفسه على مدار تسعة أعوام قاضي صلح بمقاطعته. ماذا يمكن أن يتطلب كبرياء

(٥٨) يقصد أنه لم يتعامل أبدًا بنقود ذات قيمة منخفضة، (فكّة) كما في العامية المصرية.

ابنة حارس غابة أكثر من ذلك؟ حتى إشبينها يُعتبر باحث عن المتعة شهير في المقاطعة كلها؛ دونجواناً بإمكانه دغدغة كبرياتها. صَوَّب المدعوون كلهم نظرهم إليه. له تأثير أربعين ألف إشبين اجتمعوا معاً. الأهم من كل ذلك أنه لم يرفض أن يكون إشبيناً لها، في الوقت الذي كان الجميع يعرفون فيه أن كان يرفض أن يكون إشبيناً لأحد، حتى إن كان من الطبقة الأرستقراطية.

لكن كبرياء أولينكا لم يتهج. كانت شاحبة، كالكتان الذي جلبته مؤخراً من سوق تينيفو. كانت يدها الحاملة للشمعة ترتعش قليلاً، وذقنها يرتجف بعض الشيء. لاحت بعض البلادة في عينيها، كأن شيئاً أذهلها أو أخافها فجأة. لا... لم يلح في عينيها أي سرور كذلك الذي لاح في عينيها بالأمس حين رأيتها تركض في الحديقة وتحكي لي عن ورق الجدران الذي سيُعلّق في غرفة معيشتها، وعن الأيام التي سوف تدعو فيها ضيوفها وما إلى ذلك. وجهها الآن يبدو مفرطاً في جديته، أكثر مما تتطلبه مناسبة احتفالية.

ارتدى أوربينين بدلة جديدة. بدا أنيقاً، لكن شعره كان مصففاً بطريقة يصفف بها صبي أرثوذكسي في الثانية عشرة شعره. كان كعاداته متوردة الوجه وجاداً. عيناه تبتهلان، ولم يكن يُصلّب بتلقائية بعد كل صلاة قائلة: «يا رب ارحم!».

وقف خلفي أبناء أوربينين من زواجه الأول: جريشا الطالب بالجيمنازيا، وساشا الفتاة الشقراء. نظر كلاهما إلى مؤخرة رأس أبيهم الجميلة وأذنيه البارزتين، وارتسمت على وجهيهما علامات تعجب. لم يستطيعا فهم

سبب استسلام العمة أوليا لأبيهم، أو لماذا سيأخذها إلى منزله. كانت ساشا ذو الأربعة عشر عامًا مذهولة وحسب، أما جريشا فبدأ متجهماً كئيلاً. من المؤكد أنه كان سيجيب بالرفض إن طلب أبوه موافقته على الزواج.

أدوا صلاة الإكليل بإجلال واضح. أدى الصلاة ثلاثة كهنة وشماسان^(٥٩). ظلوا يصلون طويلاً... طويلاً جداً حتى أنهكت يدي من حمل الإكليل، وتوقفت السيدات اللاتي يحبين حضور صلوات الزفاف بشكل عام من النظر إلى العروسين. تلا الكاهن الصلوات بالترتيب، دون أن يُفوّت صلاة واحدة، وأنشد المرتلون لحناً طويلاً، وقد استغل القارئ هذه الفرصة للتباهي بإمكانات صوته، وقرأ مقطعاً من الرسائل^(٦٠) بنفس طويل... ولكن في النهاية أخذ الكاهن الإكليل من يدي، وتبادل العروسان القبلات. انفعل الحضور، وانكسرت حدة الطقس، وعلت أصوات التهنئات والقبلات والهمهمات. وقف أورينين مبتسماً، يسند ذراع عروسه، وخرجنا إلى الهواء الطلق.

إن وجد أحد الذين كانوا حاضرين معي بالكنيسة أن وصفي غير مكتمل وليس دقيقاً، فأرجو أن يلتمس لي العذر بسبب الصداق والحالة النفسية التي اكتنفني وقتها، وحالت دون أن ألاحظ وأنتبه إلى الأمر بدقة. لو كنت قد عرفتُ وقتها بالطبع أنه يتوجب عليّ أن أكتب رواية، لما خففت نظري إلى الأرض، كما حدث في هذا الصباح الموصوف، ولما وجّهت انتباهي إلى الصداق!

(٥٩) الشماس هو مساعد الكاهن.

(٦٠) رسائل بولس أو أحد الرسل الآخرين بالعهد الجديد

يسمح القدر لنفسه أحياناً بسخرية حادة ولاذعة! لم يكد العروسان أن يخرجوا من الكنيسة، حتى وجدا مفاجأة غير سارة. عندما تحرك موكب العرس، الذي لاح في ضوء الشمس، مبرقشاً بمئات الزهور والألوان، من الكنيسة إلى منزل الكونت، تراجعت أولينكا فجأة خطوة إلى الخلف، وتوقفت، وشدت مرفق زوجها بقوة، إلى حد أنه تعثر قليلاً. قالت على الملأ، ناظرة صوبي بهلع:

- لقد أطلقوه!

يا لها من مسكينة! رأت أباهما سكفورتسوف حارس الغابة المجنون يركض بالمر صوب موكب العروسين. لفت الأنظار بصورة كافية، ملوحاً بذراعيه، متعثراً، مطلقاً نظرات مجنونة. ربما كان من الممكن أن يظل كل هذا لائقاً، لولا أنه خرج بردائه المنزلي القطني وخفيه، وقد لاح اهتراء الرداء والخفين واضحاً أمام ترف ثياب العروس، التي هي ابنته. كان وجهه ناعساً، وشعره غير مرتب بفعل الريح، وثياب نومه محلولة. تمت حين وصل إليهما:

- أولينكا! لماذا غادرت؟

احمر وجه أولينكا، ونظرت بارتياح إلى السيدات الضاحكات. كادت المسكينة أن تموت خجلاً. واصل حارس الغابة حديثه متوجهاً إلينا:

- لم يغلق ميتكا الباب. هل يصعب على اللصوص أن يتسلقوا السياج؟ لقد سرقوا السماور من المطبخ في العام الماضي، والآن تريدنا أن نُسرق مجدداً!

همس لي أوريينين:

- لا أعرف مَنْ تركه يغادر! لقد أغلقتُ عليه بنفسي. عزيزي
سيرجيه بتروفيتش، أرجوك أخرجنا بأي شكل من هذا الموقف
الأخرق! بأي طريقة!

توجهتُ إلى حارس الغابة قائلاً:

- أنا أعرف من سرق السماور. تعال وسأريك إياه.

وأحطت بسكفورتسوف من خصره، واصطحبته إلى الكنيسة...
تحدثتُ معه أثناء اقتيادي له صوب السياج، وحينما تصورتُ طبقاً
لحساباتي أن موكب العروسين قد دخل إلى منزل الكونت فعلاً، تركته،
دون أن أشير له إلى مكان سارق السماور.

مهما كان لقاء المجنون مفاجئاً واستثنائياً، إلا أنه نسي سريعاً رغم
ذلك. أما المفاجأة الجديدة التي جلبها القَدَر للعروسين فكانت أغرب.
في غضون ساعة كنا قد جلسنا جميعاً إلى الطاولات الطويلة،
وبدأنا غداءنا.

كل مَنْ اعتاد أنسجة العنكبوت والعفن، وصيحات الغجر بغرف
وردهات الكونت، كان سيجد أنه من الغريب أن ينظر إلى الحشد النمطي
الممل، الذي خرق بثرثرته العادية صمت الغرف المتداعية المهجورة.
بدا هذا الحشد المتنوع الضاج أشبه بسرب من طيور الزرزور قد هبط
إلى مقبرة مهجورة ليلتقط أنفاسه، أو -وليعذرني هنا الطائر العظيم على

هذا التشبيه- سرب من طيور القلق قد هبط على أنقاض قلعة مهجورة في شفق أحد الأيام الموسمية.

جلستُ، وشعرتُ بالكره صوب هذا الحشد، وفضوله المتمعن تجاه ثروة آل كارنييف المتعفنة. أثارت الحوائط الفسيفسائية والأسقف المنحوتة، والسجاجيد الفارسية المترفة، وكذلك الأثاث الموجود على طراز ركوكو^(٦١) البهجة والذهول. لم يتوقف وجه الكونت المُنْهَك عن رسم ابتسامة تفيض بالرضى أو يسترح. قَبْلَ الإطراء الحماسي لضيوفه، كشيء مستحق، رغم أنه في الواقع لم يكن له يد في هذه الثروة أو هذا الترف على الإطلاق، بل على العكس؛ استحق التوبيخات ومشاعر الازدراء على أسلوبه وحماقته الهمجية ولا مبالاته بالنعم التي جمعها آباؤه وأجداده، لا على مدار بضعة أيام وحسب، بل على مدار عشرات الأعوام. وحدهم العميان والفقراء روحياً، لا يستطيعون أن يروا دموع وآلام الناس الذين توارى أبنائهم الآن في أكواخ ضيعة الكونت، على سطح كل لوح رخام رمادي، كل لوحة، وكل ركن مظلم في حديقة الكونت. من وسط هذا العدد الكبير من الناس الجالسين إلى طاولات حفل الزفاف؛ أولئك الأثرياء والمكتفون بما لديهم، والذين لا يمكن لشيء أن يعوقهم عن قول أقسى الحقائق، لم يظهر واحد فقط يقول للكونت إن ابتسامته المشعة بالرضى عن النفس حمقاء وسفیهة. شعر كل منهم بضرورة

(٦١) كلمة معناها الصدفة أو المحارة غير المنتظمة الشكل ذات الخطوط المنحنية، والتي استمدت منها زخارف في تلك الفترة وبعد فن التزيين الداخلي. ظهر هذا الطراز من الفن في القرن الثامن عشر ويعد امتداداً للباروك، ولكن بمقاييس جمالية تتسم بالسلاسة والرقّة.

أن يتسم ابتسامة مدهانة ويحرق بخورًا رخيصة كرمًا له! إن كان هذا مجرد قدر من الكياسة -والناس لدينا يحبون أن يُرجعوا كل شيء إلى الكياسة واللياقة- فإني أفضل إذن الهمج الذين يأكلون بأيادهم، ويأخذون العيش من أطباق غيرهم ويمسحون أنوفهم بأصابعهم على هؤلاء المتغندرين.

ابتسم أوربينين، ولكن كانت لديه أسبابه لابتسم. لقد ابتسم ابتسامة إطراء واحترام؛ ابتسامة طفولية سعيدة. عادت ابتسامته الواسعة إلى سعادة مسعورة. لقد ربتوا على كلب مخلص محب ولاطفوه، وها هو يهز ذيله بمرح وإخلاص امتنانًا وعرفانًا.

بدا كريسلر الكبير برواية ألفونس دوديه^(٦٢)، مشعًا بالسرور، يفرك يديه، ناظرًا إلى زوجته الشابة، غير قادر من فيض المشاعر على منع نفسه من أن يسألها سؤالًا آخر:

- من كان يفكر أن هذه الشابة الفاتنة يمكنها أن تحب عجزًا مثلي؟
أيعقل أنها لم تجد شخصًا أصغر وألمع مني؟ لا يمكن لأحد أن يفهم قلوب النساء!

بل إنه جرؤ على التوجه إليّ قائلاً:

- ينظر المرء حوله ويتساءل أي زمن هذا؟ هههه! عجوز يجر مثل هذه الجنية رغم أنوف الشباب! أين كانت أعينكم. لا، لم يعد الشباب كما كانوا قديمًا.

(٦٢) ريسلر: إحدى الشخصيات الروائية للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه.

كان ينهض بين الحين والآخر، غير عالم إلى أين يذهب من فيض مشاعر العرفان المعتلجة في صدره، يصدّم كأسه بكأس الكونت، ويقول بصوت مرتعش من فرط الفرحه:

- إن مشاعري صوب سعادتكم معروفة. لقد فعلت من أجلي الكثير في هذا اليوم، حتى إن حبي يعد لا شيء أمام كل ذلك. ما الذي جعلني أستحق هذا الاهتمام من سعادتكم إلى حد أن تقبل مشاركتي في فرحتي؟ لا يشارك النبلاء سوى في حفلات زفاف أصحاب البنوك. يا له من ترف! يا له من حشد مميز! آه، ماذا أقول؟ صدقني سعادتكم عندما أقول إنني لن أنسى أبداً ما فعلته، ولن يتوارى عن ذاكرتي أبداً هذا اليوم الذي اعتبره أفضل وأسعد يوم في حياتي.

وهكذا... كان من الواضح أن أولينكا لم تكن مسرورة بزوجه المتأنق المبجل. كان من الواضح أنها مُثقلة بكثرة أحاديثه التي أضحكت الحاضرين، بل كان من الواضح أنها خجلت منها. على الرغم من أنها شربت كأساً من الشامبانيا، لكنها لم تكن سعيدة، بل ظلت شاحبة كما كانت في الكنيسة، وظلت نظرة الخوف ذاتها في عينيها... ظلت صامتة، وكانت تجيب بتكاسل على كافة الأسئلة. تبسم كرهاً لمزاح الكونت، ولم تمد يدها إلى الطعام المترف تقريباً. بقدر ما اعتبر أورينين الثمل نفسه أسعد إنسان على وجه البسيطة، كان وجهها الجميل يبدو تعيساً. ببساطة شعرتُ بالأسف من النظر إليها، وحاولتُ أن أصوّب نظري صوب طبقي حتى لا أرى هذا الوجه الصغير.

كيف كان يمكن تفسير حزنها؟ تُرى ماذا كان مصدر هذا الحزن الذي يسحقها؟ أم أن كبرياءها كانت في انتظار ما هو أعظم من ذلك؟ عندما رفعتُ عيني إليها أثناء تناول الطبق الثاني، صُعِقتُ أَلَمًا. عندما كانت الفتاة البائسة تجيب عن أي سؤال تافه للكونت، كانت تبذل جهدًا مضاعفًا لتبلع الطعام. كانت الدموع تتراكم في حلقتها. لم تبعد منديلها عن فمها، وكانت تنظر إلينا بخجل، كحيوان مذعور، لترى ما إن كنا قد لاحظنا أنها تود البكاء أم لا.

سأل الكونت:

- لماذا تبدين كئيبة اليوم هكذا؟ أوف! أنت المذنب يا بيدر يجوريتش! فلتبهج زوجتك رجاءً. أيها السادة، أنا أطلب بقبلة! هههه... لا أقصد قبلة لي أنا بالطبع، بل أطلبهما بتقبيل بعضهما قبلة عميقة!

ردد كالينين خلفه:

- قبلة عميقة!

نهض أورينين، وابتسامة تملأ وجهه المتورد، وغمز بعينه. أما أولينكا التي استحثتها صيحات الحاضرين، قامت بخفة، وأعطت لأورينين شفيتها الساكتتين الباهتتين. قبلها... تصلبت شفتها، كأنها خائفة من أن تضطر إلى التقبيل مجددًا، ونظرت إليّ... من المحتمل أن نظرتي كانت كريهة. ما إن التقطُ نظرتها حتى احمر وجهها فجأة، ورفعت منديلها، ومسحت به أنفها مرارًا، محاولة

إخفاء ارتباكها. خطر على ذهني أنها خجلة مني؛ خجلة من تلك القبله، ومن الزواج برمته.

قلتُ في نفسي، دون أن أنحي عيني عنها، محاولاً اكتشاف سبب اضطرابها: «ماذا عليّ أن أفعل لك؟».

لم تتحمل المسكينه نظرتي. الحق أن حمرة الخجل فارقت وجهها سريعاً، لكن الدموع فاضت من عينيها... دموع حقيقية لم أرها على وجهها من قبل. غطت وجهها بالمنديل، ونهضت، وخرجت راکضة من غرفة تناول الطعام. أسرعتُ موضّحاً خروجها:

- تعاني أولجا نيكولايفنا من صداع. لقد شكّت إليّ منه بالفعل صباح اليوم.

عقب الكونت قائلاً:

- توقف يا أخي! ليس للصداع دخل بالموضوع. لقد اضطربت من جراء القبله. أقول لكم أيها السادة إن العريس يستوجب لوماً قوياً، فهو لم يُعوّد عروسه بعد على القبلات. هاهاهاها.

انخرط الحضور في الضحك من حضور ذهن الكونت. لكن لم يكن عليهم فعل ذلك.

مرت خمس دقائق، ثم عشر، ولم تعد الشابة. خيم الصمت. حتى الكونت توقف عن ملاحظاته. غياب أولينكا أصبح ملحوظاً أكثر فأكثر، خاصة أنها غادرت فجأة دون أن تقول كلمة واحدة. بالإضافة إلى عدم احترام قواعد اللياقة، كان واضحاً أنها تركت الطاولة بعد أن

قَبَّلَهَا زوجها، وأنها غضبتُ من إجبارها على ذلك. كان من المستحيل أن يقتنع أحد بأنها تركت المكان بسبب ارتباكها. لو كان الأمر كذلك، لامتد ذلك لدقيقة أو دقيقتين وحسب، ولكن لم يكن ليتمد كل هذا الوقت اللا نهائي، الذي بدا كذلك للحضور في العشر دقائق الأولى. كم لاعتبت أفكار شريرة رؤوس السكارى من الرجال! وكم من نمائم أطلقتها السيدات اللاتي كن على أهب الاستعداد لها! تركتُ العروس الطاولة وغادرتُ المكان. يا له من مشهد مؤثر وتصويري في رواية قروية!

ظل أوربيني يتلفت بقلق صوب الجانبيين، وتمتم:

- هي الأعصاب، أو ربما حدث شيء بالحمام... مَنْ يمكنه أن يفهم النساء! سوف تأتي الآن. سوف تأتي حالاً.

ولكن عندما مرت عشر دقائق أخرى ولم تظهر، نظر إليَّ بهاتين العينين المتوسلتين البائستين، فأشفقتُ عليه. بدا كأن عينيه تقولان لي: «هل تمنع الذهاب للبحث عنها؟ ألا تساعدني يا عزيزي في الخروج من هذا الوضع المريع؟ أنت الأذكى هنا والأشجع والأحذق... ساعدني!».

استجبتُ لنداء عينيه البائستين وقررت مساعدته. أما كيف ساعدته، فهذا ما سيعرفه القارئ لاحقاً. كل ما سأقوله هو إن دب كريلوف^(٦٣) الذي عرض خدماته على الناسك، يفقد في نظري كل عظمتة الوحشية،

(٦٣) إيفان أندريفيتش كريلوف: كاتب قصص أسطورية روسي، بعض أبطالها حيوانات.

ويشحب ويتحول إلى نقاعيات^(٦٤) بسيطة، وهكذا أرى نفسي عندما أتذكرني في دور «الأحمق الكريم»... يتلخص التشابه بيني وبين الدب في أمر واحد؛ قدم كلانا يد العون بإخلاص، دون توقع العواقب السيئة التي ستنتج عن مساعدتنا تلك، لكن هناك فارق ضخم بيننا؛ الحجر الذي أصبت به جبهة أوريينين كان أثقل بأضعاف.

سألت الخادم الذي قَدَّم إليَّ طبقة سلطة:

- أين أولجا نيكولايفنا؟

أجابني:

- خرجتُ إلى الحديقة.

توجهتُ إلى السيدات الحاضرات قائلاً بلهجة مازحة:

- هذا لم يحدث أبداً أيتها السيدات! خرجتُ العروس، وأصبح نيبذي حامضاً! يجب أن أبحث عنها وأتي بها إلى هنا، حتى إن كانت كافة أسنانها تؤلمها! الإشبين في موقع مسؤولية، وهو ذاهب الآن ليستخدم سلطته!

نهضتُ، وخرجتُ من الغرفة إلى الحديقة يلاحقني تصفيق صديقي الكونت. ضربتُ أشعة شمس الظهيرة الحارقة رأسي التي أدارها النيبذ. لاح أثر الحرارة والاختناق فعلاً على وجهي. ذهبتُ تلقائياً إلى أحد أزقة الحديقة، منهمكاً في إطلاق صفير لحن ما، واثقاً في قدراتي التحقيقية، كأني كلب بوليسي. فحصتُ كافة الأجمات والسرادق

(٦٤) حيوانات مجهرية تكون من مادة هلامية مغلفة بغشاء رقيق.

والكهوف. عندما بدأ الندم يراودني على أنني انعطفت يميناً، لا يسار، سمعتُ فجأةً أصواتاً غريبة. كان أحدهم يضحك أو يبكي. صدرت الأصوات من أحد الكهوف التي كنت قد تركتها لنهاية عملية بحثي. دخلته سريعاً، واكتفتني الرطوبة ورائحة العفونة والفطر والزيزفون، ورأيتُ مرادي.

كانت واقفة، مستندة إلى عمود خشبي، مغطى بطحالب سوداء. نظرت إلى عينيها المليئتين بالهلع واليأس، وكيف مزّقت شعرها. تدفقت الدموع من عينيها، كما لو أنها تتدفق من إسفنجة تعصرها اليد. تمتمت:

– ماذا فعلتُ؟ ماذا فعلتُ؟

وقفتُ بالقرب منها، طاوياً ذراعيّ، وقلتُ:

– حقاً ماذا فعلتِ يا أوليا؟

– لماذا تزوجتُ منه؟ أين كانت عيناى؟ أين كان عقلي؟

– حقاً يا أوليا... يصعب تفسير فعلتك. سيكون تفسيرها بقلّة الخبرة به كثير من التساهل. لا أريد كذلك أن أفسرها بالفساد.

– فهمتُ اليوم وحسب... اليوم وحسب! لماذا لم أفهم الأمر بالأمس؟ لم يعد بالإمكان إصلاح شيء اليوم. ضاع كل شيء! كل شيء! كان بإمكانى الزواج من الإنسان الذي أحبه ويحبني.

– ممن يا أوليا؟

– منك!

قالت هذا ونظرتُ إليّ نظرة مباشرة وصريحة. أكملتُ:

- لكنني تسرعتُ. كنت حمقاء! أنت ذكي ونبيل وشاب. أنت ثري.
بدا لي أنني لا أستطيع أن أصل إليك.

أمسكتُ بيدها وقلتُ:

- كفى يا أوليا. جفّفي دموعك ولنذهب. إنهم ينتظرون. حسناً،
كفى بكاءً... كفى يا صغيرتي! (قبّلتُ يدها) لقد ارتكبتُ حماقة،
والآن تدفعين ثمنها. أنتِ المذنبة، ولكن كفى... اهْدئي!

- أنت تحبني، أليس كذلك؟ كم تبدو عظيمًا وجميلًا! أتحبني؟

- فلنذهب يا روحي.

قلتُ هذا، وقد فوجئت بهلع عظيم بأنني أُقبّل جبهتها، وأحيط
بخصرها، وبأن أنفاسها الحارة تحرق وجهي، وأنها تمسك بعنقي.
تمتّت:

- كفاكِ...

عندما حملتها وخرجت بها من الكهف بعد خمس دقائق تقريبًا،
ثم وضعتها على الأرض، مُعَذَّبًا بانطباعات جديدة، رأيتُ عند عتبة
المكان بشيخوتسكي. كان واقفًا، ينظر إليّ بحقد، ويُصفّق بهدوء.
راقبته بنظرتي، ثم تناولتُ يد أولجا وتوجهنا إلى المنزل. التفتُ إلى
بشيخوتسكي وقلتُ:

- لن يكون لك مكان هنا اليوم. سوف تدفع ثمن تجسسك.

يبدو أن قبلاتي كانت حارة؛ لأن وجه أولجا كان متوهجًا، كما لو
أن النار تتملكه. لم يكن هناك أدنى أثر لدموعها التي انهالت منذ قليل.

تمت أثناء سيرها معي صوب المنزل، وهي تشد مرفقي:

أشعر الآن بأن البحر كله لم يتخطَّ مستوى ركبتي كما يقولون! لم أكن أعرف صباحًا أين يمكنني أن أتوارى من فرط الهلع. أما الآن... الآن لا يمكنني أن أعرف يا ماردي الرائع أين يمكنني أن أتوارى من فرط السعادة. زوجي يجلس هناك في انتظارى... هاهاها! وماذا يضيرني من ذلك؟ لم أعد أخشى شيئًا، حتى لو كان تمساحًا أو أفعى مريعة. أحبك، ولا أريد أن أعرف شيئًا آخر.

نظرتُ إلى وجهها الغارق في السعادة؛ إلى عينيها المليئتين بحب سعيد وراضٍ، وانقبض قلبي من فرط الخوف على مصير هذه الكيان الجميل السعيد. لم يكن حبها لي سوى دفعة أخرى صوب الهاوية. ماذا سيكون مصير هذه الفتاة الضاحكة، غير المهمومة بمصيرها؟ انقبض قلبي، وغرق في شعور يصعب تسميته بالأسف أو الشفقة؛ لأنه كان أقوى من كل هذه المشاعر. توقفتُ، وأمسكتُ بكتف أولجا. لم أر في حياتي أبدًا ما هو أروع وأجمل، وفي الآن ذاته أكثر إثارة للشفقة منها. لم يكن هناك وقت للنقاش أو الحساب أو التفكير، وقلتُ مدفوعًا بشعوري ذلك:

- فلترحلي معي في هذه الدقيقة يا أولجا! حالًا!

لم تفهم لهجتي السعيدة، وسألته:

- كيف؟ ماذا قلت؟

- ارحلي معي حالًا!

ابتسمت أولجا، وأشارت إلى المنزل. قلتُ لها:

- وماذا في ذلك؟ هل سيختلف الأمر إن أخذتك اليوم أو غدًا؟
ولكن الأفضل أن نُسرع. فلنذهب!

- ولكن... لكن هذا غريب.

- هل تخشين الفضيحة يا فتاة؟! نعم، سوف تكون فضيحة غير
عادية ورهيبة، ولكن ألف فضيحة أفضل من بقائك هنا. لن
أتركك هنا. لا يمكنني أن أتركك هنا. هل تفهميني يا أولجا؟
فارقي خوفك ومنطقك الأثوي واسمعي لي... اسمعي لي إن لم
تكوني راغبة في هلاكك.

بدا على عيني أولجا أنها لم تفهمني. لم ينتظر الزمن، وسار كنهجه،
ولم يعد هناك وقت للوقوف في الزقاق بينما هم في انتظارنا بالداخل.
كان الأمر في حاجة إلى حسم. جذبتُ الفتاة ذات الرداء الأحمر إلى
أحضاني، وكانت في تلك اللحظة بمثابة زوجتي فعلاً، وبدا في تلك
الدقائق أنني أحبها حقاً؛ أحبها حباً زوجياً، وأنها لي، وأني أحمل عبء
مصيرها فوق كاهلي. رأيتُ أنني مرتبط بهذا الكيان ارتباطاً أبدياً، لا
تنفصم عراه.

قلتُ لها:

- اسمعي يا عزيزتي... اسمعي يا كنزي! هذه الخطوة شجاعة.
ستضعنا في موضع نزاع مع أقربائنا، وستجلب لنا آلاف
التوبيخات والشكاوي المصحوبة بالدموع. ربما حتى تقضي

على حياتي المهنية، وستُعرضني إلى آلاف الخسائر التي لا يمكن تعويضها، ولكن الأمر قد حُسِمَ يا عزيزتي! سوف تكونين زوجتي. لا أريد زوجة أفضل منك، وليحفظني الله من هذه النساء! سأجعلك سعيدة، وسأحفظك كحديقة عيني طالما بقيتُ حيًّا. سأهذبك وأجعل منك امرأة حقيقية! أتعهد لك بذلك.

كنت أتحدث بانفعال مخلص؛ بشعور عاشق يؤدي على خشبة المسرح أكثر مشاهد دوره شجناً. كنت أتحدث على نحو رائع، ولم يخفق عبثاً النسر الطائر فوق رؤوسنا بجناحيه. تناولتُ أوليا العزيزة يدي الممدودة إليها وضغطت عليها بيديها الصغيرتين، وقبَّلْتُها بحنان. لكن ذلك لم يكن إيذاناً بالموافقة. لاح الارتباك على وجهها الصغير الغبي، الذي تتسم صاحبته بانعدام الخبرة، ولم تسمع من قبل حديثاً كذلك. استمر عدم فهمها لي، وقالت، منخرطة في التفكير:

- تقول لي أن أرحل معك. أنا لا أفهمك إطلاقاً. ألا تدرك ما سيقوله؟

- وما الذي يهمل في ما سيقوله؟

- كيف ذلك؟ لا يا سيريوجا. الأفضل ألا تضيف شيئاً. كفاك رجاء! أنت تحبني، ولستُ في حاجة إلى شيء أكثر من ذلك. يمكنني أن أعيش ولو في الجحيم طالما تحبني.

- ولكن كيف ستتدبرين أمركِ أيتها المغفلة الصغيرة؟

- سوف أعيش هنا، وأنت... وأنت سوف تعرج عليّ كل يوم.
سوف أخرج للقائك.

- لكنني لا أستطيع تخيل تلك الحياة لك إلا وأرتجف! ليلك معه،
ونهارك معي! لا... هذا غير ممكن. أوليا... أنا أحبك في تلك
الدقيقة إلى حد أنني أشعر بغيرة جنونية. لم أتصور أبداً أن أشعر
بمثل تلك المشاعر.

كم كنت متهوراً! أمسكتُ بها من خصرها، وربتُ على يدي بحنان
في الوقت الذي كان يمكن في أي لحظة منه أن يمر أحد بالزقاق ويرانا.
قلتُ لها، صاحباً يدي:

- لنمضِ معاً. ارتدي ثيابك ولنذهب!

تمتّت بصوت باكٍ:

- ولكن كيف يمكن أن يتم الأمر هذه السرعة؟ تُسرّع كما لو أن
حريقاً قد اندلع، والله وحده يعرف عاقبة ما تنتويه! أتريدني أن
أهرب بعد العرس؟ ماذا سيقولُ الناس؟

هزت أولينكا كتفها. لاح على وجهها الارتباك والذهول، وعدم
الفهم بدرجة جعلتني ألوح بيدي، وأؤجل قرارها المتعلق بمصير
حياتها إلى فرصة أخرى. لم يكن هناك متسع لاستمرار حديثنا. صعدنا
الدرجات الحجرية للشرفة الخارجية، وسمعنا حديث الحاضرين.
سوّت أوليا شعرها وفستانها أمام باب غرفة الطعام، ودخلت. لم يبدُ
على وجهها أثر لأي ارتباك. دخلت بشجاعة فاقت توقعاتي.

قلتُ أثناء دخولي الغرفة، وجلوسي في مكاني:

- ها قد أعدت إليكم الهاربة أيها السادة والسيدات. وجدتها بصعوبة، حتى إنني أنهكت. أدخل إلى الحديقة، وأفتش، لأجدها تتمشى في أحد الأزقة، فأسألها: لماذا أنتِ هنا؟ فتجيبني: المكان خائق بالداخل!

نظرتُ إليَّ وإلى الضيوف وزوجها، وضحكتُ. أصبحتُ فجأةً ميالةً إلى الضحك، ومسرورة. قرأتُ على وجهها الرغبة في أن تخبر كل هذا الحشد المجتمع أنها وجدت سعادتها فجأةً، ولأنها لم تكن لديها فرصة لتخبرهم بذلك عبر الكلمات، سَكَبَتْه في ضحكاتها. قالتُ: - كم أنا مضحكة! أضحك ولا أعرف ماذا يُضحكني. اضحك يا سعادة الكونت!

ضحك كالينين قائلاً:

- قبلة عميقة!

سعل أوربينين ونظر إلى أوليا نظرة استفهامية. سألته مكفهرة الوجه: - ماذا؟

ابتسم أوربينين، ونهض من مكانه، مجففاً شفتيه بمنشفة.

نهضتُ أولجا وأعطته شفتيها المتصلبتين لِيُقَبِّلَهما. كانت قبلة باردة، لكنها أجبت اللهب المشتعل في صدري، والذي كان من الممكن أن ينفجر في أي لحظة. التفتُ وزممتُ شفتاي، وانتظرت نهاية الغداء. حلتُ نهايته سريعاً لحسن الحظ، وإلا لم أكن لأحتمل. بعد الغداء اقتربتُ من الكونت وقلتُ له بفظاظة:

- تعال هنا!

نظر إليّ الكونت بدهشة، وتبعني إلى الغرفة الفارغة التي اقتدته إليها. سألني بينما يحل صديريته ويتجشأ:

- ماذا تريد يا صديقي العزيز؟

قلتُ وقدمي تحملا نني بصعوبة من فرط الغضب:

- اختر واحدًا من اثنين: إما أنا أو بشيخوتسكي. إن لم تعدني أن يغادر هذا الوغد ضيعتك في غضون ساعة، لن أزورك أبدًا. لديك مهلة نصف دقيقة لتقرر.

فغر الكونت فمه من الدهول، وبسط ذراعيه. سألني، محدقًا فيّ بدهشة:

- ماذا بك يا سيرويوجا؟ تبدو غريبًا!

- أجبني دون كلمة إضافية رجاءً. لا يمكنني أن أتحمّل صديقك الجاسوس الوغد النذل. باسم علاقتي الجيدة بك أطلب منك أن تجعله ينصرف من هنا حالًا.

قال الكونت بانزعاج شديد:

- ولكن ماذا فعل لك؟ لماذا تهاجمه هكذا؟

- أنا أسألك: أنا أم هو؟

- لكنك تضعني يا عزيزي في موقف محرج بدرجة مريعة. هناك ريشة على معطفك. أنت تطلب المستحيل.

قلتُ له:

- وداعًا إذن. لن نعرف بعضنا مجددًا.

استدرتُ بحدة، وذهبتُ إلى الرواق الخارجي. ارتديت معطفي
وخرجت سريعًا.

بعبوري الحديقة، متوجهًا صوب مطبخ الخدم، حيث أردت أن
أمرهم هناك بإعداد جوادي، تم إيقافني. توجهتُ ناديا كالينين صوبي،
وفي يدها فنجان شاي صغير. حضرتُ هي أيضًا زفاف أورينين، ولكنَّ
خوفًا غير مفهوم أجبرني على تجنب الحوار معها، ولم أقرب منها
طوال الوقت، ولم أبادل معها كلمة واحدة.

عندما مررتُ بالقرب منها قالت بصوت خفيض بدرجة غريبة،
رافعة قبعتها قليلًا:

- سيرجيه بتروفيتش! دقيقة من فضلك!

اقتربت منها وسألتها:

- بمَ تأمرين؟

قالتُ محدقة في وجهي، وقد اعترى شحوب رهيب وجهها:

- ليستُ لدي أوامر. لستَ خادمًا. أنت مسرع إلى مكان ما، ولكن

إن لم تكن في عجلة من أمرك هل بالإمكان أن أعطلك لدقيقة؟

- بالطبع. أنا لا أعرف حتى لماذا تطلبين إذنًا بذلك.

- فلنجلس إذن ما دام الأمر كذلك.

جلسنا، وواصلت حديثها:

- لقد حاولت يا سيرجيه بتروفيتش أن تتجنبني طوال اليوم، وكنت تباعد عني، كأنك تخشى لقائي. لقد قررتُ اليوم أن أتحدث معك عن عمد. أنا فخورة ولديّ كبريائي. لا يمكنني التطفل على أحد، ولكن يمكن للمرء أن يضحى مرة واحدة في حياته بكبريائه.

- ماذا تقصدين؟

- قررتُ أن أسألك اليوم سؤالاً مهيناً وصعباً بالنسبة لي. لا أعرف كيف سأتحمل الأمر. أجبني دون أن تنظر إليّ. هل يمكن يا سيرجيه بتروفيتش أن تكون غير شاعر بالأسف عليّ؟

حدّقت ناديا فيّ، وهزت رأسها بضعف. ازداد شحوب وجهها، وارتعشت شفتها العليا والتوت.

- سيرجيه بتروفيتش! يبدو لي طوال الوقت أن... يبدو لي أن سوء تفاهم قد أبعدك عني، أو ربما هي نزوة. يبدو لي أننا لو تصارحنا سيعود كل شيء إلى حاله. لو لم أكن أظن ذلك، لما جرؤتُ على طرح ذلك السؤال الذي ستسمعه الآن. أنا تعيسة يا سيرجيه بتروفيتش. لا بد أنك ترى ذلك. حياتي ليست حياة. لقد جفّ كل شيء. الشك هو مشكلتي الرئيسة: لا أعرف هل هناك أمل أم لا. إن سلوكك تجاهي غير مفهوم، إلى درجة أنني غير قادرة على التوصل إلى أي استنتاج. وضح لي، وسأعرف ماذا أفعل. حينها سيتحدد لحياتي مسار ما، وسأكون قادرة على اتخاذ قرار ما.

- ما السؤال الذي تريد أن توجيئه إليَّ يا ناديم؟
هكذا أجبتها، وقد أعددت نفسي للإجابة عن السؤال الذي توقعته.
- نعم، أريد أن أسألك. إنه سؤال مهين. لو سمعه أحد، سيظن أنني
متطفلة، وأني أبدو تمامًا ككتاتيانا بطلة رواية بوشكين^(٦٥)، لكن
السؤال يعذبني.

كان السؤال يعذبها حقًا. عندما حوَّلت ناديا وجهها تجاهي لثوَّجِهَ
إليَّ ذلك السؤال، خفتُ. ارتعشت بشدة، وضغطت أصابعها بتشنج،
وكانت تنتزع كلمة مصيرية من صدرها ببطء كثيب. كان شحوبها
مريعًا. همست في النهاية:

- هل أتمسك بالأمل؟ لا تخشِ التحدث معي بصراحة. مهما
كانت الإجابة سوف تكون أفضل من عدم الحسم. قُل لي: هل
أتمسك بالأمل؟

كانت في انتظار الإجابة، بينما كنتُ في حالة نفسية تجعلني غير
قادر على قول إجابة معقولة. كنتُ ثملًا، مضطربًا بسبب ما حدث في
الكهف، غاضبًا بشدة من تجسّس بشيخوتسكي وتردد أولجا، بالإضافة
إلى تلك المحادثة الغبية مع الكونت، ولذلك كنتُ أسمع ناديا بصعوبة.
كرَّرتُ:

- هل أتمسك بالأمل؟ أجبنِي؟
لَوَّحت بيدي، ونهضتُ من مكاني قائلاً:

(٦٥) يشير إلى بطلة رواية بوشكين «يفجينيا أونيجين».

- لا يمكنني أن أجيبك يا ناديمجدا نيكولايفنا. لا يمكنني أن أقدم لك أي إجابات. سامحيني، لكنني لم أسمعك ولم أفهمك. أنا غبي وغازب.

لَوَحْتُ بيدي مجدداً وتركتُ ناديا. لم أفهم مدى غبائي وقسوتي حينما لم أعطِ الفتاة إجابة على سؤالها البسيط والواضح إلا بعد وصولي إلى المنزل. لماذا لم أجبها؟

عندما أنظر الآن إلى الماضي بإنصاف، لا يمكنني تبرير قسوتي بحالتي النفسية التي اكتفتني وقتها. يتضح لي أنني كنت أتدلل وأتحمق تمامًا بعدم الإجابة عن سؤالها. بشكل عام يصعب فهم الروح الإنسانية، لكن فهم روحي أصعب. إن كنت قد تحامقتُ معها، فعفوك يا رب! أقول ذلك رغم أن السخرية من معاناة الآخرين لا تستحق التسامح معها أبدًا.

ذرعتُ المكان ذهابًا وإيابًا لثلاثة أيام، كذُتُ حبس قفص. حاولتُ بكل قوة إرادتي الصلبة ألا أفارق منزلي. لم ألمس أكوام الأوراق الموضوعة على مكتبي، التي كانت في انتظار انتباهي بصبر. لم أستقبل أحدًا، وتشاجرت مع بوليكارب، وغضبتُ. لم أسمح لنفسني بزيارة ضيعة الكونت، وتطلَّبتُ مني هذا العناد أعصابًا قوية. تناولتُ قبعتي ألف مرة، وتركتها. أحيانًا كنت أقرر تجاهل كل شيء، والذهاب إلى أولجا، وليحدث ما يحدث، ثم أسيطر على نفسي بقراري البارد بالبقاء في المنزل.

عارض عقلي الذهاب إلى ضيعة الكونت. أقسمتُ مرةً ألا أزور الكونت أبداً، فهل يمكنني أن أضحيّ بكبريائي وفخري؟ ماذا سيظن هذا الغندور ذو الشاربين، لو توجهتُ إليه بعد هذه المحادثة الغبية، كأن شيئاً لم يحدث؟ ألن يكون ذلك بمثابة اعتراف بخطئي؟

بالإضافة إلى ذلك كان عليّ - كرجل شريف - أن أمزق أي رابط لي بأولجا. لن يجلب لها استمرار علاقتنا شيئاً سوى الهلاك. لقد ارتكبتُ خطأً بزواجها من أوربينين، لكن علاقتها بي كانت خاطئة كذلك. إن عاشتُ مع زوج عجوز، وحظتُ في الوقت نفسه بعلاقة سرية مع عشيق، ألن تكون حينها بمثابة دمية فاسدة؟ بغض النظر عن كم ستكون مثل هذه الحياة دنيئة من حيث المبدأ، لكن يجب التفكير أيضاً في العواقب.

كم أنا جبان! كنت أخشى العواقب والحاضر والماضي. أي شخص عادي كان سيسخر من طريقة تفكيري. لم يكن سيذرع المكان ذهاباً وإياباً، ولم يكن ليمسك رأسه ويفحص كافة الخطط الممكنة، لكنه كان سترك الحياة تكمل مسارها؛ الحياة التي تطحن كل شيء، حتى الحجر. كانت الحياة ستتولى كل شيء، دون أن تطلب عونه أو إذنه. لكنني شكّك إلى حد الجبن. ذرعت المكان ذهاباً وإياباً، وقد مرضتُ من شوقي إلى أولجا، وفي الآن ذاته دُعرت من التفكير في أنه كان من الممكن أن تقبل عرضي الذي عرضته عليها في لحظة انفعال عاطفي، وتأتي لتعيش معي «إلى الأبد» كما وعدتها! ماذا كان سيحدث إن أطاعتني وتبعني؟ كم كانت ستستمر هذه الفترة التي وصفتها

بـ «إلى الأبد»؟ وما الذي كانت الحياة معي ستقدمه لأولجا البائسة؟
لم أكن سأمنحها أسرة، ولذلك لم أكن سأمنحها السعادة. لا، لم يكن
عليّ أن أذهب لأولجا.

في ذلك الوقت تآقت روحي إليها بشدة. تَقْتُ إليها كصبي يحب
للمرة الأولى، غير قادر على لقاء حبيبته (بالفرنسية). تَقْتُ للقاء جديد،
وقد أغراني ما حدث في الكهف، ولم تفارق رأسي للحظة صورة أولجا
الجرئية، والتي كانت في انتظاري - كما كنت أعرف - وقد أنهكها
الحزن.

أرسل إليّ الكونت خطابًا تلو الآخر، يفوق كل منها السابق في
الأسف والإذلال. توسل إليّ أن أنسى كل شيء وأزوره، واعتذر عن
سلوك بشيخوتسكي، وطلب مني أن أسامح «هذا الإنسان الطيب
البسيط، وضيق الأفق في الوقت ذاته». أبدى دهشته كذلك من أنني
قررت قطع علاقاتنا الودية لسبب تافه. في واحد من خطاباتهِ الأخيرة
تعهد بأن يأتي بنفسه، وإن أردتُ سيصطحب معهُ بشيخوتسكي الذي
سيطلب التماس العذر مني رغم أنه «لا يشعر بأنه مذنب في أي شيء».
قرأتُ خطاباتهِ، وفي كل مرة كان مُوصِّل الخطاب ينتظر ردي على
الكونت، كنت أطلب منه أن يدعني لحالي.

عندما كنت في أوج نشاطي العصبي، واقفًا عند النافذة، قررت
الذهاب إلى مكان ما بالقرب من ضيعة الكونت، وقد عذبت نفسي
بالحجج ولوم النفس وتصور مشاهد الحب التي كانت في انتظاري
مع أولجا. في تلك اللحظة انفتح الباب بهدوء، وسمعت من خلفي

خطوات هادئة، وسرعان ما أحاطت يدان صغيرتان جميلتان عنقي.
التفتُ وسألتُ:

- أهذه أنت يا أولجا؟

عرفتها من حرارة أنفاسها، ومن الطريقة التي أحاطت بها عنقي،
وكذلك من رائحتها. ضغطتُ رأسها على وجتي، وبدأت سعيدة
سعادة غير طبيعية... لم تستطع من فرط السعادة أن تقول كلمة واحدة.
ضممتها إلى صدري؛ إلى منبع حزني وأسئلتي، الذي عذبني طوال ثلاثة
أيام. ضحكتُ من فرط السعادة، وبدأت أقفز في مكاني كطالب صغير.
ارتدتُ أولجا فستاناً حريراً أزرق، لاق تماماً على لونها الشاحب،
وشعرها الكتاني الرائع. كان الفستان على أحدث صيحة، وثماناً جداً.
على الأرجح كلف هذا الفستان أوريبيين ربع راتبه السنوي.

قلتُ لها، وقد حملتها على يديّ وقبّلت عنقها:

- كم تبدين جميلة اليوم! حسناً، كيف حالك؟ هل صحتك على
ما يرام؟

قالت وهي تلقي نظرة على غرفتي:

- يبدو المكان عندك سيئاً. أنت ثري، وتتقاضى راتباً كبيراً، ورغم
ذلك تعيش حياة بسيطة.

- يا عزيزتي لا يعيش الجميع في نفس الترف الذي يعيش فيه
الكونت. لكن دعي عنك ثروتي... أي جني طيب قد جلبك إلى
عربني؟

- انتظر يا سيريوجا... احذر الفستان! دعني أقف. جئت إليك
يا عزيزي لبرهة وحسب. قلتُ للجميع بالمنزل أنني ذاهبة إلى
أكاتixa غسّالة الكونت، وهي تعيش هنا بالقرب منك، على
مبعدة ثلاثة منازل. اتركني يا عزيزي... أشعر بالإحراج. لماذا
لم تأتِ منذ فترة طويلة؟

أجبت بشيء ما وأنزلتها لتقف أمامي، وانشغلت في تأمل جمالها.
ظللنا نبادل النظرات دقيقة في صمت. تنهدتُ وقلتُ:

- كم أنتِ باهرة الجمال يا أوليا! إنني أشعر بالأسف والاستياء من
فرط جمالك!

- لماذا تشعر بالأسف؟

- الشيطان وحده يعرف مَنْ نالكِ؟

- ولكن ماذا تريد أكثر من ذلك؟ أنا لك. ها قد جئتُك. اسمع يا
سيريوجا، هل ستجيب عن سُؤالي بالصدق؟

- بالطبع.

- هل كنت ستزوجني لو لم أتزوج بيتر يجوريتش؟

أردت أن أقول «من المحتمل لا» ولكن لماذا أنكأ جرحًا مؤلمًا
يعذب قلب أوليا البائسة؟ قلتُ بلهجة مَنْ يقول الحقيقة:

- بالطبع.

تنهدتُ أوليا وخفضتُ عينيها.

- كم أخطأتُ! كم أخطأتُ! أسوأ شيء هو استحالة إصلاح الأمر.

هل يستحيل الطلاق منه؟

- مستحيل .

- ما لا أفهمه هو سر عجلتي الشديدة. كم نتسم نحن الفتيات بالحماسة والهوائية! ليس هناك مَنْ يجلدنا! بالإضافة إلى ذلك ما حدث قد حدث، ولا جدوى من التفكير فيه. لست قادرة على أفكار أو دموع. ظللت أبكي طوال الليل يا سيريوجا. إنه نائم بجانبى، بينما أفكرُ فيك. لا أستطيع النوم. بل أردتُ أن أهرب ليلاً وأذهب إلى أبي في الغابة. العيش مع أب مجنون أفضل من العيش مع إنسان مثله!

- لن تفيد الأفكار بشيء الآن. كان عليك التفكير عندما جئنا معاً من تينيفو، وكنتِ مبهجة من أنك ستتزوجين إنساناً ثرياً. أما الآن فقد فات الأوان على الكلام المعسول.

قالت ملوَّحة بيدها بحسم:

- فات الأوان! حسناً لندع الأمر إذن. يمكن العيش إن لم يَسؤ الأمر. وداعاً! حان الوقت لأنصرف.

- لا... ليس وداعاً.

جذبتُ أوليا إليّ، وأغرقتُ وجهها بالقبلات، كأنني أحاول تعويض نفسي على ضياع الأيام الثلاثة الماضية. ضغطتُ نفسها أكثر عليّ كَحَمَلٍ يشعر بالبرودة، وأدفأت وجهي بأنفاسها الحارة. خيم الصمت. تعالى صوت بيجائي:

- زوج قتل زوجته!

ارتجفتُ أوليا، وانتزعتُ نفسها من حضني، ونظرتُ إليَّ نظرة استفهامية. قلتُ لها:

- هذا ببغاء يا عزيزتي... اهدئي!

كرر إيفان ديميانيتش:

- زوج قتل زوجته!

نهضتُ أوليا، وارتدتُ قبعتها في صمت، وقَدَّمتُ إليَّ يدها. ارتسم الخوف على وجهها. حدَّقتُ فيَّ بعينيها المفتوحين على آخرهما، وسألتني:

- وماذا إن عرف أوربينين؟ سوف يقتلني.

ضحكتُ قائلاً:

- ماذا تقولين؟ أي رجل سأكون إن تركته يقتلك؟! كما أنه غير قادر على تلك الفعلة. هل ستغادرين؟ حسناً، وداعاً يا صغیرتي. انتظري... سأذهب إلى الغابة غداً بالقرب من الكوخ الذي كنتِ تعيشين فيه. لنلتقِ هناك.

بعدما ودَّعتُ أولجا والتفتُ عائداً إلى حجرتي، التقيت ببوليكارب. كان واقفاً بين الحجرات، ينظر إليَّ بصرامة، هازاً رأسه باستهزاء. قال بلهجة أب صارم:

- احرص على ألا يتكرر ذلك مجدداً يا سيرجيه بيتروفيتش. لا أريد ذلك.

- ماذا تقصد؟

- أنت تعرف قصدي. أظن أنني لم أرَ؟ رأيتُ كل شيء. احرص على ألا تأتي إلى هنا مجددًا. هذا المنزل ليس المكان المناسب لمثل هذه الأمور. ثمة أماكن أخرى لذلك.

كنتُ في حالة مزاجية عظيمة، ولذلك لم أغضب من تجسس بوليكارب ولهجته الناصحة. ضحكتُ وصرفته إلى المطبخ.

لم أكد أسترجع شتات نفسي بعد هذا اللقاء حتى وجدتُ ضيفًا جديدًا يزورني. عرجتُ عربة على منزلي، مُصدرة ضجيجًا شديدًا، وأبلغني بوليكارب، وهو يبصق على الجانبين، متممًا ببعض الشتائم، بوصول الكونت؛ الشخصية التي يكرهها من كل قلبه. دخل الكونت، ونظر إليّ داعمًا، وهز رأسه:

- لقد تنحيْتُ جانبًا. لا تريد أن تتحدث.

- لم أتنحَ جانبًا.

- أحبتك يا سير يوجا، بينما أنت بسبب تفاهات تـ... لماذا تُسيء إليّ؟ لماذا؟

جلس الكونت، وتنهد وهز رأسه. قلتُ:

- حسنًا، لقد لعبتَ دور الأحمق كفاية.

كان تأثيري قويًا على هذا الإنسان الضعيف السقيم، تمامًا بقدر ازدرائي له. لم تسوّه لهجتي الساخرة، بل على العكس؛ ما إن سمع «حسنًا» حتى هبَّ وعانقني.

- لقد جلبته معي... إنه في العربية. أتريده أن يأتي ويعتذر إليك؟

- وهل تعرف الذنب الذي ارتكبه؟

- لا.

- ممتاز! لا حاجة للاعتذار، ولكن حذّره وقُلْ له: لو تكرر أمر كذلك في المستقبل، لن أكتفي بالغضب، بل سأخذ إجراءات.

- أذلك يعني صلحاً إذن يا سيريوجا؟ ممتاز! هذا ما كان يجب أن يحدث منذ وقت طويل، والشيطان وحده يعلم سبب شجاركما. بدوتما كفتيات المدارس! آآه يا عزيزي! ألا أجد لديك كأس فودكا؟ حلقي جاف بدرجة مريعة.

طلبتُ له فودكا. شرب الكونت كأسين. تمدد على الأريكة وبدأ

يثرثر:

- التقيتُ يا أخي حالاً بأوليا. امرأة معجزة! يجب أن أقول لك إنني بدأت أكره أوريينين. هذا يعني أنني بدأت أعجب بأولينكا... جمال شيطاني. أظن أنني سأنال منها.

صحّتُ فيه:

- لا يجب أن تقترب من المتزوجات.

- لكنها ليست خطية أن تسرق زوجة عجوز كبير يجوريتش. إنها غير ملائمة له. يبدو كالكلب: لا يستطيع التهامها، ولا يريد أن يدع الآخرين يأكلونها. سأبدأ هجومي اليوم، وسأفعل ذلك بطريقة منهجية. آه من تلك الصغيرة! أناقة رائعة، وجمال مُغوّ.

شرب الكونت كأسًا ثالثَةً، وواصل حديثه:

- أنعرف من تروق لي أيضًا من الفتيات؟ نادينكا، ابنة هذا الأحمق المدعو كالينين. سَمار حارق! شاحبة ولديها هاتان العينان... سألقِي خيط صنارتي هناك أيضًا. سأقيم حفلًا موسيقيًا وغنائيًا وأدبيًا في يوم عيد الثالوث. سأقيم الحفل خصيصًا لأدعوها. يبدو يا أخي أن الأمر هنا ليس مملًا، بل مبهج. مجتمع ونساء... هل يمكنني أن أغفو لبرهة؟

- ممكن، ولكن ماذا عن بشيخوتسكي الذي ينتظرك في العربة؟
- دعه ينتظر عليه اللعنة! أنا نفسي لا أحبه.

نهض الكونت مستندًا إلى مرفقيه، وقال بغموض:

- أبقيه للضرورة وحسب، للحاجة فقط، ولكن عسى أن يأخذه الشيطان!

اهتز مرفقا الكونت، وسقط رأسه على الوسادة. في غضون دقيقة واحدة تعالى شخيرُه.

عندما رحل الكونت في المساء، جاءني الضيف الثالث: الطبيب بافل إيفانوفيتش. عرج عليّ ليُبلغني بمرض ناديجدا نيكولايفنا، وبأنها رفضتُ تقدمه للزواج بها نهائيًا. كان المسكين حزينًا وبدا كالدجاجة المبللة!

مر شهر مايو الشاعرِي، وكان من المفترض أن تزدهر معه مسرات الحب، التي بالرغم من إجرامها وألمها، تمدّنا بين الحين والآخر

بلحظات عذبة، لا تزول من الذاكرة. تمر دقائق يمكن للمرء أن يدفع من أجلها شهوًّا وأعوامًا!

في أحد أمسيات يونيو، عندما كانت الشمس قد غربت بالفعل، لكنَّ أثرها الواسع الممثل في شريط أرجواني ذهبي كان لا يزال يُلوِّن أقاصي الغرب، وكان من المتوقع أن يكون الغد هادئًا ناصعًا، ذهبْتُ إلى منزل أوريينين ظهر زوركا. كانت هناك حفلة موسيقية في ذلك المساء بمنزل الكونت. بدأ الضيوف فعلاً في التوافد، لكن الكونت لم يكن بالمنزل. قيل إنه ذهب في نزهة على الجواد ووعد بالعودة سريعًا.

بعد ذلك وقفتُ بعض الوقت في الرواق الخارجي، ممسكًا بلباس جوادي، منخرطًا في حديث مع ساشا ابنة أوريينين. كان أوريينين جالسًا على إحدى درجات السلم، مُسندًا رأسه إلى يديه، محدقًا في نقطة بعيدة صوب البوابة. بدا متجهمًا، ولم يكن راغبًا في الإجابة عن أسئلتني. تركته لحاله، وانشغلت بالحديث مع ساشا. سألتها:

- أين والدتك الجديدة؟

- خرجتُ لتتنزه على ظهر الجواد بصحبة الكونت. إنها تفعل ذلك كل يوم.

تمتم أوريينين متنهّدًا:

- كل يوم!

أفصحت تلك التنهيدة عن الكثير... أفصحت عما يعتلج داخل نفسي أنا أيضًا، وما حاولتُ أن أشرحه لنفسي دون جدوى، وتهدت في التخمينات!

كانت أولجا تقوم كل يوم بجولة على ظهر الخيل بصحبة الكونت. لكن هذه تفاهات. لم تستطع أولجا أن تحب الكونت، ولم يكن هناك أساس لغيرة أوريينين. لم يكن علينا أن نشعر بالغيرة من الكونت، بل من شيء آخر لم أستطع تفهمه لمدة طويلة. صار هذا «الشيء المختلف» عائقاً بيني وبين أولجا. واصلتُ حبها لي، ولكن بعد هذه الزيارة التي وصفتها في الجزء السابق، لم تزرني مجدداً سوى مرتين، وكان اللقاء خارج شقتي، وبدت مضطربة بشكل غريب، وتهربتُ بوضوح من الإجابة عن أسئلتِي. تجاوبتُ مع ملاطفاتي بحرارة، لكن إجاباتها كانت مضطربة ومشوبة بالخوف، إلى حد أنه لم يتبقَّ في ذاكرتي من لقاءاتنا القصيرة سوى ارتباك مُعذَّب. لم يكن ضميرها صافياً. كان ذلك واضحاً، ولكن كان من المستحيل قراءة مصدر الذنب بوضوح على وجهها. سألتُ ساشا:

- آمل أن تكون والدتك الجديدة بصحة جيدة.

- إنها بخير، لكنها عانتُ طوال الليل من آلام الأسنان. كانت تبكي.

حوَّل أوريينين وجهه صوب ساشا:

- كانت تبكي؟ هل رأيتَ ذلك بنفسك؟ يبدو أنك كنتَ تحلمين

يا عزيزتي.

لم تُعانِ أولجا من آلام الأسنان. لو كانت قد بكت فعلاً، فذلك ليس بسبب ألم الأسنان، بل لسبب آخر. أردتُ أن أتحدث أكثر مع ساشا، لكنني لم أستطع ذلك لأنني سمعتُ خبب جواد، وسرعان ما رأينا فارساً بشياب فرسان جميلة يقفز من على صهوة الفرس بشكل سيئ. أردتُ أن

أخفي سروري عن أولجا، فحملتُ ساشا على يدي، ولاعبتُ بأصابعي شعرها الأشقر، وقبّلتُ رأسها قائلاً:

- كم أنت جميلة يا ساشا! كم تبدو جدائل شعرك بهية!

نظرتُ أولجا إليّ نظرة قصيرة، وأجابت بصمت على انحنائي بالتحية، ودخلتُ المنزل، مستندة إلى ذراع الكونت. نهض أوريبنين من جلسته، وتبعها.

بعد خمس دقائق خرج الكونت من المنزل. كان مسروراً كالمعتاد، حتى بدا وجهه أكثر نضارة.

- فلتهنئي!

قال لي ذلك، وتناول ذراعي وانخرط في الضحك.

- بماذا؟

بالنصر. رحلة أخرى كتلك، وأقسم لك برماد أجدادي النبلاء أنني سأقطف بتلات هذه الزهرة.

- ألم تقطفها بعد؟

- أوشكتُ... في غضون عشر دقائق كنت أمسك بيدها (ثم أنشد الكونت) ولم يقتصر الأمر على أنها لم تسحب يدها، بل قبّلتُ تلك اليد. ولكن لنتنظر إلى الغد، ولنمضِ الآن. إنهم في انتظاري. آه... تذكرتُ... عليّ أن أتحدث معك يا عزيزي بشأن أمر. قل لي يا عزيزي، أصبح ما يقولونه بشأن نواياك الخبيثة تجاه ناديكا كالينينا؟

- لماذا؟

- إن كان ذلك صحيحًا، لن أعترض طريقك. أنا لا أ تدخل في خصوصيات الآخرين. لكن إن لم تكن لديك مثل هذه النوايا، فبالطبع ...

- ليست لديّ مثل هذه النوايا.

- شكرًا (بالفرنسية) يا روجي!

أراد الكونت أن يضرب عصفورين بحجر، وكان على ثقة تمامًا من أنه سينجح في ذلك. لاحظتُ في تلك الأمسية مطاردته للآرنبيين. كانت مطاردته حمقاء ومثيرة للسخرية، تمامًا كرسـم كاريكاتير ساخر. بالنظر إليها لم يكن بإمكان المرء سوى أن يضحك أو يغضب من فظاظة الكونت، ولكن لم يكن أحد ليتصور أبدًا أن تلك المطاردات الصبيانية سوف تنتهي بسقوط أخلاقي لواحد وهلاك آخر، وارتكاب جريمة من قبل ثالث!

لم يضرب الكونت بحجره آرنبيين وحسب، بل فعل ما هو أكثر من ذلك! لقد قتلهمـا، لكنه لم يتحصل على جلدهما ولحمهما.

شاهدته وهو يربت خفيه على يد أولجا، وكانت تستقبله في كل مرة بابتسامة ودية، ثم تلاحقه بتكشيرة مليئة بالازدراء. أراد مرة أن يكشف لي عن أنه ليس ثمة أسرار بيننا، فقبَّل يدها أمامي. همستُ في أذني، مُجفِّفة يدها من أثر قبلته:

- يا له من أبـله!

عندما انصرف الكونت، قلتُ لها:

- اسمعي يا أولجا. يبدو أنك تريدين قول شيء لي... أتريدين؟

نظرتُ بفضول إلى وجهها. احمر وجهها وبدأت تطرف بعينها بخوف كقطة، كأنها سارق أمسك أثناء سرقة.

قلتُ بصرامة:

- أولجا... يجب أن تتحدثي. أطلبك بذلك.

همستُ، ضاغطة على يدي:

- نعم، أريد أن أقول لك شيئاً. أنا أحبك، ولا أستطيع أن أحيا من دونك، ولكن... لا تأتِ إليّ مجدداً يا عزيزي. لا تحبني، وحدّثني بصيغة الجمع^(٦٦). لا يمكنني مواصلة ذلك... مستحيل! لا تكشف لي حتى عن أنك تحبني.

- لماذا؟

- أريد ذلك. لا تحتاج إلى معرفة الأسباب، ولن أقولها لك. اتركني!

لم أتركها، واضطرتُ إلى قطع حديثها. أمسكتُ بذراع زوجها الذي مرّ بنا، وأومأت لي برأسها بابتسامة مرائية، وانصرفتُ.

في هذه الأمسية نال أرنب الكونت الثاني عناية خاصة منه؛ أقصد نادينكا كالينينا. ظل يحوم حولها طوال الأمسية، يقص عليها النكات،

(٦٦) في الروسية يكون الحديث بصيغة الجمع دلالة الاحترام، وينتقل إلى المفرد بين المقربين، أو عندما يحدث المرء طفلاً مثلاً.

ويدلي بملاحظات بارعة، ويغازلها. أما هي، فقد لوتَ فيها بابتسامة متكلفة، وكان وجهها شاحباً مشوهاً. ظل قاضي الصلح كالينين يراقبهما طوال الوقت، يملّس لحيته، ويسعل بشكل ملحوظ، كان تودد الكونت إلى ابنته أمراً مقبولاً بالنسبة له، فكّر في نفسه: هل يمكن أن يكون الكونت صهره! ماذا يمكن أن يكون أعذب من ذلك الحلم لمحـب قروي للمتعة؟ منذ أن بدأ الكونت يتودد إلى ابنته، زاد قدره في عين نفسه ثلاثة أرشينات^(٦٧). كم رمقني بنظرات تشي بالعظمة! كان يسعل بطريقة مليئة بالبعـض أثناء تحدّثه معي، كأنه يقول لي: «غادرتنا، ونحن نبصق على رحيلك. الآن لدينا الكونت!».

في مساء اليوم التالي ذهبتُ مجدداً إلى ضيعة الكونت. لم أتحدث في تلك المرة مع ساشا، بل مع أخيها طالب الجيـمنازيا. أخذني الصبي إلى الحديقة وصارحني بكل شيء. أتت نوبة المصارحة هذه على إثر سؤالـي عن أحواله مع أمه الجديدة. بدأ حديثه، وهو يفك أزرار سترته المدرسية بعصبية:

- إنك تعرفها جيداً، وسوف تحكي لها حديثي ذلك، لكنني لا

أخاف... احك لها كما تشاء! إنها شريرة ووضيعة!

وحكى لي عن أن أولجا استولت على غرفته، وطردت المربية العجوز التي كانت تعمل عند أوربينين منذ عشرة أعوام، وأنها في حالة غضب وصراخ دائمين.

(٦٧) الأرشين: مقياس طول روسي قديم يساوي ١٢, ٧١ سم.

- بالأمس ربّت على شعر شقيقتي ساشا... حسنًا، أليس شعرها جميلًا كالكتان؟ لقد قصّته لها اليوم!

فسّرت لنفسى اعتداء أولجا على شعر ساشا بأنه بسبب الغيرة.

- يبدو أنها غارت بسبب أنك مدحت شعر ساشا، لا شعرها.

هكذا أكّد الصبي فكرتي. أكمل:

- إنها تعذب بابا أيضًا. يبدد أبي المال عليها بصورة مريعة، كما أنه

يهمل عمله، وقد عاد مجددًا إلى الشُّرب. مجددًا! إنها حمقاء

صغيرة... تبكي طوال الليل من فقر العيش في هذا المنزل

الصغير. وهل أبي هو المذنب في عدم ثرائه؟

حكى لي الصبي الكثير من الأمور المحزنة. لقد رأى ما لم يره وما

لا يريد أن يراه أبوه الأعمى. بالنسبة للمسكين أسيء لأبيه ولشقيقته

ولمربيته العجوز. انْتُزعت منه غرفته الصغيرة، حيث كان ينشغل بكتبه

وإطعام الحساسين التي كان يصطادها. لقد أساءت هذه الأم البديلة

الحمقاء ذات السلطة المطلقة للجميع، وسخرت من كل شيء. لكن

هذا الصبي المسكين لم يتصور تلك الإساءة المريعة التي ستجلبها تلك

الأم البديلة لأسرته، والتي سأشهد لها في هذا المساء بعد حديثي معه. لا

شيء يمكن أن يكتسب أي أهمية أمام مثل هذه الإساءة، حتى قص شعر

ساشا.

في وقت متأخر من تلك الليلة، جلستُ مع الكونت. شربنا كالمعتاد،

وكان الكونت ثملًا تمامًا، بينما كنت ثملًا بدرجة بسيطة. تمت:

- تمكنتُ اليوم من لمس خصرها بطريقة عفوية. غداً سأحاول أن أفعل المزيد.

- وكيف الحال مع ناديا^(٦٨)؟

- أموري تتقدم معها. لا نزال في مرحلة التحدث بالنظرات. أحب يا أخي قراءة ما في عينيها السوداوين الحزيتين. ثمة شيء فيهما لا يمكن وصفه بالكلمات، بل يمكن فهمه بالروح وحسب. لنشرب!

- طالما أنها تصبر على التحدث معك ساعات كاملة، فأنت تروق لها إذن، ولأبيها أيضاً.

- أبوها؟ هل تتحدث عن هذا الأبله؟ هاهاها! الأبله يظن أن نواياي شريفة تجاه ابنته.

سعل الكونت وشرب.

- إنه يعتقد أنني سأتزوجها. بغض النظر عن استحالة الزواج بالنسبة لي، ولكن إن تحدثتُ بصدق، سأقول إن إغواء فتاة أشرف لي من الزواج بها. هل تتخيل حياة أبدية مع عجوز سكير يسعل طوال الوقت؟ أووووه... لو حدث ذلك، لذبلت زوجتي وهربت في اليوم التالي. ما هذا الضجيج؟

قفز كلانا من مكانه... صفقتُ عدة أبواب في الوقت ذاته تقريباً، ووجدنا أولجا تهرع إلى غرفتنا. كانت شاحبة كالثلج، ترتعش كوتر

(٦٨) ناديا هي ناديجدا ونادينكا... صيغ تدليل.

هزوه بقوة. كانت خصلات شعرها متناثرة، وحدقتا عينيها متسعتين.
كانت لاهثة، وقد جعّدت بأصابعها ثنيات صدر ردائها الليلي.

سألتها، وقد أمسكتُ بيدها، وشحب وجهي:

- أولجا... ماذا حدث لك؟

لا بد أن الكونت كان سيندهش من حديثي العفوي بصيغة المفرد معها، لكنه لم يسمع. تحول بكامل كيانه إلى علامة استفهام كبيرة، وقد فغر فمه وجحظت عيناه، ناظرًا إلى أولجا نظرته إلى شبح. سألتها:

- ماذا حدث؟

قالت:

- إنه يضربني.

وانفجرت في البكاء وتهاوت على أحد المقاعد.

- من هو؟

- زوجي! لا يمكنني العيش معه. لقد هجرته.

ضرب الكونت الطاولة بقبضته قائلاً:

- أمر فاضح! أي حق له في فعل ذلك؟ هذا استبداد! هذا... هذا...

الشیطان وحده يعلم ما هذا. يضرب زوجته؟ يضربها؟ لماذا فعل ذلك؟

قالت أوليا، مجففة دمعها:

- دون سبب. أخرجت من جيب فستاني منديلاً، وسقط من جيبي

الخطاب الذي أرسلته إليّ بالأمس. خطف الخطاب وقرأه، وبدأ يضربني. أمسك يدي واعتصرها... انظرا! لا تزال يدي متورمة حتى الآن. طلب مني تفسيراً للأمر. لكنني هربت إلى هنا بدلاً من تقديم أي تفسير له. ألا يمكنك أن تتدخل؟ ليس لديه الحق في معاملة زوجته بهذه الفظاظة. لست طاهية! أنا نبيلة!

ذرع الكونت المكان ذهاباً وإياباً، وبدأ يتمتم بلسان مخمور مضطرب بشيء ما، لو ترجمناه إلى لغة شخص غير ثمل سيعني «عن وضع النساء في روسيا».

- هذه همجية... أظن نفسه في نيوزيلاندا^(٦٩)! هل يظن هذا الفلاح أنهم سوف يذبحون زوجته على مقبرته؟ عندما يرحل الهمج عن هذا العالم، يصطحبون معهم زوجاتهم!

لم أكن قد أفقت تماماً بعد. كيف يجب فهم زيارة أولجا المفاجئة بردائها الليلي؟ فيم يجب أن أفكر؟ وماذا عليّ أن أفعل؟ إن كانت قد تعرضت للضرب والإساءة، لماذا لم تهرب إلى أبيها أو أحد أقربائها، لا أنا الذي لا أعتبر قريباً لها؟ كان قلبي يحدثني عن براءة هذا الأبله المدعو أوربينين. لا بد أن الألم اعتصر قلبه عندما تشمم رائحة الحقيقة؛ الألم الذي يجب أن يشعر به زوج مصعوق مثله. بدأت أهدئ أولجا، دون أن أطرح أي أسئلة، ودون أن أعرف من أي نقطة أبداً، وقدّمت إليها بعض الخمر.

(٦٩) ربما كان من المعروف وقتها وجود قبائل أصلية هناك، وبالتالي يشير إلى الهمجية.

تنهدت وسط دموعها، ورفعت الكأس إلى شفيتها قائلة:

- كم أخطأت! كم أخطأت! كم تظاهر بالورع حينما كان يتودد إلي! ظننت أنه ملاك، لا إنسان.

سألتها:

- وهل تريدني أن يُبدي إعجابه مثلاً بذلك الخطاب الذي سقط من جيبك؟ أتريدني أن ينفجر في الضحك؟

قاطعني الكونت قائلاً:

- لن نتكلم عن هذا الموضوع. كان تصرفه حقيراً أيًا كان ما حدث. النساء لا يُعاملن بتلك الطريقة. سوف أدعوه لمبارزة! (٧٠) سوف أريه! صدقيني يا أولجا نيكولايفنا، لن يمر الأمر ببساطة.

بدا الكونت أشعث كديك رومي صغير، رغم أنه لم يكن مخولاً للتدخل بين زوج وزوجته. صمت، ولم أعارضه، لأنني عرفتُ أن ما دعاه لطلب الثأر لأجل زوجة شخص آخر هي عادة الثمل في التحدث بإسهاب عندما يكون بين أربعة جدران، وعرفتُ أنه سينسى أمر المباراة غداً تماماً. ولكن لماذا صمتت أولجا؟ لا أريد أن أفكر في أنها لم تكن معارضة لما اقترحه الكونت. لا أريد أن أصدق أن هذه القطة الجميلة الحمقاء لا تتمتع بأي قدر من الكرامة لدرجة أن توافق طواعية أن يصبح الكونت حكماً بينها وبين زوجها!

(٧٠) عندما كان الشخص يتعرض لإهانة في العصر القيصري، كان أحياناً يدعو مُهينه إلى مبارزة بالأسلحة النارية ليرد اعتباره. هكذا فقدت روسيا شاعرها الشهير بوشكين.

صاح الفارس الجبان قائلاً:

- سوف أُلطّخه بالطين! سوف أصفعه! سأفعل ذلك غداً!

لم تُغلق فم هذا الوغد المخادع الذي انخرط ثملاً في إهانة شخص لم يذنب في شيء سوى أنه انخدع كالمغفل، ثم أفاق من الوهم. كل ما فعله أوروبينين هو أنه ضغط على يدها بقوة، وهذا دفعها إلى فضيحة الهروب إلى منزل الكونت. الآن ترى أمام عينيها هذا الثمل المنحط أخلاقياً يلطّخ اسماً شريفاً، ويسكب مياهه القذرة على إنسان لا بد أنه كان في هذا الوقت قد أنْهَكَ من الحزن والارتباك، بعد أن أدرك أنه كان مخدوعاً، وكل ما تفعله هو أن ترفع حاجبها!

بينما كان الكونت منخرطاً في نوبة غضبه، وأولجا تجفف دموعها، جلب أحدهم بعض طيور الحجل المشوية. وضع الكونت نصف حجلة في طبق ضيفته... رفضت بإيماءة من رأسها، ثم تناولت بتلقائية الشوكة والسكين وبدأت تأكل. تلا ذلك كأس خمر كبيرة، وسرعان ما اختفت آثار الدموع من عينيها، ولم تتبق سوى بضعة بقع متوردة حول العينين، وبعض التنهيدات العميقة النادرة.

سرعان ما سمعنا ضحكة... ضحكت أولجا، كطفل قد نسي الإساءة وتعزّى. نظر إليها الكونت وضحك هو الآخر. جلس ملتصقاً بها وبدأ حديثه قائلاً:

- أتعرفين فيما فكّرت؟ أود أن أنظم عندك عرض هواة مسرحياً.

فلنعد مسرحية تتضمن أدواراً نسائية جيدة. ما رأيك؟

بدأ يتحدثان عن عرض الهواة. كم بدا حديثهما أحرق بعد هذا الهلع الذي ارتسم على وجه أولجا حينما جاءت إلينا راكضة منذ ساعة واحدة، شاحبة، باكية، بشعر أشعث! يا لرخص ذلك الهلع وتلك الدموع!

مر الوقت ودقّت الساعة الحادية عشرة. في مثل هذه الساعة تنام النساء الكريمات. حان وقت انصراف أولجا، ولكن الساعة وصلت إلى الثانية عشرة والنصف، ثم الواحدة، وهي لا تزال جالسة تتحدث مع الكونت. نظرت إلى الساعة قائلاً:

- حان وقت النوم. سوف أمضي. هل تسمحين لي بمرافقتك يا أولجا نيكولايفنا؟

نظرت أولجا إليّ، وإلى الكونت، ثم تمتمت:

- إلى أين سأمضي؟ لن أعود إليه.

قال الكونت:

- نعم، نعم، بالطبع لا يمكنك العودة إليه. مَنْ يضمن أنه لن يضربك مجدداً؟ لا... لا...

حل الصمت. ذرعتُ الغرفة ذهاباً وإياباً، وأعين صديقي وخليتي تراقبني. بدا لي أنني فهمت ذلك الصمت وتلك النظرات. نمت عن انتظار نافد الصبر. وضعتُ قبعتي وجلستُ على الأريكة.

تمتم الكونت، مجففاً يديه بنفاد صبر:

- إذن... إذن... الأمور هكذا...

دقت الساعة معلنة حلول الواحدة والنصف. ألقى الكونت نظرة سريعة إلى الساعة، وعبس، وظل يذرع الغرفة. كان واضحًا من نظره إليّ أنه أراد أن يقول لي شيئًا ما... شيئًا ضروريًا، لكنه محرج ومزعج. حسم أمره في النهاية، وجلس بجواري هامسًا:

- اسمع يا سيريوجا! لا تمتعض يا عزيزي. أنت تفهم موقفني، ولن تجد طلبي غريبًا أو وقحًا.

- تكلم بسرعة! لا حاجة إلى كل تلك المقدمات.

- أنت ترى سير الأمر، لذا ارحل يا عزيزي! أنت تعطلنا... إنها سوف تبقى معي. اعذرني على أنني أصرفك من هنا، لكنك...
لكنك ستفهم موقفني.

- حسنًا.

شعرتُ بالتقزز من صديقي. لو لم أكن شديد الحساسية لسحقته كخنفساء، عندما طلب مني أن أتركه مع زوجة أوربينين، مرتجفًا كمن أصابته الحمى. أراد هذا المنزل الواهن الذي ترعرع على الخمر والمرض أن يستولي على الفتاة ذات الرداء الأحمر، التي حلمتُ بميتة مؤثرة، والتي ربّتها الغابات والبحيرة الغاضبة! لا، لا يتوجب عليها حتى أن تكون قربه ولو بمسافة فرست كامل!

اقتربتُ منها. قلتُ:

- سأنصرف.

هزّت رأسها. سألتها محاولاً قراءة الحقيقة على وجهها الجميل المتوهج:

- يجب أن أنصرف، أليس كذلك؟

ردت بحركة واضحة لرموشها الطويلة:

- نعم!

- هل فكّرتَ جيّدًا؟

تنحّت عني، كما لو أنها تتحاشى ريحًا قوية. لم ترد أن تتحدّث. ولماذا كانت ستحدّث؟ يستحيل أن يجيب المرء باختصار على سؤال طويل، ولم يكن هناك متسع للأحاديث الطويلة، من حيث الزمان أو المكان.

تناولتُ قبعتي وانصرفت دون كلمة. حكّت لي أولجا بعد ذلك أنه بعد خروجي مباشرة، وما إن مازجت أصوات خطواتي هزيز الريح وحفيف أشجار الحديقة، حتى ضمها الكونت إلى أحضانه. أغلقتُ عينيها، وسدّت فمها ومنخريها، ووقفتُ بصعوبة من فرط شعورها بالتقرّز. مرت عليها لحظة كادت أن تنتزع فيها نفسها من أحضانه، وتركض إلى البحيرة. مرت عليها لحظات مزّقت فيها شعرها وانخرطت في البكاء. ليس من السهل أن يبيع المرء نفسه.

عندما خرجتُ من المنزل، وأثناء توجهي إلى الإسطبل، حيث كانت زوركا، توجب عليّ المرور بالقرب من منزل مدير الأعمال. ألقيتُ نظرة من نافذة المنزل. رأيت بيتر يجوريتش جالسًا إلى الطاولة عبر ضوء قاتم لمصباح زيتي مدخن. لم أستطع تبيين وجهه، فقد غطّاه بيده. لكن لاح الحزن بوضوح عبر جسده السمين الأخرق... حزن من

فرط اليأس، لم يكن من الضروري في حالته رؤية الوجه ليفهم المرء حالة روحه. كانت أمامه زجاجتا فودكا؛ واحدة فارغة، والأخرى بدأ يشرب منها لتوه. كان المسكين ينشد السلام، لا في نفسه، ولا في الناس، بل في الشراب.

وصلتُ المنزل في غضون خمس دقائق. كان الظلام مريعًا. البحيرة تفور غضبًا، وبدأ أن سبب غضبها هو أنني أنا المخطئ الذي شهد خطية مريعة، جرؤت على تعكير هدوئها القاسي. لم أستطع رؤية البحيرة في هذه الظلمة، لكن بدا لي كأن وحشًا غير مرئي قد زار، وأن الظلمة التي اكتنفتني تزار هي الأخرى.

أوقفتُ زوركا، وأغلقتُ عيني، واستغرقتُ في التفكير في زئير هذا الوحش.

– ماذا إن عدتُ الآن ودمرتهما؟

اعتلجتُ بداخلي ضغينة رهيبة... كل ما تبقى بداخلي من قدر قليل من الخير والشرف، كل ما تبقى بعد فساد طويل، كل ما نجا من الانحلال، وكل ما حافظت عليه وراعيته وتفاخرت به، تلقى إساءة شديدة، وأهين، وتلطخ بالوحل!

عرفتُ نساء هوى من قبل، واشتريتهن، ودرستهن، لكنهن لم يتحلين أبدًا بهذه الحمرة البريئة والعينين الزرقاوين المخلصيتين اللتين رأيتهما في صباح ذلك اليوم من شهر مايو، عندما كنت أتمشى في الغابة، متوجهًا إلى سوق تينيفو. أنا نفسي، الفاسد حتى النخاع، قد غفرتُ ودعوتُ إلى التسامح مع كل ما هو شرير وتذلللت إلى حد

الضعف. وصلتُ إلى قناعة مفادها أنه يستحيل أن تطلب من القذارة ألا تكون قذرة، ويستحيل أن تلقى الذنب على تلك العملات الذهبية التي دفعتها الظروف إلى أن تتلطح بالوحل... لكنني لم أدرك سابقاً أن تلك العملات الذهبية يمكنها أن تتلطح بالوحل، إلى درجة أن تصير هي والوحل شيئاً واحداً. هذا يعني أن الذهب قابل للذوبان!

انتزعت هبةً ريح قوية القبعة من فوق رأسي، وأضاعته في الظلمة المحيطة. لمستُ القبعة أثناء طيرانها خطم زوركا. خافت، فوثبت على قدميها الخلفيتين، ثم انطلقت إلى طريقها المألوف.

بوصولي إلى المنزل، ألقىْتُ نفسي على الفراش. نعتُ بوليكارب الذي اقترح عليَّ تغيير ثيابي بالشیطان دون أي سبب. دمدم بوليكارب مبتعداً عن الفراش:

- بل أنت الشيطان!

صحتُ:

- ماذا قلتَ؟ ماذا قلتَ؟

- ليست هناك فائدة من تكرار الحديث للأطرش!

قلتُ وقد ارتجفتُ، صاباً كل غضبي على الخادم المسكين:

- آآآه، وتجروُ على التحدث معي بمزيد من الوقاحات! اغربُ عن

وجهي! لا أريد أن أراك هنا أيها الوغد! اغربُ عن وجهي!

ولم أنتظر أن يخرج من الغرفة، تهاويتُ على الفراش، وانفجرتُ في البكاء كصبي صغير. لم تحتمل أعصابي المتوترة المزيد. كان عليَّ

أن أفرغ هذه الشحنة من الضغينة العاجزة والشعور بالاستياء والغيرة بشكل آخر.

صاح ببغائي، نافسًا ريشه الناعم:

- زوج قتل زوجته!

تحت تأثير هذه الصيحة، خطرْتُ على ذهني فكرة أن أوربينين قد يقتل زوجته.

حلمتُ بجريمة قتل أثناء نومي. كان الكابوس خانقًا، مُعذِّبًا... بدا لي أن يديَّ تلمسان شيئًا باردًا، وأني فور أن أفتح عينيَّ سأجد جثة. بدا لي أن أوربينين يقف عند مقدمة الفراش، ينظر إليَّ نظرات متوسلة. ساد الصمت بعد هذه الليلة.

مكثتُ في المنزل، ولم أسمح لنفسي بالخروج، سواء على قدميَّ أو على الجواد، إلا لشؤون العمل. تكومتُ عليَّ كمية هائلة من العمل، وبالتالي لم تكن هناك فرصة للملل. ظللت جالسًا إلى مكتبي، أعمل بكد من الصباح وحتى المساء، أو أستجوب الأشخاص الذين سقطوا بين مخالب تحقيقي. لم أنجذب إلى الذهاب مجددًا إلى ضيعة الكونت كارنيفكا.

فصلتُ نفسي عن أولجا، معتبرًا أن ما يسقط من حمولة العربة لا يُسترجع ثانية، وقلتُ في نفسي إنها سقطت من حمولة عربتي، وبالتالي لا يمكن استرجاعها. لم أفكر فيها، ولم أعد أرغب في ذلك.

في كل مرة كانت تراود ذاكرتي أثناء عملي المكثف، كنت أستعين بها قائلاً لنفسي: «حثة حمقاء منحلة».

بالرغم من ذلك، كان يحدث أحياناً عندما أستلقي لأنام أو أستيقظ صباحاً أن أسترجع إلى ذاكرتي لحظات مختلفة من لقاءاتنا، والفترة الطويلة التي قضيتها معها. استعدت إلى ذاكرتي المقبرة الحجرية، كوخ الغابة الذي عاشت فيه الفتاة ذات الرداء الأحمر، الطريق إلى تينيفو، واللقاء في الكهف... حينها كان قلبي يخفق بقوة. كنت أشعر بألم موجه، لكن كل ذلك لم يكن يمتد طويلاً. سرعان ما كانت الذكريات الكثيرة تحط بثقلها على تلك الذكريات المشرقة. وهل يمكن لشاعرية الماضي أن تصمد أمام دناءة الحاضر؟ بعد أن انتهت أموري مع أولجا، لم أعد أنظر إلى هذه «الشاعرية» كما كنت أنظر إليها سابقاً... تحولت في عيني إلى خداع بصري، كذب ورياء... تبدد نصف فتنتها في عيني.

سئمت من الكونت تماماً. كنت سعيداً بأنني لن أراه مجدداً، وكنت أشعر بالغضب دائماً عندما تعود إلى ذاكرتي بحياء صورته بهذين الشاربين. كان يرسل إليّ خطابات كل يوم، يتوسل إليّ فيها ألا أغضب، وأعود لأزور «الشخص الذي لم يعد ناسكاً وحيداً». كان الاستماع إليه يعني أن أرتكب فعلاً مخزياً. قلتُ في نفسي: «لن أفعل ذلك بالطبع! حمداً لله أنني مللت منه».

قررتُ أن أقطع علاقتي بالكونت، ولم يتطلب حسم الأمر أي صراع بداخلي. لم أعد الشخصية ذاتها التي كنتها منذ ثلاثة أسابيع مضت،

حينما لم أكن قادرًا على البقاء بالمنزل إلا بصعوبة، بعد شجاري مع بشيخوتسكي. زال مصدر الإغواء.

بقيائي في المنزل دائمًا، بدأتُ أشعر بالاشتياق إلى الطبيب بافل إيفانوفيتش، وكتبْتُ إليه خطابًا أطلب فيه أن يأتيني لندردش معًا. لسبب ما لم يصلني رده على خطابي. أرسلْتُ إليه مجددًا. لم يصلني كذلك رد. من الواضح أن عفريتي العزيز يتظاهر بالغضب مني... المسكين، بعد أن رَفَضَتْه نادينكا كالينينا، اعتبرني سبب تعاسته. كان لديه الحق ليغضب مني، وإن لم يكن قد غضب مني من قبل، فهذا لأنه لم يستطع ذلك. سألتُ نفسي متعجبًا حينما لم يجب عن خطاباتي: «متى تعلم ذلك؟».

في الأسبوع الثالث لمكوئي العنيد بالمنزل، زارني الكونت. بعد أن وبَّخني على عدم زيارتي له وعدم ردي على خطابه، استلقى على الأريكة، وقبل أن يتعالى شخيره تحدث عن موضوعه المفضل: النساء. قال، وقد ضَيَّقَ عينيه بضعف، واضعًا يديه خلف رأسه:

- أعرف أنك رقيق وحساس. إنك لا تزورني حتى لا تزعجنا أو تعطلنا. الضيف الذي يأتي في موعد غير مناسب أسوأ من تتري، والضيف الذي يأتي إبان شهر العسل أسوأ من شيطان بقرنين. أفهمك. ولكنك تنسى يا صديقي أنك صديق لا ضيف، وأنا نحبك ونحترمك، بل إن بوجودك سيكتمل تناغمنا. ويا له من تناغم يا صديقي! إنه تناغم لا أستطيع وصفه لك.

أزال الكونت يديه من خلف رأسه ولَوَّحَ بها، وأكمل:

- أنا نفسي لا أفهم ما إن كان العيش معها يطيب لي أم لا. حتى الشيطان نفسه لا يعلم! تمر عليّ أوقات أكون مستعداً فيها لأمنح نصف حياتي من أجل لقاء آخر بها، ولكن تمر عليّ أوقات كذلك، أذرع فيها المكان ذهاباً وإياباً كمجنون مستعد للصباح.

- لماذا؟

- لا يمكنني يا أخي فهم هذه الفتاة المدعوة أولجا. ليست امرأة، بل نوع من الملاريا. عندما يُصاب المرء بالملاريا، تارة تكتنفه حمى، وتارة يرتجف جسده. هكذا هو الأمر معها، حيث تتغير خمس مرات في اليوم. تارة تبدو فرحة، وتارة حزينة إلى حد أن تبتلع دموعها وتصلي. تارة تحبني، وتارة لا. تأتي لحظات أجدها فيها تلاطفني بطريقة لم أختبرها أبداً في حياتي مع أي امرأة. وأحياناً أخرى يكون الأمر كالاتي: تستيقظ فجأة، تفتح عينيها، وأرى وجهها مصوباً نحوي... يبدو وجهها مريعاً ضارباً مشوهاً، يكتنفه النفور والضعينة. عندما ترى وجهاً كذلك، تزول كل الفتنة، ويحدث كثيراً أن تنظر إليّ بهذا الوجه.

- تقول يكتنفه النفور؟

- نعم... لا أفهم الأمر إطلاقاً. تؤكد لي أن ما يجمعها بي هو الحب وحده، ورغم ذلك لا تمر ليلة إلا ورأيت ذلك الوجه الذي وصفته لك. ما تفسير ذلك؟ بدأت أتوصل إلى نتيجة - لا أريد تصديقها بالطبع - مفادها أنها غير قادرة على احتمالي، بل إنها لم تسلّم نفسها إليّ إلا بسبب تلك الخرق التي أشتريها لها. إنها

مغرمة بها بدرجة مريعة. عندما ترتدي فستاناً جديداً، تظل أمام المرأة من الصباح حتى المساء. يمكن أن تبكي نهائراً وليلاً إن فسدت إحدى ثيابه. إنها فاسدة بصورة مروعة! أكثر ما يعجبها فيّ هو أنني كونت. لو لم أكن كونتاً، لما أحببتي. لم نتناول غداءً أو عشاءً واحداً إلا ووبختني بالدموع على أنني لا أحيط نفسي بمجتمع أرستقراطي. كما ترى، إنها تريد أن تسود على مجتمع من ذلك النوع... غريبة حقاً!

وجّه الكونت نظره المكدر إلى السقف، واستغرق في التفكير. لاحظتُ بدهشة عظيمة، أنه كان في تلك المرة مستيقظاً بدرجة غير عادية. أدهشني ذلك، وأثر فيّ. قلتُ:

- لا تبدو اليوم ثملاً، ولم تطلب مني فودكا. هل أنا أحلم؟
- لم يكن لديّ وقت فعلاً للشرب. أستغرق في التفكير طوال الوقت. عليّ أن أقول لك يا سيربوجا إنني سقطت في حبها فعلاً، والأمر لم يعد مزحة. إنها تروق لي بدرجة مريعة. نعم، الأمر مفهوم. إنها امرأة نادرة، بارزة، ناهيك عن جمالها. صحيح أن ذكاءها عادي، ولكن آه من مشاعرها ورقتها وحيويتها! لا يمكنني حتى أن أقارنها بأماليا أو أنجيليكا أو جروشا رغم أنني استمتعت معهن. إنها من عالم آخر؛ عالم لا أعرفه.

ضحكتُ قائلاً:

- أنت تتفلسف!

- لقد انجرفتُ تمامًا... كأني سقطت في الحب! لكنني أرى الآن أنه من العبث أن أحاول تربية الصفر! قناع تسبب في إثارة أمل زائف بداخلي. تبين أن حمرة الوجه البريئة نتاج قلم أحمر، وتبين أن قبلة الحب هي طلب شراء فستان جديد. أخذتها إلى منزلي كزوجة، بينما تمسكتُ هي بوضعها كخليفة يُدفع لها المال. لكن يكفي ذلك الآن. إنني أروّض الآن أملي، وأعوّد نفسي على التعامل مع أولجا بوصفها عشيقة... كفى!

- ولكن ماذا عن زوجها؟

- زوجها؟ كيف يمكن أن يكون حاله بظنك؟

- أعتقد أنه يصعب تخيل إنسانٍ أتعس منه الآن.

- أظن ذلك؟ الأمر غير مُجَدٍ. إنه وغد ونذل إلى حد أنني لا أشعر بأي شفقة عليه. لا يمكن للوغد أن يكون تعيّسًا أبدًا. سيجد دائمًا مخرجًا.

- لماذا تسبه؟

- لأنه محتال. أنت تعرف أنني كنت أحترمه وأثق فيه كصديق. كلانا اعتبره إنسانًا شريفًا كريمًا، غير قادر على الخداع. أثناء ذلك كان يسرقني... تصور؟! استغل وضعه كمدير لأعمالي، وتصرف في خيراتي كما يشاء. الشيء الوحيد الذي لم يسرقه هو ما استحال تحريكه من مكانه.

أعرف جيدًا أن أوربينين شريف ونزيه إلى أقصى درجة، لذلك عندما سمعتُ كلمات الكونت قفزت مصعوقًا من مكاني واقتربت من الكونت، وسألته:

- هل قبضت عليه متلبسًا بالسرقة؟

- لا، لكنني أعرف أنه لص من مصادر موثوق بها.

- هل تسمح لي بمعرفة تلك المصادر؟

- لا تقلق... لن أتهم إنسانًا دون دليل. حكّت لي أولجا كل شيء عنه. حتى قبل أن تصبح زوجته، رأّت بعينها كيف أرسل شحنات من الدجاج والإوز المذبوح إلى المدينة. رأته أكثر من مرة يرسل إوزاتي ودجاجي كهدايا إلى الشخص الذي أنعم بالسماح لابنه طالب الجيمنازيا بالإقامة عنده. بالإضافة إلى ذلك رأّت كيف أرسل دقيقًا ولحمًا مدخنًا وشحم خنزير. فلنفترض أن كل ذلك محض هراء، ولكن أليس مسؤولاً عن ذلك الهراء؟ الأمر لا يتعلق بقيمة تلك الأمور المادية، بل بالمبدأ. لقد خان المبدأ! هناك المزيد أيضًا. لقد رأّت كومة من المال في دولابه. عندما سألتته عن صاحب ذلك المال، ومن أين أتى به، طلب منها ألا تقول أمام أحد أنها رأّت معه مالا. تعرف يا عزيزي أنه فقير تمامًا. مرتبه لا يكاد يكفيه. كيف تفسر إذن وجود هذا المال معه؟

صحّت غاضبًا من أعماق روحي:

- وهل صدقت تلك الأفعى الصغيرة؟ لم تكتفِ بالهروب من زوجها وجلب العار إليه في المقاطعة كلها، بل رأّت أنه من الضروري أن تخونه أيضًا! كم يخفي هذا الجسد الصغير مختلف أنواع الدنئات! أتقول دجاجًا وإوزًا ولحمًا مدخنًا؟ ماذا تقول يا سيد؟

ماذا تقول يا سيد؟ أتقول إن مشاعرك الاقتصادية السياسية وحماسك الزراعية قد أُسيء إليها لأنه أرسل في العيد طائرًا مذبحًا كهديّة؛ طائرًا كانت الثعالب أو القوارض ستلتهمه لو لم يرسله؟ لكن هل سبق لك أن راجعت مرة واحدة التقارير الهائلة التي يرسلها إليك؟ هل حسبت الآلاف وعشرات الآلاف؟ لا. ما نفع الحديث معك إذن؟ أنت غبي ومتوحش. ستكون سعيدًا لو قتلت زوج عشيقتك، لكنك لا تعرف كيف تفعل ذلك!

- لا علاقة لذلك الأمر بعلاقتي بأولجا. لقد سرقني، سواء كان زوجها أم لا، لذلك يجب أن أطلق عليه صراحة: «سارق». لكن لننح أمر الاحتيال جانبًا. قل لي: هل من الشرف أن تتلقى راتبًا وتظل لأيام كاملة تتسكع ثملًا؟ إنه يشمل كل يوم. لم أره يومًا واحدًا مستفيقًا. أمر دنيء وحقيير. الناس المحترمون لا يسلكون بهذه الطريقة.

- السبب الوحيد لانخراطه في الشرب هو أنه محترم.

- يبدو أن لديك ميلًا جارفًا للتشفع عن مثل أولئك السادة. لكنني قررت أن أكون بلا رحمة. أرسلتُ إليه اليوم حسابه، وأمرته أن يخلي مكانه لشخص آخر. لقد طفح الكيل.

وجدتُ أنه لن تكون هناك فائدة من محاولة إقناع الكونت بأنه ظالم وغير عملي وأحمق. ليس الكونت هو من يجب أن أتشفع أمامه من أجل أوربينين.

في غضون خمسة أيام، سمعتُ أن أوربينين انتقل للعيش في

المدينة، مصطحبًا معه ابنه طالب الجيمنازيا وابنته. قالوا لي إنه سافر إلى المدينة ثملاً، نصف ميت، وأنه سقط مرتين من العربة. انخرط طالب الجيمنازيا وساشا في البكاء طوال الطريق.

بعد رحيل أوريينين بفترة قليلة، اضطررت إلى الذهاب إلى ضيعة الكونت. حطّم اللصوص قفل أحد إسطبلات الكونت، وسرقوا بعض أسرجة الجياد الثمينة. لذلك توجب إعلام المحقق القضائي، أي أنا، وكنت سأذهب شتتُ أم أبيتُ (باللاتينية).

وجدتُ الكونت ثملاً وغاضباً. كان يذرع كافة الغرف، باحثاً عن ملاذ من الحزن، ولم يجده. قال مُلوّحاً بذراعه:

- أنهكتني تلك الفتاة المدعوة أولجا! غضبتُ مني صباح اليوم، وهددتني بإغراق نفسها، وتركتُ المنزل، وكما ترى لم تعد حتى الآن. أعرف أنها لن تُغرق نفسها، لكن الأمر كربه في كل الأحوال. ظلتُ عابسة طوال الأمس وكسرتُ إناءً، وأول أمس أفرطت في تناول الشيكولاتة. الشيطان وحده يمكن طبيعتها! واسيتُ الكونت بقدر ما استطعت، ومكثتُ معه لأتغدى. ظل يتمتم طوال الغداء:

- لا... يجب أن أنحّي عني هذه الصببانية. حان الوقت فعلاً، لأن الأمر إما أحرق وإما مشير للسخرية. بالإضافة إلى ذلك عليّ أن أعترف بأنها بدأتُ تضجّرني بتحولاتها الحادة. إنني أشد نموذجاً يتحلى بالهدوء والاستقرار والتواضع، نموذجاً يشبه نادينكا كالينينا... أتعرف؟ إنها فتاة فاتنة!

بعد الغداء، أثناء تجولي في الحديقة، التقيتُ بتلك الضائعة! ما إن رأيتني حتى تورد وجهها بشدة، وضحكتُ تلك المرأة الغريبة من فرط السعادة. امتزج الخجل المرسوم على وجهها بالسعادة، والحزن بالفرح. نظرتُ إليَّ بشك، ثم هرعت إليَّ وعانقتني دون كلمة واحدة. بعدها همستُ لي وهي تضغط بيديها على عنقي:

- أحبك! افتقدتك كثيرًا، إلى حد أنني كنت سأموت لو لم تأتِ.
عانقتها صامتًا، ثم اصطحبتها إلى سرادق. بمرور عشر دقائق، وعندما كنت سأفارقها، أخرجتُ من جيبي ربع روبل وقدمته إليها. اتسعت دقتا عينيها وسألتنِي:

- ما هذا؟

- هذا ثمن حب اليوم.

لم تفهمني أولجا، وظلت تنظر إليَّ بدهشة. وضّحتُ لها:

- بعض النساء كما تعرفين بائعات هوى. يمكن شراؤهنّ، ويتوجب للمرء أن يدفع لهن مالا. خذي المال! تأخذين من الآخرين، فلماذا لا تريدين أن تأخذي مني؟ لا أريد لأحد أن يتفضل عليّ بشيء.

كم كنتُ وقعًا حينما أهنيتها بتلك الطريقة! لكن أولجا لم تفهمني. لم تكن قد خبرتُ الحياة بعد، ولم تفهم بعد ماذا تعني كلمة «بائعات هوى».

كان يوم جميل من أيام أغسطس.

توهجت الشمس الصيفية، وأغرث السماء الزرقاء المرء بالتجول،
لكن بواذر الخريف كانت معلقة في الهواء. اكتست أوراق الغابات
العميقة باللون الذهبي، وبدت الحقول المعتمة حزينة وكئيبة.

انقبضت النفس بفعل نُذر الخريف القادم لا محالة. لم يصعب
التنبؤ بقرب حدوث الكارثة. لا بد أنها سترعد قريباً، وسينهمر المطر
لترطيب هذا الجو الخانق. قبل حلول العاصفة الرعدية، عندما تقترب
الغيوم المعتمة والكئيبة من بعضها، يبدو الجو خانقاً، كأن اختناقاً
أخلاقياً قد وجد مكانه فينا فعلاً. لاح ذلك في كل شيء: في حركاتنا
وابتساماتنا وأحاديثنا.

ذهبتُ في عربة خفيفة، وجلستُ نادينكا ابنة قاضي الصلح بالقرب
مني. كانت شاحبة كالثلج، يرتعش ذقنها وشفاتها كما لو أنها توشك
على البكاء. كانت عيناها العميقتان مليئتين بالأسى، ورغم ذلك ظلت
الابتسامة على وجهها طوال الطريق، وتظاهرت أنها سعيدة بدرجة
استثنائية.

تحركتُ أماننا وخلفنا عربات من مختلف أنواع الأشكال والأزمنة
والأحجام، وعلى الجانبين خبت الجياد وعلى ظهورها الفرسان
والفارسات. أما الكونت كارنيف، فقد ظهر في بدلة صيد خضراء،
وبدا أشبه بمهرج أكثر من صياد، وقد مال إلى الأمام وإلى الجانب، يعدو
بجواده الأسود بلا رحمة. بالنظر إلى جسده المائل وتعبير الألم المرتسم
على سيماء وجهه، ربما يظن المرء أنها المرة الأولى التي يمتطي فيها

جوادًا. تدلت على ظهره بندقية جديدة ذات ماسورة مزدوجة، وحقيبة على جانبه ترتعش عليها طيور زمار الرمل المصابة.

زَيَّنت أولينكا أوريينين الموكب. جلست على ظهر الجواد الأسود الذي أهداها الكونت إياه، وارتدت بدلة صيد سوداء، وريشة بيضاء على قبعتها. لم تكن تشبه الفتاة ذات الرداء الأحمر التي التقيتُ بها في الغابة منذ عدة شهور. الآن يشي جسدها بنوع من فخامة السيدات النبيلات. لاحت أمارات الأرستقراطية والفخامة في كل هزة لسوطها، وكل ابتسامة لها. كان هناك شيء مُهَيِّج ومحرِّض في حركاتها وابتساماتها. رفعتُ رأسها باختيال، ونظرت إلى الجميع من فوق جوادها بازدراء، كأنها لا تبالي بالملاحظات الصاخبة التي وجَّهتها سيداتنا الفاضلات صوبها! تحدثُ الجميع واختالت بوقاحة بوضعها لدى الكونت، كأنها لا تعرف أن الكونت قد مل منها فعلاً، وأنه في انتظار أن تحين الفرصة في أي دقيقة ليتخلص منها.

قالت لي بضحكة مجلجلة عندما خرج الموكب من الفناء:

- يريد الكونت أن يطردني.

إِذْنُ فقد عرفتُ حقيقة وضعها، وفهمته.

لكن لماذا تلك الضحكة المجلجلة؟ نظرتُ إليها وقلتُ في نفسي متعجبًا: كيف اكتسبت ابنة الغابات البسيطة تلك الرشاقة؟ متى تمكنت من تعلم الاهتزاز بهذه الحيوية على ظهر الجواد، وتحريك منخريها بهذا الكبرياء، والتباهي بهذه الإيماءات المتغطرة؟

قال لي الطبيب بافل إيفانيتش:

- امرأة منحلة! خنزيرة! إن جلستُ إلى الطاولة، تضع قدميها فوقها. لكن هذا التفسير مفرط في بساطته. لم يتولَّه أحد بأولجا كما تولَّهتُ بها، وبالرغم من ذلك كنتُ أول المستعدين لرميها بالحجر. لكن صوت الحقيقة الباهت همس لي أن الأمر لم يكن مجرد رشاقة، أو مجرد تباهٍ من امرأة ممتلئة راضية، بل يأس الشعور بكارثة حتمية أوشكت على الحدوث.

عدنا من الصيد الذي انطلقنا إليه منذ الصباح. لم يكن الصيد موفقاً. وجدنا بالقرب من المستنقع الذي علقنا عليه آمالاً كبيرة، حشدًا من الصيادين أعلن لنا أن الطيور ولَّتْ خائفة. كل ما نجحنا في إرساله إلى العالم الآخر كانت ثلاثة من طيور زمار الرمل وبطة صغيرة وحسب، وتم ذلك من عشرة بنادق صيد. في نهاية الأمر أُصيب إحدى الصيادات بألم أسنان، وكان علينا أن نسرع في العودة. عدنا عبر طريق الحقول الرائع، وقد لاحت فيه حزم الجاودار الأصفر المقطوعة حديثاً على خلفية الغابات الكالحة... لاحت كنيسة الكونت البيضاء في الأفق، وكذلك منزله. على يمينهما امتد سطح البحيرة اللامع كالمرآة على مساحة واسعة، والمقبرة الحجرية على اليسار.

في كل مرة كانت أولجا تقترب فيها من عربتنا، كانت نادينكا تهمس لي:

- يا لها من امرأة مريعة! يا لها من امرأة مريعة! إنها شريرة بقدر جمالها. ألم تكن إشبينها في حفل زفافها؟ ما إن خلعتُ حذاء

عرسها، حتى بدأت تتباهى بحريير شخص آخر وتتبرج بماساته!
لا يمكنني تصديق سرعة وغرابة هذا التحول! حتى لو كانت
تتسم بهذه القدرات، كان عليها أن تنتظر عامًا مثلاً أو عامين.
تنهدتُ قائلاً:

- تود أن تسرع في الاستمتاع بالعيش!

- وهل تعرف ماذا أصاب زوجها؟

- يقولون إنه يشمل طوال الوقت.

- صحيح، لقد رآه أبي في المدينة أول أمس، داخل عربة، متوجهاً
صوب مكان ما. كان رأسه مائلاً، وليست هناك قبعة عليه، ووجهه
ملطخ... إنسان هالك! يُقال إنه يحيا في فقر مريع. ليس لديه شيء،
ولم يدفع إيجار شقته. ابنته ساشا المسكينة تظل دون طعام لساعات
طويلة. أبلغ أبي الكونت بكل ذلك، لكنك تعرف الكونت! إنه
شريف وصالح لكنه لا يحب أن يمعن التفكير في أي شيء. يقول:
«سوف أرسل إليه مائة روبل»، وأرسل إليه فعلاً. أظن أنه لا يمكن
للكونت أن يهين أوربينين بشيء أكثر من إرساله المال إليه. لا بد
أنه استاء من صدقة الكونت وزاد انخراطه في الشرب.

قلتُ:

- نعم، إن الكونت أحمق. كان بإمكانه أن يرسل إليه هذا المال
عبري أو باسمي.

- لم يكن لديه الحق في أن يرسل إليه مالاً من الأساس. هل لي حق

في أن أطعمك إن كنتُ أخنقك وأنت تكرهني؟
- أنتِ محقة.

صمتنا واستغرقنا في التفكير... كان التفكير في مصير أوربينين
ثقيل الوطأة عليّ دائماً. الآن أرى زوجته الهالكة تتبختر أمام عيني،
وذلك في حد ذاته أثار في عقلي دوامة ثقيلة من الأفكار. ماذا سيحدث
معه ومع أطفاله؟ كيف سينتهي أمرها؟ في أي مستنقع أخلاقي سينتهي
الأمر بهذا الكونت الواهن البائس؟

جلس بجانبي كيان وحيد، وسيم، يستحق الاحترام... لم أعرف
في هذه المقاطعة بأكملها سوى شخصيتين يمكن للمرء أن يحبهما
ويحترمهما فعلاً، ولديهما وحدهما الحق في الابتعاد عني لأنهما أسمى
مني... إنهما ناديجدا نيكولايفنا والطبيب بافل إيفانوفيتش... ماذا كان
في انتظارهما؟ قلتُ لها:

- ناديجدا نيكولايفنا! لقد تسببتُ -دون قصد- في إلحاق قدر كبير
من الأذى بك، لذلك ليس لديّ الحق في توقع عودة ثقتك بي،
لكن أقسم لك أنني أفهمك بدرجة أكبر من أي شخص آخر. إن
حزنك هو حزني، وسعادتك هي سعادتي. إن طرحتُ الآن سؤالاً،
فلا تستمي فيه رائحة فضول بطّال. قل لي يا عزيزتي: لماذا
تسمحين لهذا الكونت القزم بالتقرب منك؟ ما الذي يمنعك من
إبعاده عنك وعدم الاستماع إلى ملاطفاته الشائنة؟ في كل الأحوال
لا يمكن لتودده أن يضفي أي شرف على امرأة كريمة مثلك. لماذا
تُخلين الطريق لهذه الإشاعات التي تقرن بين اسمك واسمه؟

نظرتُ إليَّ نادينكا بعينيها الصافيتين، وبدأت أنها تقرأ سيماء الصدق في وجهي، وابتسمت بسرور، وسألتني:

- ماذا يقولون؟

- يقولون إن والدك يود أن يصطاد الكونت عريسًا لك، وإن الكونت يجرُّ قدمك وحسب.

تنهدت نادينكا قائلة:

- إنهم لا يعرفون الكونت، ولذلك يتحدثون عنه بتلك الطريقة. إشاعات وقحة. لقد اعتادوا رؤية الجانب السيئ في الناس وحسب. الخير يفوق فهمهم!

- وهل وجدت فيه خيرًا؟

- نعم وجدتُ. كان يجب أن تكون أول المتيقنين من أنني لم أكن لأسمح له بالاقتراب مني لو لم أكن واثقة من نواياه الشريفة. سألت مندهشًا:

- هل الأمر وصل سريعًا إلى «نواياه الشريفة»؟ وما هي نواياه الشريفة؟

سألتني بعينين لامعتين:

- أتريد أن تعرف؟ الإشاعات لا تكذب. أنا أريد الزواج منه! لا ترسم سيماء الدهشة على وجهك ولا تضحك! ستقول إن الزواج من دون حب أمر شائن وما إلى ذلك مما قد قيل سابقًا ألف مرة، ولكن... ماذا بوسعي أن أفعل؟ أمر شديد الصعوبة

أن تشعر بنفسك في هذا العالم كقطعة أثاث إضافية لا حاجة لها. أمر مخيف أن تحيا دون هدف. عندما يتزوجني ذلك الرجل الذي تكرهه إلى هذا الحد، سيكون لديّ هدف. سوف أقوّمه، وأجعله يتوقف عن الشرب، ويبدأ العمل... انظر إليه! إنه الآن لا يشبه إنساناً، لكنني سأجعله إنساناً.

- إلخ إلخ... سوف تعتنين بأملاكه الهائلة، وتقومين بأعمال خيرية، وسوف تُمجدّكِ الضيعة بأكملها وترى فيكِ ملاكاً قد أرسل لجبر خواطر البائسين... سوف تكونين أمّاً، وتربّين أبناءه... نعم، إنه عمل عظيم حقاً! هل يُعقل أن تكوني فتاة ذكية، وفي الوقت نفسه تفكرين بعقلية طالب جيمنازيا؟!

- قد تكون فكرتي غير مناسبة، وقد تكون مُضحكة وساذجة، لكنني أحيا بها. أصبحتُ معافاة وسعيدة بسببها، فلا تحرّرني من هذا الوهم رجاء! ربما سأحرّر نفسي بنفسي، ولكن ليس الآن، بل في وقت ما... في المستقبل البعيد. كفانا من هذا الحديث!

- لا يزال لديّ سؤال أرعن آخر: هل تتوقعين أنه سيتقدم لطلب يدك؟

- نعم. استناداً إلى جوابه الصغير الذي استلمته منه اليوم، سيتحدد مصيري مساء اليوم. يذكر أن لديه أمراً مهماً يريد أن يحدثني عنه، وأنه بناءً على إجابتي تعتمد سعادته طوال أيام حياته.

- شكراً على صراحتكِ.

كانت فكرة الخطاب الصغير الذي وصل إلى نادينكا واضحة بالنسبة لي. ثمة طلب شائن في انتظار الفتاة المسكينة. قرّرت أن أخلصها منه.

قال الكونت، وقد لحق بعربتنا:

- وصلنا إلى غابتنا بالفعل. ألا ترغيبين يا ناديجدا نيكولايفنا في أن نقيم مخيمنا هنا؟

لم ينتظر إجابتها، وصَفَّقَ أمرًا بصوت تينور مرتجف مرتفع:

- تخيبيهم!

أقمنا عند حدود الغابة. توارت الشمس خلف الأشجار، وقد طلّت قمم أعلى أشجار جار الماء وحسب بلون أورجواني ذهبي، وداعت أشعتها الصليب الذهبي لكنيسة الكونت التي كان بالإمكان رؤيتها من على بعد. غَقَّتْ^(٧١) الصقور فوق رؤوسنا، وغرّدت الطيور. أطلق أحد الرجال نارا، فازداد انزعاج مملكة الريش! تعالت أصوات حفل طيور موسيقي يتعذر كبحه! يكتسب هذا الحفل روعة في الربيع والصيف، ولكن عندما تلوح نُذُر اقتراب الخريف البارد في الأجواء، يُوتّر الأعصاب، ويُذكّر بالهجرة الوشيكة.

انتقلت إلينا برودة المساء من الغابة الكثيفة. ازرقّت أنوف السيدات، وأخذ الكونت المقشعر يفرك يديه. في مثل هذه الظروف لا يكون هناك ما هو أنسب من رائحة دخان بخار السماور وجلجلة فنجان الشاي.

(٧١) الغقيق: صوت الصقر الرقيق.

جذب كوزما الأعور صندوق الكونياك لاهثاً متعباً على امتداد العشب الواسع. بدأنا نشعر بالدفء.

تفتح النزهة الطويلة في الهواء المنعش البارد الشهية أكثر من أي مشهيات أخرى. بعدها جاء دور سمك الحفش المملح والكافيار وطيور الحجل المشوية وأطعمة أخرى تداعب الأبصار، كالزهور في صباح ربيعي مبكر. قلتُ للكونت، أثناء تناولي لقطعة من سمك الحفش المملح:

- أنت اليوم ذكي، بل أكثر ذكاءً من أي وقت مضى. يصعب ترتيب الأمور بصورة أفضل من ذلك.

- لقد رتبنا الأمر معاً، أنا والكونت.

قال كالينين ذلك ضاحكاً، غامزاً للحوزية الذين انخرطوا في جر أكياس المقبلات من العربات، والخمر والأوعية. أكمل:

- ستكون نزهة رائعة. بانتهاء الشمبانيا سوف...

شعّ وجه قاضي الصلح تلك المرة بالرضى، أكثر من أي وقت مضى. ولماذا لا، ألم يظن أن ابنته نادينكا سوف تتلقى اليوم عرضاً بالزواج؟ ألم يعد الشمبانيا خصيصاً ليهنئ الشابين؟ أمعنتُ النظر في سيماء وجهه، ولكن كالعادة لم أقرأ فيها شيئاً سوى رضى أرعن وتخمة وإحساس غبي بالأهمية ينسكب في كافة أجزاء جسده الصلب.

أقبلنا بسرور على المقبّلات. شخصان وحسب لم يُقبلا على هذا الطعام المترف الموجود على السجاجيد المفروشة أمامنا: أولجا ونادينكا

نيكولايفنا. تنحّت الأولى جانباً، واستندتْ إلى مؤخرة العربة، تنظر في صمت إلى جراب الصيد الذي ألقاه الكونت على الأرض. كان يرتعش فيه طائر زمار الرمل الجريح. راقبتْ أولجا حركة الطائر البائس كأنها تنتظر موته. جلستْ ناديا بجواري، ونظرتْ بانشداه إلى الأفواه التي تلتهم الطعام بسرور. قالتْ بعينين منهكتين:

- متى ينتهي كل ذلك؟

قدّمتْ إليها شطيرة كافيار. شكرتني ونحّتها جانباً. من الواضح أنها لم تكن راغبة في تناول شيء. صاح الكونت في أولجا:

- أولجا نيكولايفنا! لماذا لا تجلسين معنا؟

لم تجبه أولجا، وظلت واقفة ساكنة كتمثال، تنظر إلى الطائر. قلتُ مقترّباً من أولجا:

- كم تبلغ وحشية البعض! هل يمكن لكِ كامرأة أن تتألمي بلا مبالاة عذابات طائر زمار الرمل؟ يمكنكِ أن تُنهي معاناته بدلاً من مشاهدته وهو يتلوى ألماً.

أجابت أولجا بوجه عابس دون أن تنظر إليّ:

- آخرون يعانون، فدعه يعاني هو الآخر.

- مَنْ يتعذب؟

صاحت:

- دعني لحالي. لستُ في حالة مزاجية اليوم تسمح لي بالتحدث معك ولا مع الكونت الأحمق! اغربّ عن وجهي!

صاحتُ فيَّ بعينين مليئتين بالضغينة والدموع. شحب وجهها
وارتعشت شفتاها.

قلتُ بينما أرفع جراب الصياد وأنهى أمر الطائر:

- يا له من تغيير! يا لها من لهجة! أنا مندهش... مندهش فعلاً!

- دعني لحالي، أقول لك لست قادرة على المزاح!

- ماذا بك يا عزيزتي؟

نظرتُ أولجاً إليَّ شذراً، وابتعدتُ عني. قالتُ:

- يتحدثون بهذه اللهجة مع نساء الهوى المنحلات! تعتبرني

واحدة من تلك الـ... حسنًا، يمكنك الذهاب إلى تلك النساء

القديسات! أنا هنا أسوأ الجميع وأنذلهم. أثناء ركوبك العربة

مع نادينكا الصالحة، خشيتُ أن تنظر إليَّ. حسنًا... اذهب إليها!

ماذا تنتظر؟ اذهب إليها!

قلتُ لها، شاعرًا بغضب يتملكني أكثر فأكثر:

- نعم، أنتِ هنا أسوأ الجميع وأنذلهم... نعم، أنتِ امرأة هوى

منحلة.

- نعم، أتذكر كيف عرضتَ عليَّ مالك اللعين. لم أفهم حينها

معنى الأمر، والآن أفهم.

تملَّك الغضب كياني كاملاً. كان غضبًا قويًا، كالحب الذي نشأ

بداخلي يومًا ما تجاه الفتاة ذات الرداء الأحمر. حتى الحجر لم يكن

بإمكانه أن يظل غير مبالي. رأيتُ أمامي جمالاً لطخه القدر القاسي

بالوحد. لم يرحم الشباب ولا الجمال ولا السمو. عندما بدت لي تلك المرأة رائعة الآن أكثر من أي وقت مضى، شعرتُ بحجم الخسارة التي جلبتها الطبيعة لوجهها، ولمستُ عذاب الكراهية المعتلجة داخل روحي التي جلبها ظلم القدر .

لا يمكنني تمالك نفسي في لحظات الغضب. لم أعرف ماذا كان يمكن أن أقوله أيضًا لأولجا لولا أنها أدارت لي ظهرها وتركتني. توجهتُ بهدوء صوب الأشجار، وسرعان ما توارت خلفها. بدا لي أنها انخرطت في البكاء.

سمعتُ كالينين يقول:

- أيها السادة والسيدات الأعزاء. في هذا اليوم الذي اجتمعنا فيه من أجل أن... من أجل أن نجتمع... جميعنا هنا معًا، نعرف بعضنا جميعًا، والجميع مبتهجون. نحن مدينون بهذه الصحبة لشخص واحد وحسب؛ نجم مقاطعتنا المنير... إنه أنت أيها الكونت، لا تخجل. تفهم السيدات عمن أتحدث... ههههه... لكنني سأواصل حديثي. إننا مدينون بذلك لشابنا المتنور الكونت كارنييف، لذا أقترح أن نشرب نخبًا... لكن شخصًا ما قادم... من هو؟

كانت عربة تهتز، آتية من ضيعة الكونت تجاهنا.

تساءل الكونت متعجبًا:

- من يمكن أن يكون ذلك؟

ونظر إلى المركبة عبر منظاره المكبر.

- اممم... أمر غريب! لا بد أنهم بعض العابرين... آه، لا! أرى

كائتان كازيميروفيتش، ولكن من بصحبته؟

قفز الكونت فجأة من مكانه كالمصعوق. اكتسى وجهه بشحوب مميت، وارتعش المنظار المكبر في يده. غاصت عيناه في محجريهما، كفأر قد أُمسك به، وتوجهتا تارة صوبي، وتارة أخرى صوب ناديا، كأنه يستغيث بنا. لم يلحظ الجميع اضطرابه؛ لأن انتباه الغالبية كان موجهاً صوب العربّة المقتربة.

أمسك بيدي وتنحى بي جانباً وهمس:

- سيريوجا! تعال هنا لدقيقة! أتوسل إليك يا عزيزي بصفتك صديقي وواحدًا من أفضل الناس جميعًا... أتوسل إليك دون أن تطرح عليّ أي أسئلة أو نظرات استفهامية أو حتى تعرب عن اندهاشك... سوف أشرح لك كل شيء لاحقًا. أقسم أنني لن أخفي عليك مثقال ذرة من أي سر... إنها كارثة... كارثة في حياتي أنني غير قادر على التعبير عن مرادي بالكلمات. أنت تعرف كل شيء. ساعدني الآن دون أن تطرح سؤالاً واحدًا!

في غضون ذلك كانت العربّة تزداد اقترابًا... وصلت في النهاية، وانكشف السر الغبي الخاص بالكونت للمقاطعة برمتها. قفز بشيخوتسكي من العربّة مبتسمًا ومتفحّخًا، مرتدياً حلة حريرية جديدة. قفزت خلفه سيدة شابة على نحو أخرج تبليغ حوالي ٢٣ عامًا. كانت طويلة القامة، رشيقة، شقراء، ذات قسمات وجه منتظمة لكن لا تشي

بالتعاطف، وعينين زرقاوين. لا أتذكر سوى هاتين العينين الزرقاوين
الفارغتين من أي تعبير، والأنف المدقوق، والفتان الكبّيب والفخم
في الوقت ذاته، وبعض الأساور الضخمة على معصمها... أتذكر
أن رائحة رطوبة المساء والكونياك المسكوب تراجعَتْ لتفسح مكاناً
لرائحة خارقة لنوع من العطور. تحدثتُ تلك السيدة المجهولة بروسية
ركيكة قاتلة:

- يا لها من صحبة كبيرة! لا بد أن الأمر يبعث على السرور. كيف
حالك يا ألكسيس؟

واقتربتُ من ألكسيس، وقدّمت إليه وجتها. قبلها الكونت سريعاً،
ناظراً إلى إلى ضيوفه بقلق. تمتم قائلاً:

- أقدم لكم زوجتي، وهؤلاء أصدقائي يا سوزيا... امم.. عفواً، أنا
مصاب ببعض السعال.

- وصلتُ لتوي. نصحني كائتان بالراحة، لكنني قلتُ له إنني لست
في حاجة إلى الراحة؛ لأنني نمْتُ طوال الطريق. الأفضل أن
أذهب للصيد. ارتديت ثيابي وجئتُ... كائتان، أين سجايري؟
هب بشيخوتسكي وقدّم للشقراء علبة سجاير ذهبية. واصل
الكونت تمتمته، مشيراً إلى بشيخوتسكي:

- وهذا شقيق زوجتي.

ثم دفعني من عند مرفقي قائلاً:

- ساعدني... ساعدني بحق الله!

يُقال إن كالينين قد أصابه السوء، وإن ناديا أرادت أن تساعد، لكنها لم تستطع النهوض من مكانها. يُقال إن الكثيرين أسرعوا باتخاذ أماكنهم في عرباتهم، ورحلوا. لم أرَ كل ذلك. أتذكر أنني ذهبت إلى الغابة، وتركت قدمي تقوداني بحثًا عن الطريق، دون أن أنظر أمامي^(٧٢).



عندما خرجتُ من الغابة وجدتُ الطين عالقًا بقدمي، وقد تلطختُ بالأوساخ تمامًا. من المحتمل أنني اضطررت إلى القفز فوق بعض الجداول الصغيرة، لكنني لا أتذكر تلك الملابس. شعرتُ كأني قد تعرضت لضرب شديد بالعصي، إلى حد أنني شعرتُ بالضعف والإنهاك الشديدين. كان عليّ التوجه إلى ضيعة الكونت، واصطحاب زوركا والعودة. لكنني لم أفعل ذلك، بل عدتُ إلى المنزل سيرًا. لم أكن في حالة تسمح لي برؤية الكونت أو ضيعته اللعينة^(٧٣).



امتد طريقي بطول شاطئ البحيرة. كان وحش البحيرة قد بدأ بالفعل في هدير أغنيته المسائية. غمرت موجات عالية بأكاليل بيضاء سطحها العملاق. علق بالهواء طنين وهدير. اخترقت عظامي ريح رطبة باردة.

(٧٢) في هذا الموضع من مخطوط كاميشيف تم شطب ١٤٠ سطرًا. (أنطون تشيخوف).
(٧٣) في هذا الموضع من المخطوطة وجدت وجهًا أنثويًا جميلًا مرسومًا بالحرير، لكنه مشوه من فرط الهلع. كل المكتوب تحته تم شطبه تمامًا. تم شطب النصف العلوي من الصفحة القادمة كذلك، ولم يكن بوسعي تبين أي كلمة عبر هذا الشطب الشديد سوى «صدغ». (أنطون تشيخوف).

كانت البحيرة الغاضبة على يساري، وعلى يميني يتعالى ضجيج رتيب للغابة القاسية. شعرتُ أنني أواجه الطبيعة وجهًا لوجه. بدا لي أن كل هذا الغضب والضجيج والعجيج موجّه لرأسي وحسب. في ظروف أخرى ربما كنتُ لأشعر بالخوف، لكني الآن لم أُلحظ الجابرة المحيطين بي إلا بصعوبة. ماذا يمكن أن يشكل غضب الطبيعة أمام تلك العواصف المعتلجة بداخلي؟ (٧٤).



عندما وصلتُ إلى المنزل، تهاويت على الفراش دون أن أُغيّر ثيابي. دمدم بوليكارب، وهو يخلع عني ثيابي المبتلة المتسخة:

- نزل البحيرة بثيابه مجددًا دون أدنى شعور بالحياء! يعاقبني مجددًا. مرة أخرى نجد النيل والمثقف في حالة أسوأ من منظم المداخن. لا أعرف ماذا علّموكم تحديدًا في الجامعات.

لم أكن قادرًا على احتمال صوت أو وجه إنسانين، وأردتُ أن أصرخ في بوليكارب حتى يدعني لحالي، لكن الكلمة علقّت بحلقتي. بدا كأن لساني قد أنْهك وضعف تمامًا ببقية أجزاء جسدي. عذّبني ذلك بشدة، لكنني اضطررت إلى أن أترك بوليكارب يخلع عني كل شيء، حتى ثيابي الداخلية الرطبة.

دمدم خادمي وهو يُقلّبني من جنب إلى جنب كدمية صغيرة.

- عسى أن يستدير! حسابك معي غدًا! لن أسمح بذلك مجددًا، ولا

(٧٤) هنا كذلك جزء مشطوب. (أنطون تشيخوف).

بأي كمية من المال. لقد اكتفيتُ من ذلك أنا الأحمق. فليأخذني
الشیطان إن بقيت!

لم تدفئني الثياب الداخلية الجديدة ولم تطمئني. استمر ارتعاشي
من الغضب، وكان قويًا إلى حد أن اصطكت أسناني. لم يكن خوفي
مبررًا. لم تُخفني أشباح خرجت من القبور، ولا حتى صورة جدي
الأكبر بوسيلوف المُعلّقة فوق رأسي. لم يُنَحَّ عني عينيه الميتتين،
وبدتا كأنهما تغمزان، لكنني لم أرتجف أبدًا أثناء النظر إليه. لم يكن
مستقبلي ناصعًا، ولكن على كل حال، كان بإمكانني أن أقول بثقة كبيرة
إن شيئًا لا يهددني، وإنه لا توجد بالقرب مني سحببات سوداء. لم يبدُ
أن الموت قريبًا، ولم أكن أعاني من أمراض مريضة، ولم أعلق أي أهمية
على تعاساتي الشخصية. ممّ كنت أخاف إذن؟ ولماذا كانت أسناني
تصطك؟

لم أستطع فهم سبب غضبي. لا يمكن أن يغضبني «سر» الكونت
إلى هذا الحد. لم أكن أبالي بالكونت ولا بزواجه الذي أخفاه عني.
يتبقى هنا أن أوضح حالة روحي إثر الاضطراب العصبي والإنهاك.
هذا الأمر الوحيد الممكن في حالتي.

بخروج بوليكارب، غطيت رأسي ونويت أن أنام. كان المكان مظلمًا
وهادئًا. تحرك البغاء بقلق داخل قفصه، وتناهى إلى سمعي النقر الهادئ
لعقارب الساعة بغرفة بوليكارب، وباستثناء ذلك خيم الهدوء والصمت
تمامًا. لعب الإنهاك الجسدي والروحي دورهما، ونمتُ. شعرتُ كما
لو أن ثقلًا يسقط عني تدريجيًا، وكيف يغطي الضباب الصور الكريهة.

أتذكر حتى أنني بدأت أحلم. حلمتُ أنني كنت أتمشى في صباح شتوي منير في شارع نيفسكي بسان بطرسبرج، وأني أخذت بفعل الفراغ ألقى نظرة على واجهات المحلات. كنت في حالة نفسية جيدة وسعيدة... لم أكن متعجلاً، ولم يكن لديّ شيء لأفعله. كنت في حالة حرية مطلقة. وعيى بأني بعيد عن القرية وضيعة الكونت والبحيرة الباردة الغاضبة زاد من شعوري بالسلام والانسجام. توقفتُ عند أكبر واجهة، وحدثتُ في قبعات نسائية. كانت تلك القبعات مألوفة لي. تعرفت من بينها على قبعة أولجا، ثم تعرفتُ على قبعة ناديا، والثالثة كانت تلك التي رأيته يوم حفلة الصيد على رأس سوزيا الشقراء التي وصلتُ فجأة. رأيتُ تحت هذه القبعات وجوهاً مألوفة لي. عندما أردتُ أن أقول لهن شيئاً ما، تحول ثلاثتهن إلى وجه واحد كبير جميل. حركَ هذا الوجه عينيه بغضب، وأخرج لسانه، ثم بدأ أحدهم يعتصر عنقي من الخلف!

- زوج قتل زوجته!

هكذا صاح الوجه الأحمر. ارتجفتُ وصرختُ مصعوقاً، وقفزتُ من فراشي. كان قلبي يخفق بعنف، وشعرت بعرق بارد على جبھتي.

- زوج قتل زوجته!

كرر البغواء صيحته، وأكمل:

- أعطني سكرًا! كم أنت غبي وأحمق!

استلقيت على الفراش وهدأتُ نفسي قائلاً:

- هذا مجرد ببغاء... حمدًا لله!

سمعت دمدمة رتيبة. كانت قطرات المطر تقرع السطح. السحب التي رأيتها في الغرب أثناء سيرى على شاطئ البحيرة، صارت تملأ صفحة السماء بأكملها الآن. أبرقت السماء بوهن وأنارت وجه المرحوم بوسيلوف، وهدر الرعد فوق رأسي. قلتُ في نفسي: «إنها العاصفة الرعدية الأخيرة في هذا الصيف»!

تذكرتُ واحدة من أوائل تلك العواصف الرعدية. كان الرعد ذاته الذي أرعد في الغابة عندما ذهبتُ إلى كوخ حارس الغابة للمرة الأولى. وقفتُ حينها بصحبة الفتاة ذات الرداء الأحمر عند النافذة، ونظرنا إلى أشجار الصنوبر التي أضاءها البرق. لاح الخوف في عيني هذا المخلوق الرائع! قالتُ لي إن البرق قتل أمها، وإنها هي نفسها تتوق إلى ميتة مؤثرة. أرادت أن ترتدي الثياب التي ترتديها السيدات الأرستقراطيات بالمقاطعة. أدركتُ أن الثياب المترفة تلائم جمالها. كانت تدرك جمالها المادي، تفخر به، ولذلك أرادت أن تصعد فوق المقبرة الحجرية، وتموت هناك ميتة مؤثرة.

حلمتُ أن.... بالرغم من أن الحجري... (٧٥).

بفقداني كل أمل في النوم، نهضتُ وجلست على الفراش. تحولت دمدمة المطر الهادئة تدريجيًا إلى ضجيج غاضب، كنت أحبه كثيرًا عندما كانت روعي خالية من الخوف والضغينة... بدا لي هذا الضجيج مشؤومًا. تتبععت ضربات الرعد. صاح الببغاء:

(٧٥) هنا صفحة كاملة مشطوبة تمامًا. لم ألتقط منها سوى بضع كلمات لا تقدم أي مفتاح لفهم ما تم شطبه. (أنطون تشيخوف).

- زوج قتل زوجته!

كانت هذه هي عبارته الأخيرة... أغلقتُ عينيّ، شاعرًا بخوف
رعديد، وتلمستُ طريقي إلى القفص، وألقيته إلى الركن. صحتُ بينما
أستمع لصوت القفص وأشخوب^(٧٦) الببغاء:

- عليك اللعنة!

يا للطائر النبيل المسكين! هذه الرمية إلى الركن كلّفته الكثير. في
اليوم التالي احتوى قفصه على جثمان بارد. ما الذي دعاني إلى قتله؟ لو
كان السبب هو أن عبارته عن الزوج الذي قتل زوجته تذكّرني ب...^(٧٧).

عندما تنازلت الجدة الكبرى بوسيلوفا عن تلك الشقة لي، جعلتني
أدفع لها مقابل كل شيء فيها، حتى صور الأقرباء المعلقة على الحوائط،
لكنها لم تأخذ مني كوبيكًا واحدًا مقابل هذا الببغاء الغالي! قضتُ عشية
رحيلها إلى فنلندا في وداع هذا الطائر النبيل. أتذكر بكاءها ونواحها
أثناء هذا الوداع. أتذكر دموعها وهي تطلب مني أن أرى صديقها
حتى تعود. وعدتها أنها لن تندم على تركها هذا الببغاء لديّ. لم أحفظ
وعدي. قتلتُ الطائر. أحاول تخيل ماذا كانت العجوز ستقول لو أنها
عرفت مقدمًا مصير طائرها الثرثار!

قرع أحدهم زجاج نافذتي. كان منزلي الصغير الذي أعيش فيه

(٧٦) الأشخوب: هو صوت الببغاء.

(٧٧) موضع مشطوب آخر للأسف. من الملاحظ أن كاميشيف لم يشطب تلك المواضع أثناء
عملية الكتابة، ولكن بعدها بفترة... في نهاية الرواية سأولي هذه المواضع المشطوبة اهتمامًا
خاصًا. (أنطون تشيخوف).

موجودًا على الطريق، وهو واحد من أبعد المنازل بالمنطقة. نادرًا ما كنتُ أستمع إلى صوت قرع على نافذتي، خاصة في جو سيئ كذلك يبحث فيه الناس عن مأوى. في تلك المرة لم يكن بعض العابرين هم من قرعوا على نافذتي. اقتربتُ من النافذة، وانتظرت أن ينعكس عليها البرق. رأيتُ طيف إنسان طويل القامة، نحيل. واقف أمام النافذة، وبدا أنه يرتجف من فرط البرودة. فتحتُ النافذة وسألتُ:

– من هناك؟ ماذا تريد؟

– سيرجيه بتروفيتش... هذا أنا! هذا أنا! لقد جئتُك يا عزيزي.

سمعتُ صوتًا حزينًا، كذلك الذي يتحدث به الناس المرتجفون من فرط البرودة والخائفون.

اندهشت دهشة عظيمة عندما أدركت أن هذا الصوت الحزين الذي لذلك الطيف المظلم هو صوت صديقي الطبيب بافل إيفانوفيتش. لم أستطع فهم سبب زيارة «العفريت» الذي يحيا حياة منظمة، وينام قبل حلول الساعة الثانية عشرة. ما الذي أجبره على تغيير قواعده وزيارتي في الساعة الثانية بعد منتصف الليل في مثل هذا الطقس المريع؟

في أعماق روحي كنت أقول: اللعنة على هذا الضيف غير المتوقع، لكنني سألته:

– ماذا تريد؟

– عذرًا يا عزيزي، أردتُ أن أقرع الباب، لكن لا بد أن خادمك بوليكارب نائم الآن كالقتيل، لذا قرّرت أن أقرع زجاج النافذة.

- حسنًا، ولكن ماذا تريد؟

ازداد بافل إيفانيتش اقترابًا من نافذتي، وتمتم بأمر ما غير مفهوم.
كان يرتعش ويسير كمثل. قلتُ له بنفاد صبر:
- أنا أسمعك.

- أنت... أنت... أرى أنك غاضب، ولكن لو... لو عرفتَ كل ما
حدث، لما غضبتَ من تفاهات من قبيل أن يُقلق أحدهم نومك
أو يزورك في وقت غير مناسب، ولكن نم الآن! آه يا إلهي!
عشت ثلاثين عامًا في هذا العالم، ولأول مرة اليوم أشعر بمثل
هذه التعاسة! أنا تعيس يا سيرجيه بتروفيتش!

- ماذا حدث؟ وما علاقتي بالأمر؟ أقف على قدميَّ بصعوبة بالغة.
لست في حالة تسمح لي بالاهتمام بشؤون الآخرين الآن.
تحدث «العفريت» بصوت باكٍ، ماذًا يده المبللة عبر النافذة إلى
وجهي العرق:

- سيرجيه بتروفيتش! أنت إنسان شريف يا صديقي.

قلتُ له بعد برهة من الصمت:

- بافل إيفانيتش، عُد إلى منزلك الآن. لا يسعني التحدث معك.
أخشى حالتي المزاجية الآن، وكذلك حالتك. لن نفهم بعضنا
البعض الآن.

تحدّث الطبيب بنبرة متوسلة:

- يا عزيزي! تزوجها!

قلتُ بينما أغلق النافذة:

- لقد جنت!

كان الطبيب هو الضحية الثانية لحالتي المزاجية بعد البيغاء. لم أدعه إلى الدخول وأغلقت النافذة أمام أنفه. ارتكبت عمليين فجين طائشين، لو ارتكبهما شخص معي لدعوته إلى مبارزة، حتى لو كانت امرأة^(٧٨)، لكن العفريت المحب المتواضع لم يكن يعرف مثل هذه المبارزات. لم يكن يدرك ماذا يعني أن يغضب المرء.

أبرقت بعدها بدقيقتين تقريباً، وألقيت نظرة على النافذة؛ فرأيتُ طيف ضيفي المحني. بدتُ وقفته تلك المرة متوسلة مترقبة، كوقفة متسول في انتظار صدقة. ربما كان في انتظار أن أدعوه، وأسمح له بالتحدث.

لحسن الحظ وخزني ضميري. شعرتُ بالأسف من أن الطبيعة قد جعلتني بهذه القسوة والندالة! كانت روعي الدينية صلبة كالحجر، كحال جسدي...^(٧٩) اقتربتُ من النافذة وفتحتها، وقلتُ:

- ادخل إلى الغرفة!

- ليس لديّ وقت... كل دقيقة ثمينة. لقد سممتُ ناديا المسكينة

(٧٨) الجملة الأخيرة مكتوبة فوق شطب استطعت تبين الآتي منه: لخلعت رأسه من فوق كتفيه وكسرت النافذة تماماً. (أنطون تشيخوف).

(٧٩) يلي هذا الجزء تفسير متكلف لقدرة المؤلف النفسية على الاحتمال. مرأى الأحران الإنسانية والدماء والجثث المُشرّحة وما إلى ذلك لا يؤثر عليه بتاتاً. وشى هذا الموضع بسذاجة مختلة ونفاق. إنه موضع ملفت للنظر من فرط فظاظته، لذا تجاوزته، وليست له أهمية في وصف كاميشيف. (أنطون تشيخوف).

نفسها، ولا يمكن للطبيب أن يفارقها. استطعنا بصعوبة بالغة أن
ننقذها. أليست بلية؟ وتريد مع كل ذلك ألا تستمع إليّ، وتغلق
النافذة أيضًا؟

- إنها لا تزال حية، أليس كذلك؟

- تقول: لا تزال؟ لا نتحدث بهذه اللهجة عن البلايا يا صديقي
الطيب. من كان بإمكانه أن يتصور أن تفكر هذه الفتاة ذات
الطبيعة الذكية الشريفة في مفارقة هذه الحياة بسبب شخصية
كالكونت؟ لا، يا صديقي... لسوء حظ الناس، لا يمكن للنساء
أن تتحلّى بالكمال! بغض النظر عن مدى ذكاء المرأة، ومدى
كمالها وموهبتها، ستجد دائمًا مسمارًا بداخلها يمنعها هي
والآخرين عن العيش! فلنأخذ نادية مثالًا، ولكن لماذا فعلت
ذلك؟ إنها الكبرياء... الكبرياء... كبرياء مَرَضِيَّة! أرادت أن
تنخسنا، ففكرت في الزواج من الكونت. لم تكن في حاجة إلى
ماله أو نبالته، بل كانت في حاجة إلى شيء واحد؛ أن ترضي
كبرياءها المشوهة، ثم يفشل الأمر فجأة! أنت تعرف عن وصول
زوجته. تبين أن هذا المنحل متزوج. يُقال أيضًا إن النساء يتمتعن
بقدره على التحمل أكبر من الرجال! لكن أين هو ذلك الاحتمال
إن استطاع سبب بائس كذلك أن يُجبر امرأة على اللجوء إلى
علبة الكبريت؟ ذلك ليس احتمالًا، بل اختيال.

- لقد أُصِبتُ بالبرد.

- ما رأيته لتوي أسوأ من أي برد. آه من هاتين العينين وهذا الشحوب! بالإضافة إلى الفشل في الحب، ومحاولتي الفاشلة في إيلامك، لدي الآن أيضًا محاولة انتحار فاشلة! يصعب أن أتصور بلية أصعب من تلك. يا عزيزي، لو كانت لا تزال لديك قطرة من الرحمة... لو... لو رأيته... حسنًا، لماذا لا تذهب إليها؟ كنت تحبها! حتى لو كنت قد توقفت عن حبها، لماذا لا تضحي بوقتك من أجلها؟ الحياة الإنسانية ثمينة، وتستحق أن نضحي من أجلها ب... بكل شيء! أنقذ حياة!

قرع أحدهم على بابي بقوة. ارتجفت. نzf قلبي! لا أو من بنذر الشؤم، لكن قلقي في هذه المرة لم يكن عبثًا. أحدهم في الشارع يقرع بابي. صرخت من النافذة:

- من هناك؟

- أستمح عذركم!

- ماذا تريد؟

- خطاب من الكونت لسعادتكم. حدثت جريمة قتل.

رأيتُ طيفًا مظلمًا، يرتدي معطفًا من صوف الخرفان، وقد اقترب من النافذة، مدمدمًا بأمر ما عن الطقس، وقدم إليّ خطابًا. ابتعدت فورًا عن النافذة، وأشعلت شمعة، وقرأتُ الآتي:

«انس كل شيء بحق الله وتعال حاليًا. لقد قُتلت أولجا. لقد فقدت عقلي، وسأجن قريبًا». المخلص إليك أ. ك.

قُتِلت أولجاً! أدارت هذه العبارة القصيرة رأسي وغشيَ الظلام عينيَّ. جلستُ على الفراش، غير قادر على التفكير وسقطتُ يداي. سمعتُ صوت الفلاح الرسول:

- أهذا أنت يا بافل إيفانيتش؟ كنت سأذهب إليك حالاً، فهناك خطاب لك.

في غضون خمس دقائق كنت أنا والعفريت جالسين داخل العربة، في طريقنا إلى ضيعة الكونت. قرعت قطرات المطر سقف العربة، ولاح أمام أعيننا وميض البرق الذي يعمي الأبصار. تعالي صخب البحيرة...

بدأ الفصل الأخير من المسرحية، واثنان من شخصياتها الرئيسة في طريقهما إلى رؤية مشهد مروع. في الطريق سألتُ بافل إيفانيتش:

- ماذا تظن أنه سيكون في انتظارنا؟

- لا يمكنني تخيل شيء... لا أعرف.

- وأنا أيضاً لا أعرف.

- أسفَ هاملت يوماً ما على أن سيد الأرض والسماء قد حرّم خطية الانتحار، وكذلك أسفَ أنا الآن على أن المصير جعلني طبيباً. أشعر بأسف عميق.

- أخشى أن عليّ بدوري أن أشعر بالأسف على أنني صرتُ محققاً قضائياً. إن لم يكن الكونت قد خلط بين الانتحار والقتل، وإن كانت أولجاً قد قُتلت فعلاً، سيقضي الأمر على أعصابي البائسة.

- يمكنك التنحي عن هذه القضية.

نظرت باستفهام إلى بافل إيفانيتش، ولم أر شيئاً بالطبع بسبب الظلام. كيف عرف أن بإمكانني التنحي عن القضية؟ كنت عشيئاً لأولجا، ولكن من الذي عرف ذلك باستثناء أولجا نفسها، وربما بشيخوتسكي كذلك الذي لقاني ذات مرة بالتصفيق؟

سألت العفريت:

- لماذا تظن أن بإمكانني التنحي عن القضية؟

- يمكنك أن تطلب إجازة مرضية أو تتقدم باستقالتك. لن يجلب لك ذلك العار بأي حال من الأحوال، لأن هناك من سيحل محلّك، بينما يجد الطبيب نفسه في ظروف مختلفة تماماً.

تساءلتُ بداخلي «أذلك وحسب؟».

بعد طريق طويل مُهلك على أرض طينية، توقفتُ العربة أخيراً عند الشرفة الخارجية. كانت هناك نافذتان مضيئتان فوق الشرفة الخارجية. لاح ضوء ضعيف من الأولى: غرفة نوم أولجا. بدت بقية النوافذ كنقاط معتمة. التقتُ بنا على السلم العجوز الشمطاء. نظرتُ إليَّ بعينيها الجاحظتين، وازداد وجهها عبوساً على إثر ابتسامة ساخرة شريرة. بدت عيناها تقولان: «سوف تجد مفاجأة في انتظارك!».

ربما ظنت أننا جئنا لنلهو، وأننا لم نعرف المصيبة التي ألّمت بالمنزل. قلتُ لبافل إيفانوفيتش، مُزيلاً غطاء رأس العجوز لأكشف عن رأس أصلع تماماً:

- دعني أجذب انتباهك. هذه الشمطاء في التسعين من عمرها!
إن توجب علينا يومًا ما أن نُحلّل هذه الشخصية، لوصلنا إلى
استنتاجات مختلفة تمامًا. كنت ستجد فيها عقلاً ضامراً خرقاً،
بينما كنت سأؤكد لك أن هذه العجوز هي أذكى وأخبث شخصية
في مقاطعتنا بأكملها؛ إنها شيطان يرتدي تنورة!

عندما دخلتُ إلى الردهة صُعِقت. رأيت مشهداً مفاجئاً تمامًا. كانت
كافة المقاعد والأرائك مشغولة بالناس. وقفتُ كذلك بعض المجموعات
في الأركان عند النوافذ. من أين جاء كل ذلك الحشد؟ لو قال لي أحدهم
مسبقاً أنني سألتقي هنا بهؤلاء الناس لانفجرت ضحكاً. إلى ذلك الحد لم
يكن من المتوقع أبداً التنبؤ مسبقاً بحضور ذلك الجمع في منزل الكونت
في الوقت الذي يمكن أن يكون جثمان أولجا ساجياً في إحدى الغرف.
كان ذلك الحشد عبارة عن جوقة غجرية برئاسة كاربوف من مطعم
«لندن»... الجوقة ذاتها التي تعرف عليها القارئ في الفصول الأولى من
هذا الكتاب. عندما دخلتُ المكان، تركتُ تينا صديقتي القديمة إحدى
هذه المجموعات، وقد تعرفتُ عليَّ وصاحت بسرور. ارتسمت ابتسامة
على وجهها الشاحب الباهت عندما قدمتُ إليها يدي، ولاحت الدموع
في عينيها عندما أرادت أن تقول شيئاً لي. منعتها الدموع من التحدث،
ولم أفز منها بكلمة واحدة. توجهتُ إلى بقية الغجر، ووضحوا لي سبب
حضورهم بالآتي: أرسل الكونت برقية إليهم في المدينة، طالباً أن
تأتي الجوقة بكل أفرادها إلى ضيعته في التاسعة مساءً. انصاعوا لأمره،
واستقلوا القطار ووصلوا إلى هذه الردهة في الثامنة.

- حلمنا أن نجلب السرور لسعادته وبقية الضيوف، فنحن نعرف أغانيَ جديدة كثيرة. وفجأة...

- وفجأة وصل إلينا فلاح على صهوة جواده حاملاً خبر حدوث جريمة قتل وحشية أثناء حفلة صيد، وأمرنا أن نعد فراشاً لأولجا نيكولايفنا. لم نصدق الفلاح؛ لأنه كان ثملاً وبدا كخنزير، ولكن حينما سمعنا ضجيجاً على السلم، ورأيناهم قد جلبوا عبر الردهة جثماناً قاتماً، لم يعد هناك مجال للشك.

- ونحن لا نعرف الآن ما العمل. يستحيل علينا أن نبقي هنا. لو جاء الكاهن يتوجب على الحشد المسرور الانصراف. بالإضافة إلى ذلك المغنيات منزعات ومنخرطات في البكاء. إنهن غير قادرات على المكوث في المنزل الساجي فيه جثمان المرحومة. علينا أن نرحل، لكنهم لا يريدون أن يعطونا جياداً. سيدي الكونت مستلقٍ مريضاً، ولا يسمحون بدخول أحد إليه، وعندما نطلب جياداً من الخادم يجيبنا بسخرية.. لا يمكننا الذهاب سيراً في مثل هذا الطقس وهذه الليلة المظلمة! الخادم بشكل عام شديد الفظاظة. عنما طلبنا سماور قال: اذهبوا إلى الجحيم!

انتهت كل هذه الشكاوى بمناشدة شهامتي بالدموع أن ألتمس من أجلهم بعض العربات حتى يتمكنوا من مغادرة منزل المرحومة. قلتُ:
- إن كانت الجياد موجودة بالإسطبل والحوزة متوفرين، سأجعلكم ترحلون حالاً. سوف أصدر أمري.

بدا هؤلاء البؤساء، بشبابهم الشبيهة بشباب مهرجين، الذين اعتادوا المغازلة بأساليبهم الفاجرة، في وضع أخرق بهذه الملامح النامة عن ضعف شديد ووقفات متململة. تحسن حالهم قليلاً عندما وعدتهم بإرسالهم إلى المحطة. تحول همس الرجال إلى حديث واضح، وتوقفت النساء عن البكاء.

ذهبت بعد ذلك إلى غرفة الكونت، مروراً بمجموعة من الغرف المظلمة. لمحتُ عبر أحد الأبواب مشهداً مؤثراً. كانت سوزيا وأخوها جالسين إلى الطاولة بالقرب من السماور الصاخب. ارتدت سوزيا بلوذة خفيفة، ولكنها ارتدت كافة أساورها وخواتمها، وكانت تشتم الزجاجة، فتضعف وتشرب من كأسها باشمئزاز. كانت عيناها باكيتين. ربما حادث حفلة الصيد قد وتر أعصابها بشدة، وأفسد حالتها المعنوية لفترة طويلة. أما بشيخوتسكي فبدا بنفس الوجه الخشبي الذي بدا به سابقاً، وكان يرفع الفنجان من صحنه، ويرتشف رشقات كبيرة منه، ويقول شيئاً ما لشقيقته. بناءً على تعبير الناصح المرشد المرسوم على وجهه وسلوكه سنقول إنه كان يحاول تهدئة شقيقته وإقناعها بالتوقف عن البكاء.

وجدتُ الكونت نفسه بالطبع في حالة عصبية سيئة تماماً. بدا بليداً مريضاً، وقد ازداد نحافة بوجه غائر العظام أكثر من السابق. كان شاحباً، شفتاه ترتعشان كما لو أنه محموم. كان رأسه مربوطاً بمنديل أبيض فاتح منه رائحة خل لاذعة في الغرفة بأكملها. عندما دخلتُ نهض سريعاً من على الأريكة التي كان مستلقياً عليها، وثني حاشية مبدله،

واندفع صوبي. بدأ حديثه بصوت مرتعش مخنوق:

- آآه... ماذا؟

أصدر عدة أصوات غير مفهومة، وجذبني من يديّ إلى الأريكة. انتظر حتى جلستُ، واقترب مني ككلب صغير خائف، وبدأ يريق شكواه:

- مَنْ كان يتوقع ذلك؟ آآه! لحظة يا عزيزي، سوف أتدثر بالبطانية. أنا مُصاب بالبرد. قُتِلت المسكينة! قُتِلت بوحشية! إنها لا تزال حية، لكن الطبيب القروي قال إنها سوف تموت الليلة. يوم مريع! وصلتُ من دون مناسبة أو إعلان... أقصد زوجتي عليها اللعنة! هذا أسوأ خطأ ارتكبته. تزوجتها في بطرسبرج ثملاً. أخفيتُ عنك الأمر لأنني شعرت بالخزي منه، ولكن ها قد وصلتُ، ويمكنك أن تراها بنفسك. انظر وتأس! يا للضعف اللعين! تحت تأثير اللحظة الحالية والفودكا أكون في حالة تسمح لي بفعل أي شيء! وصول زوجتي هو هديتي الأولى، والثانية هي فضيحتي مع أولجا. أنتظر الثالثة... أعرف ما سيحدث... أعرفه جيداً. سأجن!

ذرف بعض الدموع ورشف ثلاث رشقات فودكا، وأطلق على نفسه حملاً نذلاً سكيراً، ثم بدأ يصف بلسان مضطرب أحداث المسرحية التي دارت على خشبة حفلة الصيد. حكى لي الآتي تقريباً:

بعد رحيلي بحوالي ٢٠ - ٣٠ دقيقة، عندما هدأت حدة الذهول من وصول سوزيا بعض الشيء، وعندما تعرفت سوزيا على الحضور

وبدأت تلعب دور المضيفة، سمع الحضور فجأة صرخة بشرية عالية مفاجئة. جاءت الصرخة من ناحية الغابة، وتكرر صداها أربع مرات. بدت غير عادية إلى حد أن هب مَنْ سمعها من مكانه، ونبحت الكلاب، وشحذت الجياد آذانها. كانت صرخة غير طبيعية، لكن الكونت أدرك أنها صرخة أنثوية. لاح فيها اليأس والهلع. تصرخ النساء بهذه الطريقة عندما يرين شبحاً أو يحضرن موتاً مفاجئاً لطفل. تبادل الحاضرون والكونت النظرات. ساد صمت ثقيل لحوالي ثلاث دقائق.

بينما كان الحضور ينظرون إلى بعضهم صامتين، هرع الحوزية والخدم إلى ذلك الموضع الذي جاءت منه الصرخة. كان رسول الأسى الأول هو الخادم العجوز إيليا. خرج راكضاً من الغابة إلى موضع الحضور على الحافة، بأعين جاحظة، وقد أراد أن يقول شيئاً ما، لكن بحة الصوت والاضطراب منعه طويلاً عن التحدث. في النهاية استجمع شتات نفسه، ورشم الصليب وقال:

– قتلوا السيدة.

أي سيدة؟ مَنْ القاتل؟ لكن إيليا لم يُجب عن هذه الأسئلة. وقع دور الرسول الثاني على عاتق شخصية غير متوقعة تماماً، وكان ظهورها مدهشاً جداً. كل من ظهور ونوع هذه الشخصية كان مذهلاً وغير متوقع. عندما رآها الكونت، وتذكر أن أولجا كانت تنزهه في الغابة، انقبض قلبه، ولم تعد ساقاه قادرتين على حمله من فرط نذير الشؤم.

كانت هذه الشخصية هي بيتر يجوريتش أوربينين، مدير أعمال الكونت السابق، وزوج أولجا. في البداية استمع الحضور إلى خطوات

أقدام ثقيلة وحفيف أشجار. بدا كما لو أن دُبًّا يشق طريقه عبر الغابة. ثم ظهر جسد بيتر يجوريتش الضخم. وصل إلى مكاننا على حافة الغابة. وما إن رأى الحضور، حتى تراجع خطوة كما لو أنه قد انغرس في مكانه. صمت دقيقتين تقريباً ولم يتحرك، وبذلك منح نفسه فرصة لمراقبة المشهد. كان يرتدي سترة وسروالاً رماديين عاديين، بل مهترئين. لم تكن هناك قبعة على رأسه، والتصق شعره الأشعث بجبهته وصدغيه بفعل العرق. بدا وجهه متورداً كعادته، ولكن بدت حمرة المائلة إلى الزرقة تلك المرة شاحبة. لاح الجنون في نظرة العينين، وبدت عيناه واسعتين بشدة، وارتعشت الشفتان واليدان.

لكن أغرب شيء، وأكثر ما جذب انتباه الحاضرين المذهولين هما اليدان الداميتان. تلمّخ اليدان والكُمّان بالدم بكثافة، كأنها قد غُمرت في بحيرة من الدم.

ظل أوربينين جامداً ثلاث دقائق، ثم بدا كما لو أنه قد أفاق من نومته، وجلس على العشب على الطريقة التركية^(٨٠) وتأوه. تشممت الكلاب رائحة غير عادية، لذلك أحاطوا به ونبحوا عالياً. بعد أن حدّق أوربينين في الحضور بعينين غائمتين، غطى وجهه يديه وتجمد مجدداً. تأوه قائلاً:

— أولجا... أولجا... ماذا فعلتِ؟

(٨٠) برجلين متعامدتين.

تعالّت من صدره تنهيدات عميقة، ورجت كتفيه العملاقتين. عندما أبعد يديه عن وجهه، رأى الحاضرون دماءً على صدغيه وجهته من أثر يديه.

عندما وصل الكونت إلى ذلك في حكيه، شوّح بذراعه، وشرب كأس فودكا بطريقة متشنجة، وواصل:

- هنا تختلط الأمور على ذاكرتي. كما يمكنك أن تتصور بالطبع، ذهلت من كل ما حدث، حتى فقدت القدرة على التفكير الواضح. لا أتذكر شيئاً مما حدث بعد ذلك. كل ما أتذكره هو أن الفلاحين قد جلبوا من الغابة جثماناً مغطى بفستان ممزق ودام. لم أستطع النظر إليه. وضعوا الجثمان في العربة ونقلوه. لم أسمع عويلاً أو بكاءً. يُقال إن الخنجر الصغير الذي كانت تحمله معها دائماً كان مغروساً في جانبها. أتذكره؟ أنا من أهديتها إياه. خنجر ثلم... أثلّم من حافة هذه الكأس. كم تطلب الأمر من قوة ليُغرس فيها! أحب يا صديقي هذا السلاح القفقازي، ولكن اللعنة عليه! سوف أمر غداً بأن يتخلصوا منه!

شرب الكونت كأس فودكا أخرى وواصل:

- ولكن يا للخزي! يا للدناءة! جلبناها إلى المنزل... كما تعرف - كنا جميعاً في تمام اليأس والهلع. وفجأة - واللعنة على هؤلاء الغجر - تناهت إلينا أصوات غناء بعيدة. كانوا - الأنذال - مصطفىين جميعاً في صف واحد، يغنون بأعلى صوت. أرادوا - كما ترى - أن يستقبلونا بأبهة، فتم الأمر بشكل غير لائق. يشبه

الأمر ما فعلته إيفانوشكا المغفلة^(٨١) حينما رأت موكب المأتم
فوصلت إلى قمة البهجة وصاحت: «ابتعدوا... لا يمكنكم
جرها!». نعم يا صديقي، أردت أن أبهج ضيوفي فاستدعيت
الغجر، ولكن كم بدا الأمر أحمق! لم يكن عليّ استدعاء الغجر،
بل الأطباء والكهنة. والآن لا أعرف ما العمل. ماذا عليّ أن أفعل؟
لا أعرف كيف أتعامل مع تلك الرسميات والعادات. لا أعرف مَنْ
يجب أن أستدعيه، وإلى مَنْ أرسل. ربما يكون استدعاء الشرطة
ضروريًا أو المدعي العام. ليست لديّ فكرة بحق الجحيم. شكرًا
للأب أرميا؛ عرف أمر الفضيحة وانضم إلينا، ولم أكن سأفكر في
استدعائه من تلقاء نفسي. أتوسل إليك يا صديقي أن تتولى كل
هذه المسائل. سأجن صدقني. وصول زوجتي ثم حادث قتل...
آآآآه! أين هي زوجتي الآن؟ ألم ترها؟

- رأيته. إنها تشرب الشاي مع بشيخوتسكي.

- تقصد مع شقيقها. بشيخوتسكي ذلك الوغد! عندما هربت سرًا
من بطرسبرج، اكتشف أمر هروبي والتصق بي. كم استولى على
مال مني طوال هذه الفترة! كمية لا يمكن حسابها.

لم يكن لديّ وقت للتحدث طويلاً مع الكونت. نهضت وتوجهت
إلى الباب. أوقفني قائلاً:

- اسمع! ألن يطعنني هذا المدعو أوربينين؟

(٨١) شخصية فولكلورية.

- وهل هو مَن طعن أولجا؟

- من الواضح أنه... الأمر الوحيد غير المفهوم لي هو من أين جاء. أي شيطان جاء به إلى الغابة؟ ولماذا أتى إلى تلك الغابة تحديدًا؟ فلنفترض أنه اختبأ هناك وانتظرنا، ولكن كيف عرف أنني سأتوقف في تلك المنطقة تحديدًا لا في موضع آخر؟

- أنت لا تفهم شيئًا. بالمناسبة، سأطلب ذلك منك مرة واحدة وإلى الأبد: إن توليتُ هذا الأمر، رجاءً لا تخبرني بتصوراتك... كل ما عليك فعله هو أن تجيب عن أسئلتني وحسب.

تركتُ الكونت، وتوجهت إلى الغرفة حيث كان جثمان أولجا^(٨٢)...

توهج مصباح أزرق صغير في الغرفة، أضواء وجهها بضعف. لم يكن من الممكن القراءة أو الكتابة في هذا الضوء. استلقتُ أولجا على فراشها. كان رأسها ملفوفًا بضمادات. كل ما لاح منه هو الأنف الشاحب جدًا والأعين المغلقة أجفانها. في اللحظة التي دخلتُ فيها كان صدرها عاريًا، وكانت عليه حقيبة ثلج قد وضعها الأطباء^(٨٣). اتضح إذن أن أولجا لم تمت بعد. كان طبيبان منشغلين بعلاجها. عندما

(٨٢) هنا سطران مشطويان. (أنطون تشيخوف).

(٨٣) أود أن أوجه انتباه القراء إلى أمر واحد. رغم أن كاميشيف يحب الاستطراء في التحدث عن حالة روحه في كل موضع، حتى في مناقشاته مع خادمه بوليكارب، لم يذكر هنا شيئًا واحدًا عن انطباعه حيال جثمان أولجا الساجي أمامه. أظن أن ذلك متعمد في ذلك الموضع. (أنطون تشيخوف).

دخلتُ كان بافل إيفانيتش العفريت يستمع إلى نبضها، مُضيقاً عينيه،
لاهنأ طوال الوقت.

جلس طبيب قروي، أنْهك فجأةً وبدا كمريض، وتهاوى على مقعد
بقرب الفراش، واستغرق في التفكير، متظاهراً أنه يقيس النبض. كان
الأب أرميا قد أنهى عمله لتوه، ولف الصليب بدثاره، مستعداً للرحيل.
قال متنهداً، ناظرًا إلى ركن الغرفة:

- لا تحزن يا بيتر يجوريتش. إرادة الله فوق الجميع. الجأ إلى الله!

جلس أوربينين في ركن الغرفة على مقعد بلا ظهر. لقد تغيّر إلى
درجة أنني تعرفت عليه بصعوبة. لاحت عليه آثار التبول والسُّكر في
الفترة الأخيرة في ثيابه ومظهره بشكل عام. كانت ثيابه بالية، وكذلك
وجهه.

جلس المسكين ساكنًا، مُسنَدًا رأسه إلى قبضتيه، مُثبَّتًا عينيه على
الفراش. كانت يدها ووجهه لا تزال ملطخة بالدم، فقد نسي فكرة
الاعتسال تمامًا.

آه.. إنها نبؤة روعي وطائري المسكين!

عندما كان طائري النبيل الذي قتلته يصيح قائلاً: «زوج قتل زوجته»
كانت ترتسم في مخيلتي دائماً صورة أوربينين. لماذا؟ عرفت أن
الأزواج الغيورين كثيرًا ما يقتلون زوجاتهم الخائنات، وعرفت في الآن
ذاته أن رجالاً كأوربينين لا يستطيعون قتل أحد... طرحْتُ عني فكرة
أن يقتل أوربينين أولجا، قائلاً إنها مجرد فكرة سخيفة. «هل هو القاتل

أم لا؟» طرحتُ على نفسي السؤال بعد أن نظرت إلى وجهه البائس. أقول صراحة إنني لم أصل إلى إجابة أكيدة، بالرغم من حكاية الكونت والدماء التي رأيتها على يديه ووجهه. قلتُ في نفسي: «لو كان هو القاتل، لكان قد غسل الدماء عن يديه ووجهه منذ فترة طويلة». تذكرتُ مقولة أحد أصدقائي المحققين عن أن القتلة لا يستطيعون احتمال بقاء دماء الضحية على أجسادهم.

إن أردتُ حث ذاكرتي، لتذكرت عددًا لا بأس به من أقوال شبيهة، ولكن عليَّ ألا أحكم على الأمر مسبقًا، وألا أملأ رأسي باستنتاجات سابقة لأوانها.

توجّه الطبيب القروي صوبي قائلاً:

- أقدم إليك احترامي. يسعدني أنك جئت. قل لي رجاءً. من السيد هنا؟

- لا يوجد سادة هنا. الفوضى تسود المكان.

- حكمة لطيفة، لكنها لا تسهل الأمور عليّ. (سعل الطبيب بقوة) منذ ثلاث ساعات وأنا أطلب وأتوسل من أجل زجاجة نبيذ أو شامبانيا، ولم يتعطف أحد بالاستجابة إلى طلبي. بدا كل منهم أصمّ كطيحوج^(٨٤) أسود! لم يجلبوا ثلجًا سوى الآن، بالرغم من أنني طلبته منذ ثلاث ساعات. ماذا يعني ذلك؟ إنسانة تحتضر، وهم يضحكون! الكونت مسرور في مكتبه يحتسي خموره، وهنا لا يقدمون كأسًا واحدة! يقولون «سرسل إلى المدينة...

(٨٤) مجموعة من الطيور تنتمي إلى رتبة الدجاجيات.

إلى الصيدلية... الجياد منهكة، ولا يوجد من يذهب، فالجميع سكارى». أردتُ أن أرسل أحدًا إلى مستشفى لإحضار بعد الأدوية والضمادات، وقد أنعموا عليّ بأحد السكارى، لا يستطيع أن يقف على قدميه إلا بصعوبة. أرسلته منذ ساعتين، وماذا تظن؟ يُقال إنه قد ذهب لتوه! أليس الأمر مقززًا؟ الجميع سكارى وقحون أجلاف. جميعهم حمقى. أقسم لك أنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها أناسًا قساة القلب كهؤلاء!

كان الطبيب محققًا في غضبه. لم يبالغ على الإطلاق، بل على العكس... لن يكفي الليل بطوله ليصب المرء غضبه على الفوضى والتشوه بضيعة الكونت. كان تشوه وتبطل وفوضى الخدم هنا مقرزة حقًا. لم يكن بالإمكان أن يجد المرء هنا خادمًا إلا من ذلك النوع الذي عاش هنا طويلاً حتى أتخَّم من النعم.

خرجت لأجلب بعض النبيذ. بعد أن وجَّهت صفتين أو ثلاثًا، نلتُ بعض الشامبانيا والناردين^(٨٥)، الأمر الذي أبهج الطبيين بصورة لا توصف. بمرور ساعة^(٨٦) وصل مساعد الطبيب من المستشفى، جالبًا معه كل الأغراض الضرورية.

(٨٥) عقار مهدئ للأعصاب يُستخرج من جذور الناردين.

(٨٦) يجب أن أوجَّه انتباه القارئ هنا إلى ظرف آخر في غاية الأهمية. في غضون تلك الساعتين أو الثلاث لم يفعل كاميشيف شيئاً سوى السير من غرفة لأخرى، ومشاركة الأطباء غضبهم من الخدم، موجِّهاً الصفعات وما إلى ذلك... هل يمكنكم تصور أنه محقق قضائي؟ من الواضح أنه لم يسرع إلى فعل شيء، وحاول قتل الوقت بأي طريقة. من الواضح أنه عرف القاتل. نضيف إلى ذلك التحقيق الذي سيأتي ذكره لاحقاً في غرفة العجوز الشمطاء، ومثله التحقيق المثير للسخرية مع الفجر الذي لا يمكن لأحد إجراؤه سوى لتضييع الوقت. (أنطون تشيخوف).

استطاع بافل إيفانوفيتش أن يصب في فم أولجا ملء ملعقة شامبانيا. ابتلعها وتأوهت. ثم حقن بعدها شيئاً تحت جلدتها يبدو كقطرات هوفمان^(٨٧).

صاح الطبيب القروي، وقد مال صوب أذنها:

- أولجا نيكولايفنا! أولجا نيكولايفنا!!

تنهد بافل إيفانيتش قائلاً:

- لا تنتظر أن تعود إلى وعيها. لقد فقدت كمية كبيرة من الدماء، بالإضافة إلى ضربة بأداة ثلثة على الرأس تسببت في ارتجاج المخ. لم يكن عملي أن أحدد ما إن كان قد حدث فعلاً ارتجاج بالمخ أم لا، لكن أولجا فتحت عينيها، وطلبت أن تشرب شيئاً. أتت وسائل الإفاقة عملها إذن. صدمني بافل إيفانيتش من مرفقي قائلاً:

- يمكنك أن تسألها الآن عما تشاء. اسألها.

اقتربت من الفراش... كانت عينا أولجا موجهتين صوبي. سألتني:

- أين أنا؟

بدأت حديثي:

- أولجا نيكولايفنا، هل تعرفيني؟

نظرت إليّ أولجا لبضع ثوانٍ ثم أغلقت عينيها، وقالت متأوهة:

- نعم.

(٨٧) دواء مشهور يُحضّر بخلط نسبة من إثير الكبريت المنقى بكحول نبيذ أو كحول إثيلي.

- أنا زينوفيف، المحقق القضائي. كان لي شرف معرفتك، ولو
تتذكرين حظيتُ أيضًا بشرف أن أكون إشينك في زفافك.

همستُ أولجا وهي تمد يدها اليسرى إلى الأمام:

- أهذا أنت؟ اجلس.

تنهد العفريت قائلاً:

- إنها تهذي.

واصلتُ حديثي:

- أنا المحقق القضائي زينوفيف. لو تتذكرين، كنتُ موجودًا في
حفلة الصيد. كيف تشعرين الآن؟

همس الطبيب القروي في أذني قائلاً:

- اطرُح أسئلة جوهرية. لا أضمن أن تستمر واعية.

استأثُ قائلاً:

- رجاءً لا تعلّمني عملي. أعرف ما عليّ قوله.

وتوجهت مجدداً الى أولجا:

- أولجا نيكولايفنا... حاولي رجاءً أن تتذكرتي أحداث اليوم

السابق. سوف أساعدك... اعتليت جوادك في الواحدة ظهراً

ومضيت بصحبتنا إلى الصيد. استمر الصيد حوالي أربع ساعات،

ثم توجب علينا أن نخيم على أطراف الغابة... أتتذكرين؟

- وأنت... أنت... قتلت...

- تقصدين قتلت عصفور زمار الرمل؟ بعد أن أجهزت على زمار الرمل الجريح، عبست وفارقت الجمع... توجهت إلى الغابة...^(٨٨) حاولي الآن استجماع كافة قوى ذاكرتك. أثناء نزهتك في الغابة، تعرضت لهجوم شخص مجهول لنا. بصفتي محقق قضائي أسألك من هو هذا الشخص؟ أغلقت أولجا عينيها ونظرت إليّ.

- قليني لنا اسم هذا الشخص. ثمة ثلاثة أشخاص غيري هنا في الغرفة. هزت أولجا رأسها رافضة. واصلت:

- يجب أن تقولي لنا اسمه. سوف يُعاقب عقوبة شديدة... سوف يجعله القانون يدفع ثمن وحشيته غالبًا. سوف يُعاقب بالأعمال الشاقة^(٨٩). في انتظار إجابتك.

ابتسمت أولجا وهزت رأسها رافضة. لم يؤدّ الاستجواب إلى شيء. لم أفز من أولجا بكلمة أو حركة واحدة. في الرابعة وخمس وأربعين دقيقة قضت نحبها.

في الساعة صباحًا وصل عمدة القرية ومعاونوه الذين كنت قد استدعيتهم. كان من المستحيل الذهاب إلى مسرح الجريمة؛ فالأمطار

(٨٨) يكشف هذا الانحراف عن مسار السؤال الأول المهم أمرًا واحدًا؛ الرغبة في إطالة الوقت حتى تفقد أولجا الوعي وبالتالي لا تستطيع ذكر اسم القاتل. إنها طريقة مميزة، والمدهش هو أن الأطباء لم يدركوا الأمر. (أنطون تشيخوف).

(٨٩) كل ذلك قد يبدو ساذجًا للوهلة الأولى. من الواضح أنه كان من الضروري لكاميشيف أن يكشف لأولجا عن الإجراءات القاسية التي سيتعرض لها القاتل. إن كان القاتل شخصًا عزيزًا عليها، سيتوجب عليها التزام الصمت. (أنطون تشيخوف).

التي بدأت تهطل ليلاً لم تكن قد توقفت بعد، كما لو أنها تنهال من دلو ما. شكّلت بعض البرك الصغيرة بحيرة. بدت السماء الرمادية قاسية، ولم تشِ بقرب ظهور الشمس. تدلّت الأغصان بيأس من أشجارها المبللة، ومع كل هبة ريح كانت تسكب وابلاً من قطرات ماء كبيرة. لم يكن الذهاب ممكناً، بالإضافة إلى لا جدوى الأمر. لا بد أن أثار الجريمة، كأثار الدماء وآثار الأقدام البشرية وما إلى ذلك، قد أزيلت ليلاً بفعل المطر. لكن الإجراءات الرسمية تتطلب زيارة مسرح الجريمة، وقد أجّلت الأمر حتى وصول الشرطة. انشغلتُ في ذلك الوقت بصياغة مسودة محضر الاستجواب. في البداية استجوبتُ الفجر. مكث المغنون البائسون طوال الليل في الصالات، في انتظار أن توفر لهم جياداً ليذهبوا إلى المحطة. لكننا لم نُقدّم لهم جياداً. وجَّههم الخادم إلى الكونت، وفي الآن ذاته حذّره من أن سعادته أمرٌ بالآل يزعجه أحد. لم يقدموا إليهم كذلك السماور الذي طلبوه صباحاً. كان الوضع بالنسبة لهم أغرب الأوضاع وأكثرها مفاجأة، حيث وجدوا أنفسهم في منزل غريب، يحوي جثمان المرحومة، لا يعرفون متى يحين موعد انصرافهم، والجو رطب كئيب... أفضى كل ذلك بالفجر المساكين إلى كآبة مريضة، إلى درجة أنهم نحفوا وشحبوا على إثر ليلة واحدة. ظلوا يذرعون أرجاء المكان ذهاباً وإياباً، خائفين كأنهم في انتظار حكم قاسٍ. زاد استجوابي لهم من معاناتهم المعنوية. أولاً: أخرهم استجوابي المطول عن مفارقة هذا المنزل اللعين. ثانياً: أخفتهم. إنهم أناس بسطاء، وقد تصوروا أن ثمة اشتباهاً كبيراً في تورطهم في الجريمة، وبالتالي ظلوا يؤكّدون لي

بالدموع أنهم غير مذنبين، وأنهم لا يعرفون شيئاً. عندما رأَتْ تينا وجهي الرسمي، نسيَتْ تماماً علاقتنا السابقة، وكانت تتحدث معي كفتاة مجروحة، مرتعشة ومذعورة. عندما طلبتُ منها ألا تضطرب، ووضحتُ لها أنني لا أرى فيهم سوى شهود يعينون على التوصل إلى حكم صحيح، أعلنوا جميعاً لي بصوت واحد أنهم لم يشهدوا شيئاً، ولا يعرفون شيئاً، ويتوسلون إلى الله أن يخلصهم في المستقبل من معرفة أي قضاة.

سألتهم عن أي طريق سلكوا عندما أتوا من المحطة، وهل جاءوا عبر تلك الغابة التي حدثت فيها جريمة القتل أم لا، وما إن كان أحدهم قد انفصل عن البقية، ولو لفترة قصيرة، وما إن كانوا قد سمعوا صرخة أولجا المفجعة^(٩٠). لم يؤدِّ الاستجواب إلى شيء. كل ما حدث هو أن أرسل الغجر الخائفون اثنين من الجوقة إلى القرية لاستئجار عربات. أراد المساكين أن يرحلوا من كل قلوبهم. لسوء حظهم كانت الأحاديث عن حادثة القتل بالغابة قد وصلت إلى القرية، ونظر الناس هناك بريبة إلى الرسولين داكني البشرة، وقبضوا عليهما وأحضر وهما إليّ. لم تتخلص الجوقة من هذا الكابوس إلا قبالة المساء. استطاعوا أن يتنفسوا بحرية أخيراً، حيث استأجروا عربات ريفية بثلاثة أضعاف الثمن، وخرجوا من ضيعة الكونت. بعد ذلك حصلوا على ثمن مجيئهم إلى الضيعة، لكن أحداً لم يدفع لهم مقابل صنوف المعاناة المعنوية التي مروا بها في سكن الكونت الفخم.

(٩٠) إن كل ذلك لازماً لكاميشيف، ألم يكن من الأسهل أن يسأل الحوزية الذين أتوا بالغجر؟ (أنطون تشيخوف).

بعد أن انتهت من استجوابهم، فتَّشت غرفة الشمطاء العجوز^(٩١). وجدتُ في صناديقها كومة هائلة من مختلف سقط متاع الشيوخ، ولكن بالرغم من أنني فحصت كافة قبعتها المهترئة وجواربها المرتقة، لم أجد مالا أو أي أغراض ثمينة من سرقاتها من الكونت وضيوفه. لم أجد تلك الأغراض التي سرقها يوماً ما من تينا. من الواضح أن العجوز لديها مخبأ آخر لا يعرفه أحد سواها.

لن أذكر هنا تفاصيل التقرير الذي كتبته بخصوص المعلومات الأولية والتفتيش. إنه تقرير طويل، وقد نسيتُه. سأكتفي هنا بذكر الخطوط العامة له باختصار. في البداية وصفتُ الحالة التي وجدتُ أولجا عليها، وعرضت كافة التفاصيل المتعلقة باستجوابي لها. اتضح من هذا الاستجواب أن أولجا أجابت عن أسئلتِي بوعي، وأنها أخفت عمداً اسم القاتل. لم تُرد أن يتحمل القاتلُ العقوبة، وكل ذلك يشير إلى أن القاتل قريب منها وعزيز عليها.

يشير فحص فستانها؛ الأمر الذي قمت به بمعاونة المفوض العسكري بالقرية الذي وصل سريعاً، إلى الكثير... كان رداء الفارسات الخاص بها المخملي ذو البطانة الحريرية لا يزال رطباً. كان الجانب الأيمن، حيث الثقب الناتج عن ضربة الخنجر دامياً، ويحوي بعض التجلطات الدموية في عدة مواضع. كان نزيف الدماء شديداً، لذا

(٩١) ما الهدف من ذلك؟ يمكننا أن نفترض أن المحقق القضائي قد قام بكل ذلك في حالة سُكر أو لم يكن في تمام وعيه، ولكن لو كان الأمر كذلك، لماذا يكتب عنه؟ ألم يكن الأجدر به أن يخفي تلك الأخطاء الفجة عن القارئ؟ (أنطون تشيخوف).

من الغريب أن أولجا لم تمت في مكانها مباشرة. كان الجانب الأيسر داميًا كذلك. كان الرदन الأيسر ممزقًا من ناحية الكتف وعند الرسغ. كان الزران العلويان منتزعين من مكانهما، ولم نستطع أن نجدتهما. كانت تنورة الفارسة المصنوعة من الكشمير الأسود مغضنة تمامًا، وقد حدث ذلك عندما حملوا أولجا من الغابة إلى المركبة، ومن المركبة إلى الفراش. ثم نزعوها عنها وكوّموها بطريقة قبيحة وألقوا بها أسفل الفراش. ثمة تمزق عند الوسط. إنه تمزق طولي يبلغ ٧ فرشوك^(٩٢)، ربما قد حدث بينما كانوا ينقلونها، أو بينما كانوا ينتزعون ثيابها. ربما يكون قد حدث كذلك وهي حية. لم تكن أولجا تحب ترقيق الثياب، ولا تعرف أحدًا يُصلح لها ثيابها، لذلك ربما كانت تخفي هذا التمزق أسفل سترتها. أظن أن الأمر لا علاقة له بالجنون الوحشي للمجرم، الذي أكّد عليه المدعي العام في مرافعته بعد ذلك. كان الجانب الأيمن من منطقة الوسط، والجيب الأيمن ملطخين بالدماء. كان المنديل والقفازين في الجيب في صورة مشوهة بلون باهت. تناثرت على التنورة كلها، من الوسط وحتى طرفها، بقع دموية مختلفة الشكل والكثافة. نتجت معظمها -كما تبين لاحقًا- من أصابع وراحت أيادي من حملوها من الخدم والحوذية. كان قميصها الداخلي ملطخًا بالدماء، خاصة عند الجانب الأيمن حيث مكان الطعنة. ثمة تمزقات به كذلك عند الكتف والرسغ كما هو الحال مع السترة. أما طرف الكم فكان ممزقًا تمامًا.

(٩٢) وحدة طول روسية قديمة تبلغ ٤٤٥ ، ٤ سم.

وجدنا أغراض أولجا مثل ساعتها الذهبية، سلسلة ذهبية طويلة، مشبك زينة مرصع بالماس، قرطيهما، ومحفظة تحوي عملة فضية مع ثيابها. من الواضح أن دوافع الجريمة لم تكن متعلقة بالسرقة.

ظهرت نتائج تشريح الجثة من قِبَلِ الطب الشرعي، وقد تمت في حضوري، بواسطة «العفريت» والطبيب القروي في اليوم التالي لموت أولجا، وتضمنها تقرير طويل جداً، سأذكر هنا خطوطه العريضة وحسب. بالفحص الخارجي من قِبَلِ الأطباء تبين الآتي: جرح بالرأس عند حدود الصدغ الأيسر والعظام الداخلية بطول بوصة ونصف، نافذ حتى العظام. حواف الجرح غير مستقيمة وغير مستوية. لقد سُدَّتْ إليها ضربة بأداة ثلثة، من المحتمل - كما قررنا بعد ذلك - أنها بفعل نصل الخنجر الصغير. يظهر شريط أحمر على العنق، على مستوى فقرة العنق، يأخذ شكل نصف دائرة، يلف النصف الخلفي للعنق. بامتداد هذا الشريط ثمة جروح وبعض الرضوض البسيطة. على اليد اليسرى، على مسافة فرشوك من الرسغ ثمة أربعة رضوض زرقاء: واحد من الخلف وثلاثة من الأمام. حدثت هذه الرضوض إثر الضغط، والأكثر احتمالاً إثر أصابع. الدليل على ذلك هو وجود خدش صغير على أحد تلك الرضوض، إثر ظفر. سوف يتذكر القارئ أن المكان الذي وُجِدَتْ فيه هذه الرضوض تتفق مع تمزق الرदन الأيسر للمسترة وكذلك التمزقات العديدة بالرदन الأيسر للقميص الداخلي. ثمة جرح كبير مفتوح بطول بوصة على خط متخيل بين الضلعين الرابع والخامس من

منتصف الإبط، عمودياً إلى أسفل. حواف الجرح مستوية، كما لو أنها مقطوعة عن عمد، مُشَبَّعة بدماء سائلة ومتخثرة. الجرح عميق، تم بفعل أداة حادة، ولا بد أنها ذلك الخنجر الصغير كما يتضح من المعلومات التي تم جمعها، حيث إن عرض الجرح يتسق تمامًا مع مقاس الخنجر. كشف الفحص الداخلي للجثمان عن إصابة الرئة اليمنى، وغشاء الجنب^(٩٣)، والتهاب رئوي، ونزيف في تجويف غشاء الجنب.

توصل الأطباء -بقدر ما أتذكر- إلى الاستنتاجات الآتية:

١ - حدث الموت على إثر فقر الدم الذي أحدثه فقدان كمية كبيرة من الدماء إثر جرح فجائي في الجانب الأيمن من الصدر.

٢ - إصابة الرأس شديدة، وجرح الصدر قاتل بلا شك، والآخر هو سبب الوفاة المباشر.

٣ - حدث جرح الرأس بفعل أداة ثلثة، بينما نتج جرح الصدر بفعل أداة حادة، لذلك من المحتمل أن تكون بفعل أداة ذات حدين.

٤ - كل الإصابات الموصوفة لا يمكن أن تكون بيد الضحية نفسها.

٥ - من غير المحتمل أن تكون ثمة محاولات قد حدثت للتعدي على شرف الضحية.

سأحاول أن أرسم للقارئ هنا صورة عن جريمة القتل تصورتها بنفسى على إثر انطباعي الأول عن التحقيق، والاستجوابين أو الثلاثة

(٩٣) غشاء مصلي مزدوج يأخذ شكل كيس يُغلف الرئة، ويلتحم بالتجويف الصدري.

التي أجريتها، وقراءة تقرير التشريح، أملًا في دعم تأجيل الأمر إلى ما لا نهاية^(٩٤) وتكرار ما قلته من جديد.

بعد أن فارقت أولجا الجمع تنزهت في الغابة. استغرقت في أفكار حزينة، أو سلّمت نفسها لها - والقارئ يتذكر حالتها المعنوية في تلك الليلة المشؤومة - ثم تجولت في الغابة بعيدًا. التقى بها القاتل هناك. بينما كانت واقفة أسفل شجرة ما مستغرقة في التفكير، اقترب منها، وتحدث معها... لم يكن هذا الإنسان مثيرًا لريبتها، وإلا لصاحت طلبًا للعون، ولم تكن صيحتها تبدو مفجعة كما حدث. بعد أن تحدث القاتل معها، أمسكها من يدها اليسرى بقوة شديدة إلى درجة أن مزّق رदन السترة والقميص الداخلي، وترك أثرًا في يدها ممثلًا في أربعة رضوض. من المحتمل هنا أن تكون صرخت تلك الصرخة التي سمعها الحضور؛ صرخت من الألم. من المحتمل أيضًا أن تكون صرختها تلك بسبب أنها قرأت في وجه القاتل نية قتلها. أمسكها من صدرها، بالقرب من الياقة، بهدف أن يمنعها من الصراخ مجددًا، أو ربما بفعل شعوره الشرير، ويشير إلى ذلك الزران العلويان المنتزعان والشريط الأحمر الذي وجده الطيبان على العنق. عندما أمسكها القاتل من صدرها وهزها، جذب سلسلتها الذهبية التي كانت ترتديها. تسبب الاحتكاك والضغط الناجمين عن السلسلة في إحداث هذا الشريط الأحمر. ثم

(٩٤) العبارة الأصلية تعني: حتى لا أضع الأمر في صندوق طويل. المعنى المقصود: عدم تأجيل الأمر إلى ما لا نهاية، ويُقال إن أصل العبارة يعود إلى فترة حكم القيصر أليكسي والد بطرس الأكبر حيث أمر بأن يضعوا صندوقًا طويلًا في قرية كولومنسكوي يمكن أن يضع فيه الجميع شكواهم.

وجَّه لها القاتل ضربة على الرأس بأداة ثلثة، مثل عصا، أو ربما بمقبض
الخنجر الذي كان معلقاً على حزام أولجا. عندما غلبته الحماسة، أو
ربما عندما رأى أن هذا الجرح وحده غير كافٍ، استل الخنجر وطعنها
في جانبها الأيمن بقوة. أقول بقوة لأن الخنجر كان ثلماً.

هذه هي اللوحة القاتمة التي كان لديّ الحق في رسمها بناءً على
المعلومات السابقة. من الواضح أن السؤال عن هوية القاتل لم يكن
صعباً، ويجب عن نفسه تلقائياً. أولاً: لم تكن الجريمة بهدف السرقة،
بل بهدف آخر. لا يمكن أن يكون المجرم إذنً هو أحد الضالين
المتسكعين، أو صعلوكاً ما كان يصطاد من البحيرة. لا يمكن أن تكون
صرخة الضحية بهدف تعرضها للسرقة، لأن نزع دبوس الزينة والساعة
لم يكن ليستغرق أكثر من ثانية.

ثانياً: لم تُرد أولجا أن تكشف عن القاتل لي، الأمر الذي لم تكن
لتفعله لو كان سارقاً عادياً. من الواضح أن القاتل كان عزيزاً عليها،
وأنها لم تُرد أن يتعرض إلى عقوبة ثقيلة. ربما كان مثلاً أباهما المجنون
أو زوجها الذي لم تحبه لكنها شعرت بالذنب تجاهه، أو الكونت
الذي شعرت في أعماق روحها بأنها مدينة له. مكث الأب المجنون
في كوخه بالغابة طوال المساء، كما وضح الخادم بعد ذلك، واستغرق
فترة المساء كلها في كتابة خطاب إلى قائد الشرطة بالقرية، يطلب منه
أن يكبح جماح لصومه المتخيلين الذين يحيطون بكوخه ليلاً ونهاراً.
لم يفارق الكونت الجمع في لحظة ارتكاب الجريمة. تلقى الشكوك إذنً
بكامل ثقلها على أوريينين البائس. يُعتبر ظهوره المفاجئ ومظهره وما

إلى ذلك دليلاً قوياً على ذلك.

ثالثاً: شهدت حياة أولجا في الفترة الأخيرة علاقة غرامية مستمرة. كانت علاقة من النوع الذي ينتهي عادة بجريمة. زوج عاشق عجوز - خيانة - غيرة - اعتداء - هروب إلى الكونت العشيق بعد حوالي شهرين من الزفاف... إن قُتِلَت البطلة الرائعة لهذه الرواية، لا يجب البحث عن سُرَّاق أو محتالين، بل يجب البحث عن أبطال هذه القصة. أنسب بطل لدور القاتل هنا هو المدعو أوربينين.

أجريت التحقيق المبدئي في الغرفة الفسيفسائية التي أُحِبَّت ذات يوم أن أستلقي على أرائكها الناعمة وأغازل العجريات. أول مَنْ استجوبته كان أوربينين. أتوا به إليَّ من غرفة أولجا حيث ظل جالساً في ركنها على مقعد بلا ظهر أو ذراعين، دون أن ينحّي عينيه عن الفراش الفارغ. ظل واقفاً أمامي دقيقة صامتاً، ينظر إليَّ بانشدها. من المحتمل أنه أدرك بعدها أنني أريد أن أتحدث معه بصفتي محققاً قضائياً؛ فتحدث بصوت إنسان منهك حزين:

- فلتستجوب يا سيرجيه بتروفيتش بقية الشهود، واطركني لوقت لاحق... لا أستطيع الآن.

اعتبر أوربينين نفسه شاهداً، ولم يظن أن ثمة شكوكاً بأنه القاتل.

- لا. يجب أن أستجوبك الآن. اجلس رجاءً.

جلس أوربينين قبالي، وأمال رأسه. بدا منهكاً مريضاً، وأجاب دون رغبة عن أسألتي، ولم أنل شهادته إلا بجهد كبير.

كشف أنه - بيتر يجوريتش أوربينين، النبيل البالغ خمسين من العمر،
المعتنق الإيمان الأرثوذكسي - يملك ضيعة في المقاطعة المجاورة (ك)
حيث موطنه الانتخابي، وخدم هناك فترتين؛ امتدت كل فترة منهما إلى
ثلاث سنوات، كقاضي صلح مبجل. بإفلاسه أضاع الضيعة، ورأى أنه
من الضروري أن يعمل بوظيفة. نال شرف العمل كمدير لأعمال الكونت
منذ ستة أعوام. حبه لكل ما يتعلق بالزراعة جعله لا يخجل من العمل لدى
شخص؛ فالحمقى وحدهم من يخجلون من العمل. نال الراتب المناسب من
الكونت، ولم يكن لديه ما يشكو منه. لديه ابن وابنة من زواجه الأول... إلخ.
تزوج من أولجا إثر حب جارف. ناضل مشاعره طويلاً وعذبته،
لكن شيئاً لم يؤت أثره؛ لا المنطق السليم، ولا المنطق العملي لعقل
رجل عجوز. اضطر إلى التسليم لشعوره نحوها وتزوجها. عرف أن
أولجا لم تتزوجه عن حب، لكنه اعتبرها فتاة ذات مستوى أخلاقي
رفيع، ومن ثم قرّر أن يرضى بإخلاصها و صداقتها اللذين أمل أن يكون
مستحقاً لهما.

عندما وصلنا إلى ذلك الموضع، حيث تبدأ خيبة الأمل والإساءة
إلى شبيهة شعره، طلب أوربينين أن أسمح له بعدم التحدث عن الماضي
الذي سوف يسامحها الله عليه، أو على الأقل أن نؤجل التحدث عنه
إلى وقت لاحق.

- لا أستطيع... الأمر صعب. أنت بنفسك رأيت ما حدث.

- حسناً، فلنؤجل الحديث عن ذلك إلى وقت لاحق. أما الآن،
أريدك أن تقول لي أمراً واحداً: هل من الصحيح أنك ضربت

زوجتك؟ يُقال إنك عندما رأيته تُخفي في ثيابها خطاب الكونت، ضربتها.

- هذا غير صحيح. كل ما حدث هو أنني أمسكتها من يدها بقوة؛ فانفجرت في البكاء، وهربت في تلك الليلة، مدّعية أنني...

- لكنك كنت تعرف عن علاقتها بالكونت، أليس كذلك؟

- لقد طلبتُ تأجيل هذا الحديث. ما الجدوى منه؟

- أجبني عن هذا السؤال وحسب؛ لأنه شديد الأهمية: هل كنت تعرف عن علاقتها بالكونت؟

- بالطبع.

- سوف أسجل ذلك، وسوف نؤجل ما يتعلق بخيانة زوجتك إلى وقت لاحق. سوف أنتقل الآن إلى أمر آخر؛ أقصد تحديدًا الآتي: أريدك أن توضّح لي كيف ذهبت بالأمس إلى الغابة حيث الموضوع الذي قُتِلَ فيه أولجا نيكولايفنا؟ قلت إنك كنت في المدينة، فكيف انتهى بك الأمر إذن في الغابة؟

- نعم، أنا أعيش فعلاً في المدينة مع ابنة عمي، تحديدًا منذ أن فقدتُ وظيفتي. قضيتُ وقتي هناك في البحث عن عمل، وأغرقتُ نفسي في السُّكر من فرط الحزن. شربتُ كميات هائلة في ذلك الشهر. على سبيل المثال لا أتذكر تمامًا ماذا حدث في الأسبوع الماضي؛ لأنني كنت ثملًا طوال الوقت. ثملتُ كذلك أول أمس... باختصار ضعْتُ... ضعْتُ تمامًا.

- هل ستحكي لي كيف وجدت نفسك بالأمس في الغابة؟

- نعم يا سيدي. استيقظتُ صباحَ الأمس مبكرًا، في الرابعة. كان رأسي يؤلمني من نوبة سُكْر الأمس، وجسمي محطم، كما لو أنني محموم. استلقيتُ على الفراش، ورأيتُ من النافذة كيف تشرق الشمس، وتذكرتُ... تذكرتُ أمورًا مختلفة. شعرتُ فجأةً بالرغبة في رؤيتها، ولو لمرة واحدة قد تكون الأخيرة. تملكنتني الكراهية والكآبة. أخرجتُ من جيبي المائة روبل التي أرسلها إليَّ الكونت، ونظرتُ إليها، وسحقتها تحت قدمي... سحقتها كثيرًا، وقررتُ أن أمضي إليه وألقي بصدقته أمام وجهه. مهما كنتُ جوعانًا وفي حالة يُرثى لها، لكنني لا أستطيع بيع شرفي، وكل محاولة لشرائه سأعتبرها إساءة إلى شخصي. هكذا أردتُ أن أنظر إلى أولجا وإلى الرجل الذي أغواها، وأن ألقي ماله أمام وجهه القبيح. تملكنتني هذه الرغبة حتى أوشكتُ على الجنون. لم يكن معي مال كافٍ للذهب إلى هناك. لم أكن كذلك قادرًا على إنفاق ماله. لذا ذهبت سيرًا. من حسن حظي أنني التقيت في الطريق بفلاح صغير أعرفه، أقلّني في عربته مسافة ١٨ فرستًا^(٩٥) مقابل عشرة كوبيكات. لولا حدوث ذلك، لكنت لا أزال سائرًا في الطريق. أوصلني الفلاح حتى تينيفو. سرت حتى وصلتُ إلى هنا في حوالي الرابعة.

- هل رآك أحد هنا في ذلك الوقت؟

(٩٥) مقياس روسي للطول يساوي تقريبًا ١,١ كم.

- نعم، كان الحارس نيكولاي جالسًا عند المدخل، وقال لي إن السيد غير موجود بالمنزل، لقد ذهبوا إلى رحلة صيد. كنت في تمام الإنهاك، لكن رغبتني في رؤية زوجتي كانت أقوى من الألم. توجب عليّ أن أذهب سيرًا إلى المكان الذي كانوا يصيدون فيه دون أن أنعم بلحظة راحة واحدة. لم أسر عبر الطريق، بل عبر الغابات. أعرف كل شجرة هناك. لا يمكنني أن أضل طريقي في غابات الكونت، كما لا يمكنني أن أضل داخل شقتي.

- لكن وبسيرك عبر الغابة لا الطريق، كنت مُعرّضًا لأن تفوت الصيادين.

- لا يا سيدي، سرتُ طوال الوقت بالقرب من الطريق، بحيث كان بإمكانني أن أستمع إلى طلقاتهم، ليس ذلك وحسب، بل إلى أحاديثهم أيضًا.

- هذا يعني أنك لم تتوقع أن تلتقي بزوجتك في الغابة، أليس كذلك؟

- حدّق في أوريينين بدهشة، وبعد برهة قصيرة من التفكير أجابني:
- عذرًا ولكن السؤال غريب. يستحيل أن تفترض أنك سوف تلتقي بذئب، ومن المستحيل أيضًا أن تفترض حدوث مثل تلك الحوادث المريعة. الله يرسلها دون سابق إنذار. فلنأخذ هذا الحادث كمثال: أسير في غابة أولخوفسكي، دون أن أتوقع حدوث أي بلية، وفجأةً أسمع صرخة غريبة. كانت حادة جدًا إلى

درجة أن بدا لي كأن شخصًا يمزق أذني بها. ركضت إلى مصدر الصرخة.

التوى فم أوربينين صوب أحد الجوانب، وارتعشت ذقنه. طرفت عيناه وانفجر في البكاء.

- أركض صوب الصرخة، وفجأة أرى... أرى أولجا مستلقية. الدم يلمح شعرها وجبهتها، ووجهها يبدو مريعًا. أبدأ في الصراخ، وأناديها باسمها، ولا تتحرك... أقبلها وأحملها.

يشحب أوربينين كميته، ويغطي وجهه بيديه. يواصل حديثه بعد دقيقة:

- لم أرَ الوغد. عندما ركضتُ إليها سمعتُ صوت خطوات مسرعة. من المحتمل أنه كان المجرم أثناء هروبه. قلتُ له:

- لقد اختلقت كل ذلك على نحو رائع يا بيتر يجوريتش. ولكن، كما تعرف بالطبع، لا يثق المحققون في هذه المصادفات النادرة، مثل أن يتصادف حدوث جريمة القتل مع جولتك العرضية في الغابة وما إلى ذلك. صحيح أنك لفقت الأمر بطريقة لا بأس بها، لكن تلفيقك لا يفسر سوى القليل.

سألني أوربينين وعيناه مفتوحتان على آخرهما:

- ماذا تقصد بالتلفيق؟ لم أُلَقَّ شيئًا يا سيدي.

احمر وجه أوربينين فجأةً، ونهض من مكانه. تمتم قائلاً:

- يبدو أنك تشبته فيّ. يمكن للجميع أن يشتهبوا فيّ بالطبع، ولكنك تعرفني يا سيرجيه بتروفيتش منذ فترة طويلة. إنها خطية أن تسمني بهذه الشكوك. أنت تعرفني فعلاً.

- أنا أعرفك فعلاً، ولكن لا مجال لأرائي الشخصية هنا. الآراء الشخصية مكفولة فقط لهيئة المحلفين، أما المحققون القضائيون فليست لديهم سوى الأدلة. هناك أدلة كثيرة يا بتر يجوريتش.

نظر إليّ أوريبنين بخوف، وهز كتفيه. قال:

- أيّا كانت الأدلة، عليك أن تتفهم الأمر... وهل أستطيع أن... أنا؟ أنا أقتلها؟ ربما يمكنني أن أقتل سماناً أو زمار الرمل، ولكن أقتل إنساناً؟ إنساناً أعلى لديّ من الحياة، وهو خلاصي؟ مجرد التفكير فيها كان يبدد كآبتي، كما تبدد الشمس الظلمة، وفجأة تشك فيّ؟

أشاح أوريبنين بيده وجلس.

- هكذا الأمر إذن، أنشد الموت وأنت تشك فيّ. لم أكن لأشكو لو شكّ فيّ موظف لا أعرفه، ولكن أنت يا سيرجيه بتروفيتش؟! اسمح لي بالانصراف!

- يمكنك الانصراف. سأستدعيك غداً مجدداً، أما الآن فيجب أن أقبض عليك. آمل أن تُقدّر بحلول الغد مدى خطورة الدليل ضدك، وألا تضيع الوقت عبثاً، وتعترف. أنا على قناعة بأنك قتلت أولجا نيكولايفنا. سأكتفي اليوم بذلك. يمكنك الانصراف.

قلتُ ذلك، ومِلت على أوراقِي. حدَّق فيَّ أوريينين بانشداه، ونهَض من جلسته، وبسط ذراعيه بطريقة غريبة. قال:

- هل تمزح أم أنك تتكلم بجديّة؟

- ليس هناك مجال للمزاح معك. يمكنك الانصراف.

ظل أوريينين واقفًا. نظرتُ إليه. كان شاحبًا، وثبَّت نظري على أوراقِي، وسألته:

- وما الذي لطَّخَ يديك بالدماء يا بيتر يجوريتش؟

نظر إلى يديه اللتين كانتا لا تزالان ملطختين بالدماء، وحرَّك أصابعه.

- ما الذي لطَّخَ يدي بالدماء؟ إممم... إن كان ذلك أحد الأدلة، أقول لك إنه دليل سيئ. لم يكن بإمكانني تجنب الدماء بينما أحمل أولجا. لم أرتد قفازات.

- قلت لي لتوك إنك ما إن رأيت زوجتك، حتى صرخت طالبًا العون. لماذا لم يسمع أحد صرختك؟

- لا أعرف. لقد صعقني منظر أولجا حتى إنني لم أستطع الصياح بصوت مرتفع. لا أعرف شيئًا آخر. لا حاجة لي إلى تبرير نفسي، ولم أعود فعل ذلك.

- بالطبع لم يكن بإمكانك أن تصرخ. بعد أن قتلت زوجتك، هربت وكنت مذعورًا عندما رآك الناس على حافة الغابة.

- لم ألحظ هؤلاء الناس، ولم يلتفتوا انتباهي.

هكذا انتهى استجواب أوربينين في تلك المرة. بعد ذلك تم التحفظ عليه في أحد أجنحة منزل الكونت.

في اليوم التالي، أو ربما في اليوم الثالث، وصل من المدينة الرفيق المدعي العام بولوجرادوف، وهو شخص لا يمكنني أن أستعيده إلى ذاكرتي إلا وأفسدُ حالتي المزاجية. تخيلوا إنساناً طويل القامة، نحيلًا، في الثلاثين من عمره، حليق اللحية، بشعر مجعد كالحمل، يرتدي ثياباً مبهرجة، ملامح وجهه دقيقة، شديدة الجفاف، غير معبرة، لا يصعب على مَنْ يراها أن يخمن أنها تتعلق بشخص تافه غندور. صوته هادئ معسول شديد التهذيب.

وصل في الصباح الباكر في عربة مستأجرة، ومعه حقيقتان. قبل أي شيء استعلم بوجه يدي أشد علامات الاهتمام، شاكياً بشدة من الإرهاق، عما إن كان قد تم تجهيز غرفة له في منزل الكونت أم لا. أمرتُ بأن يُعدّوا له غرفة صغيرة، لكنها مريحة جداً ومضاءة، وقد جهزوا له فيها كل شيء، بداية من المغسل الرخامي، وانتهاءً بأعواد الثقاب.

بدأ حديثه بعد أن استقر في غرفته، متشمماً الهواء بتقزز:

- اسمع يا عزيزي! جهّز لي بعض الماء الدافئ من فضلك.

وقبل أن يُقبل على العمل، استغرق وقتاً طويلاً في الاغتسال وتغيير ثيابه وتسريح شعره، وحتى تنظيف أسنانه بمسحوق أحمر، واستغرق حوالي ثلاث دقائق في تقليص أظافره الحادة الوردية. أخيراً أقبل على العمل، متصفحاً تقرير:

- حسنًا... ما الأمر؟

حكيتُ له الأمر دون أن أفوّت تفصيلاً واحدة.

- وهل ذهبتَ إلى مسرح الجريمة؟

- لا يا سيدي، لم أذهب بعد.

عبس الرفيق المدعي العام، ومَرَّ يده البيضاء الناعمة كأيدي النساء على جبهته المغسولة لتوها، وأخذ يذرع الغرفة. تمتم قائلاً:

- لا أفهم لماذا لم تذهب إلى هناك حتى الآن. أفترض أن ذلك كان أول ما يجب فعله. هل نسيت ذلك أم لم تعتبره ضروريًا؟

- لا هذا ولا ذاك. انتظرت وصول الشرطة بالأمس، واليوم سأذهب.

- لن تجد شيئًا هناك الآن: ظل المطر ينهمر طوال ذلك الوقت، كما أنك أعطيت فرصة للمجرم أن يُخفي آثار الجريمة. هل أرسلت حارسًا إلى هناك على الأقل؟ لا؟ لا أفهمك حقًا!

هز الغندور كتفيه بطريقة متسلطة. قلتُ بنبرة إنسان غير مبالٍ:

- اشربْ شايك... سيبرد.

- أحبه باردًا.

مال الرفيق المدعي العام على أوراقه، وبتنهيدة ترددت في أرجاء الغرفة كلها بدأ قراءتها بصوت مبحوح، وكان ينهض بين الحين والآخر يدوّن ملاحظاته وتصحيحاته. التوى فمه مرتين بابتسامة ساخرة: قدم

الإلوة ذلك لسبب ما لم يعجبه تقريره وتقرير الأطباء^(٩٦). أُنْخَم
الموظف المتحذلق اللامع والنظيف بالشكوك والشعور بجدارته الذاتية.
وصلنا مسرح الجريمة في الظهيرة. كان المطر لا يزال يتدفق. لم
نجد بالطبع أي بقع أو آثار. أزال المطر كل شيء. نجحتُ بطريقة ما
في العثور على زر مُنتزع من سترة صيد الضحية أولجا. التقط الرفيق
المدعي العام شيئاً أحمر اتضح بعد ذلك أنه قطعة من غلاف تبغ أحمر.
في البداية مررنا بشجرة بها غصنان مكسوران. سُرَّ الرفيق المدعي العام
بهذين الغصنين المكسورين، فربما يعود سبب كسرهما إلى المجرم،
وبالتالي يشير إلى الاتجاه الذي هرب عبره بعد أن قتل أولجا. لكن
سعادة المدعي العام ضاعت عبثاً؛ سرعان ما وجدنا شجيرات كثيرة
مكسورة أغصانها ومقطوف أوراقها. تبين أن مسار المجرم المتخيل
هذا لم يكن إلا مرور قطيع من الدواب.

بعد أن رسمنا مخططاً للمكان، واستجوبنا الحوزية الذين جلبناهم
معنا عن الوضع الذي وجدوا عليه أولجا، عدنا شاعرين أننا لم نتوصل
إلى شيء. قد يستشعر المراقب في حركاتنا مسحة من الكسل وعدم
الاكتراث أثناء بحثنا. ربما تكون حركاتنا قد شُلَّت جزئياً بسبب أن
المجرم كان بين أيدينا فعلاً، وبالتالي لم تكن هناك حاجة إلى تحليلات
ليكوكية^(٩٧).

(٩٦) عبثاً يسبب كاميشيف الرفيق المدعي العام. الأمر الوحيد الذي أذنب فيه المدعي العام هو أن
ملاحج وجهه لم ترق لكاميشيف. كان من الأصدق أن يعترف كاميشيف بقله خبرته أو أخطائه
المتعمدة. (أنطون تشيخوف).

(٩٧) راجع حاشية ١٠.

بعد عودتنا من الغابة، استغرق بولوجرادوف فترة طويلة في الاغتسال مجددًا وتغيير ثيابه، وطلب ماءً دافئًا مرة أخرى. بعد أن انتهى من كل ذلك، أعلن رغبته في استجواب أوربينين مجددًا. لم يقل بيتر يجوريتش البائس شيئًا جديدًا في هذا الاستجواب. كرّر إنكاره لأن يكون هو مُرتكب الجريمة، ولم يُعلّق بشيء على أدلتنا. قال هازًا كتفيه:

- مجرد الشك فيّ أمر يثير اندهاشي. أمر غريب!

قال له بولوجرادوف:

- لا تلعب دور الساذج يا عزيزي! لن تتوجه شكوكنا إلى أحد من دون سبب واضح، وإن توجهتْ شكوكنا إليك فهذا يعني أن لدينا أسبابًا لذلك.

- أيًا كانت الأسباب، ومهما كانت الأدلة قوية، يجب أن تفكروا بطريقة إنسانية. لا يمكنني أن أقتل أحدًا. هل تدركون ذلك؟ لا أستطيع... ما قيمة أدلتكم إذن أمام ذلك؟

لَوَّحَ الرفيق المدعي العام بيده قائلاً:

- حسنًا... اللعنة على هؤلاء المجرمين المثقفين! يمكن أن نجعل الفلاح يفهم، ولكن حاول أن تتحدث مع واحد من أولئك! لا يمكنني أن أفكر بطريقة إنسانية... فلنترك هذا لعلم النفس!

استاء أوربينين وقال:

- لستُ مجرمًا! أطلب منك أن تتحلّى بمزيد من الحذر في حديثك.

- اسكت يا عزيزي! ليس لدينا وقت للاعتذار لك والاستماع إلى

أسباب استيائك. لا تريد أن تعترف... حسنًا، لا تعترف، ولكن
اسمح لنا أن نعتبرك كاذبًا.

دمدم أوربينين:

- حسنًا! يمكنك أن تفعل بي ما تشاء. السلطة بين يديك.

أشاح أوربينين بيده، وواصل حديثه، ناظرًا عبر النافذة:

- كل شيء سيان بالنسبة لي... حياتي ضاعت بالفعل.

قلتُ:

- اسمع يا بيتر يجوريتش. بالأمس وأول أمس كنت حزيناً بدرجة
مريعة، حتى كنت تقف بصعوبة على قدميك المرتعشتين، وكنت
تجيب إجابات مقتضبة بصعوبة. أما اليوم، فعلى النقيض؛ تبدو
متورداً، بدرجة نسبية بالطبع، وتبدو مبتهجاً، بل إنك تنخرط في
الثرثرة. عادة لا يكون الحزاني على استعداد للتحدث، وعلاوة
على أنك تتحدث اليوم كثيراً، تعرب كذلك عن شكاوى تافهة.
ما تفسير هذا التغير الحاد؟

سألني أوربينين، محدقاً في عينيّ بسخرية:

- ما تفسيره من وجهة نظرك؟

- أفسّر ذلك بأنك نسيت دورك. يصعب على المرء أن يمثل لفترة
طويلة: إما ينسى الدور أو يمل.

ابتسم أوربينين ساخرًا وقال:

- هذا محض اختلاق في التحقيق، وهو يدل على براعتك... نعم،
أنت محق؛ طرأ عليّ تغيرٌ كبير.

- هل يمكنك أن تفسره لنا؟

- بالطبع، ليس لديّ سبب لأخفيه. بالأمس كان الحزن يميني
ويضغط عليّ بشدة إلى درجة أنني فكرت في الإجهاز على نفسي،
وإلا أصابني الجنون. لكنني استغرقت في التفكير اليوم ليلاً.
خطرْتُ على ذهني فكرة أن الموت خلّص أوليا من حياة منحلة،
وانتزعها من أيدي هذا الوغد القذرة؛ الوغد الذي دمرَ حياتي. أنا
لا أشعر بالغيرة من الموت. من الأفضل لأولجا أن تموت هي لا
الكونت. هذه الفكرة بعثت في قلبي السرور ودعمتني، ولم أعد
أشعر الآن بأي ثقل في قلبي.

تمتم بولوجرادوف، هارًا قدميه:

- اختلاق رائع! لا تعوزه أبدًا الإجابات.

- أشعر أنني أتحدث بصدق، ويدهشني أنكم -المثقفين- غير
قادرين على التمييز بين الصدق والتظاهر. بالرغم من ذلك فإن
التحيز شعور قوي جدًّا، يصعب على المرء ألا يخطئ تحت
تأثيره. أنا أفهم موقفكم، ويمكنني أن أتصور ماذا سيحدث
عندما تثقون في أدلتكم وبالتالي أحاكم. أتصور كيف ستضعون
في اعتباركم ملامحي الوحشية، وسُكري. في الحقيقة ليس لديّ
مظهر وحشي، لكن الإجحاف سيلعب دوره...

- حسنًا... حسنًا... فلنكتفِ بذلك. انصرف!

قال بولوجرادوف ذلك، ومال على أوراقه.

بانصراف أوربينين بدأنا في استجواب الكونت. جاء سعادته إلى الاستجواب في مبدله، وضمادة مبللة بالخل على رأسه. تعرفَ على بولوجرادوف، ثم غاص على مقعده، وبدأت إفادته.

- سأحكي لك كل شيء من البداية. كيف حال رئيسك ليونسكي الآن؟ ألم يُطلّق زوجته بعد؟ تعرفتُ عليه ذات مرة في بطرسبرج مصادفة. لماذا لم تأمرا أيها السيدان بأن يُقدّم إليكما شيء؟ يمكن للمرأة أن يتحدث بسرور في وجود الكونياك. لا يراودني أي شك في أن أوربينين هو من قتل أولجا.

حكى لنا الكونت كل ما يعرفه القارئ بالفعل. استجاب لطلب المدعي العام وحكى بأدق التفاصيل عن حياته مع أولجا، واصفًا مسرات العيش مع امرأة جميلة، وقد انجذب بشدة إلى التحدث عن هذا الموضوع، حتى ضغط على شفّتيه أكثر من مرة وغمز بعينه. بمراقبته أدركتُ تفصيلاً واحدة في غاية الأهمية لا يعرفها القارئ. عرفتُ أنه أثناء حياة أوربينين في المدينة أرسل إلى الكونت وإبلاً من الخطابات؛ سبّه في بعضها، وفي البعض الآخر توسل إليه أن يعيد إليه زوجته، متعهدًا بأن ينسى كل الإساءات والخزي، وعوّل المسكين على هذه الخطابات كالغريق الذي يتمسك بقشة.

بعد استجواب حوزيين أو ثلاثة، تناول الرفيق المدعي العام الغداء بشراهة، وقرأ لي التعليمات كاملة، ورحل. قبل رحيله عرج على الجناح

المُحتجز فيه أوربينين، وقال للأخير إن شكوكنا فيه قد تأكدت. أشاح أوربينين بذراعه، وطلب أن نسمح له بحضور جنازة زوجته، وسمح له المدّعي العام بذلك.

لم يكذب بولوجرادوف على أوربينين؛ فقد تأكدت شكوكنا حياله فعلاً. اقتنعنا أننا عرفنا القاتل، وأنه بين أيدينا فعلاً، لكن هذه القناعة لم تستمر طويلاً.

في أحد الصباحات الرائعة، بينما كنت أختتم طرداً، لكي يُرسل مع الحارس الذي سيصطحب أوربينين إلى السجن بالمدينة، سمعتُ ضجيجاً غريباً. نظرتُ من النافذة، ورأيتُ مشهداً مسلياً: كان عشرة شباب أقوياء يجرون كوزما الأعور من مطبخ الخدم.

ثبّت كوزما قدميه في الأرض، شاحباً، أشعث المنظر، ولأنهم أمسكوا بذراعيه، كان يضرب أعداءه برأسه. قال لي إيليا بانزعاج:

- أرجو سعادتكم أن تذهب إلى هناك. إنه لا يريد أن يأتي إلى هنا.

- مَنْ هو الذي لا يريد أن يأتي إلى هنا؟

- القاتل.

- أي قاتل؟

- كوزما... هو القاتل سعادتكم. بيتر يجوريتش مظلوم.

خرجت إلى الساحة، وتوجهتُ إلى مطبخ الخدم حيث كان كوزما قد تملص بالفعل من بين أيدي الشباب، يوجه الصفعات يميناً ويساراً. اقتربتُ منهم وسألتُ:

- ما الأمر؟

حينها حكوا لي أمراً غريباً ومفاجئاً.

- كوزما هو القاتل سعادتك.

صرخ كوزما:

- إنهم كاذبون! فليُمتني الله إن لم يكونوا كاذبين!

- ولماذا كنت تغسل الدماء يا ابن الأبالسة طالما أن ضميرك

صافٍ؟ انتظر وسيعرف سعادته كل شيء.

كان حارس الغابة تريفون يمر بالقرب من النهر، ولاحظ أن كوزما يغسل شيئاً ما بكد. ظن تريفون في البداية أن كوزما يغسل ثيابه الداخلية، لكنه بعد أن أمعن النظر، تبين أنه يغسل معطفاً وسترة داخلية^(٩٨). بدا له الأمر غريباً، فهذه النوعية من الثياب لا تُغسل عادة بهذه الطريقة. صاح تريفون:

- ماذا تفعل؟

ارتبك كوزما. ألقى تريفون نظرة أخرى عن قرب، فلاحظ بقع دم على السترة الداخلية.

أدركت حينها أنها بقع دماء. توجهتُ إلى المطبخ وحكيت للبقية. راقبوه ورأوا كيف كان يجفف السترة الداخلية ليلاً في الحديقة. شعروا بالخوف بالطبع. لماذا توجب عليه أن يغسلها إن لم يكن هو المذنب؟ طالما قد اختبأ فلا بد أنه ارتكب جرماً. استغرقنا في التفكير ثم جلبناه

(٩٨) نوع من السترات كان الفلاحون والحوزية الروس يرتدونه عادة.

إلى سعادتك. كنا نجره لكن يحاول التملص من أيدينا ويصق علينا.
لماذا حاول التملص إن لم يكن مذنباً؟

تبين من الاستجواب بعد ذلك أن كوزما توجه إلى الغابة قبل ارتكاب الجريمة مباشرة، في الوقت الذي خيّم فيه الكونت وضيوفه على أطراف الغابة وشربوا الشاي. لم يشارك في حمل أولغا، وبالتالي لم يكن من المفترض أن يكون ملطخاً بالدماء.

جلبوه إلى غرفتي. في البداية لم يستطع كوزما أن يقول كلمة واحدة من فرط الاضطراب، وظلت عينه الوحيدة تدور في محجرها، ورشم علامة الصليب وأخذ يدمدم ويُقسم. قلت له:

- اهدأ واحك لي، وسوف أطلق سراحك.

ارتمى كوزما على قدمي وأخذ يدمدم ويقسم...

- فلأمت إن كنتُ أنا ال... فليمت أبي وأمي إن كنتُ أنا ال....
سعادتك! فليقبض الله روعي لو كنتُ أنا القاتل.

- هل ذهبت إلى الغابة؟

- هذا صحيح يا سيدي... لقد ذهبتُ... جلبت الكونياك للسادة، وعذراً... شربتُ مقداراً قليلاً. دارت رأسي وأردتُ أن أستلقي، فذهبتُ واستلقيت وغفوتُ. أما من القاتل وكيف قُتل، فلا أعرف ذلك ولم أره. أجهل ذلك. أقول لك الحقيقة.

- ولماذا كنتُ تغسل الدماء؟

- خفت أن يظن الناس أنني... خفت أن أؤخذ كشاهد.

- وما مصدر الدماء التي على سترتك الداخلية؟
- لا أعرف، سعادتكم.
- كيف لا تعرف؟ أليست تلك السترة الداخلية لك؟
- نعم إنها سترتي، لكنني لا أعرف. رأيت دماءً عليها عندما استيقظت.
- أتعني أنك لطّخت سترتك بالدماء أثناء نومك؟
- بالضبط.
- حسناً، انصرف يا أخي الآن، وفكّر في الأمر مجدداً، فما تقوله محض هراء. قُل لي غداً... انصرف!
- عندما استيقظت في اليوم التالي أخبروني أن كوزما يريد التحدث معي. أمرت بإحضاره.
- هل أعدت التفكير؟
- نعم.
- من أين أتت الدماء إلى سترتك الداخلية؟
- أذكر الأمر سعادتكم بصورة ضبابية، كما لو أنني أحلم، ولا يمكنني التيقن مما إن كان ما أذكره صحيحاً أم لا.
- ماذا تتذكر؟
- رفع كوزما عينيه، وفكّر، وقال:
- أمر غريب... كما لو أنه في حلم أو وسط ضباب. أستلقي ثملاً على العشب، وأناام، لكنني لا أنام تماماً. أسمع أحدهم يسير

بجانبي، وقدماه تدقان الأرض بقوة. أفتح عيني وأرى المنظر كما لو أنها رؤية أو حلم. يقترب أحدهم مني، وينحني، ويجفف يده في ثيابي؛ يمسح يده في سترتي الداخلية أولاً، ثم يلطخ صدرتي.

- مَنْ هذا السيد؟

- لا أعرف. كل ما أتذكره أنه لم يكن فلاحًا، بل سيد. يرتدي ثياب سادة. أما مَنْ هو، أو ما ملامح وجهه، فذلك ما لا أستطيع أن أتذكره تمامًا.

- ماذا كان لون ثيابه؟

- الله أعلم! ربما كانت ثيابه بيضاء، وربما كانت سوداء. كل ما أتذكره هو أنه كان سيّدًا وحسب. آه تذكرت! مال عليّ، ولطخ يدي بالدماء وقال: «أيها الخنزير الثمل!».

- هل حلمتُ بذلك؟

- لا أعرف. ربما يكون حلمًا، ولكن لو كان حلمًا، من أين أتت الدماء إذن؟

- هل السيد الذي رأيته يشبه بيتر يجوريتش؟

- أظن أنه لم يكن هو. ولكن ربما كان هو! ولكن بيتر يجوريتش لم يكن لينعتني بالخنزير.

- حاول أن تتذكر. اذهب! تذكر! ربما تتذكر شيئًا ما.

- حسنًا.

تسببت غزوة كوزما الأعور المفاجئة لأمر كان قد انتهى تمامًا في

ولو جئنا داخل متاهة يصعب الخروج منها. تهتُّ، ولم أعرف كيف يجب أن أُقيِّم أقوال كوزما. لقد نفى التهمة عن نفسه تمامًا، بالإضافة إلى أن التحقيقات الأولية لم تكن تؤيد إلقاء التهمة على كاهله من حيث الآتي: لم تُقتل أولجا بهدف السرقة ولا من أجل الاعتداء على شرفها بحسب رأي الأطباء. ربما كان بإمكاننا سابقًا أن نفترض أن كوزما قتلها، ولم يسرقها أو يعتدي عليها لسبب واحد؛ أنه كان ثملًا تمامًا وفقد قدرته على التفكير، أو ربما خشي ألا يتلاءم ذلك مع فعلة القتل!

ولكن إن لم يكن كوزما هو المذنب، فلماذا إذن لم يوضح سبب تلطخ سترته الداخلية بالدماء؟ ولماذا اختلق مثل ذلك الهذيان وتلك الأحلام؟ ما الذي دفعه إلى التحدث عن ذلك السيد الذي يقول إنه رآه وسمعه، لكن في الآن ذاته لا يتذكر لون ثيابه؟

جاء بولو جرادوف مجددًا. قال:

- أرايت يا سيد؟ لو كنت قد فحصت مسرح الجريمة في وقتها، لكان كل شيء قد اتضح لنا كراحة اليد! لو كنت قد استجوبت كافة الخدم فورًا لعرفنا من حمل أولجا نيكولايفنا ومن لم يشارك في حملها. أما الآن، لا يمكننا حتى أن نحدد المسافة التي فصلت بين مكان الحادث ونوم هذا السكّير.

ظل يعتصرُ كوزما في استجواب طال ساعتين، لكن الأخير لم يخبره شيئًا جديدًا. قال إنه كان في حالة بين اليقظة والنوم عندما رأى ذلك السيد، وإن الأخير جفَّف يده في ثيابه ونعته بالـ «الخنزير الثمل» لكنه لم يقل من هو ذلك السيد أو ما ملامح وجهه أو شكل ثيابه.

- كم مقدار الكونياك الذي شربته؟
- شربتُ نصف زجاجة.
- ربما لم يكن كونياك؟
- لا يا سيدي... شامبانيا فنلندية حقيقية.
- ضحك الرفيق المدعي العام قائلاً:
- آه، وتعرف كذلك أنواع الخمور جيداً!
- وكيف لا أعرفها جيداً؟! لقد خدمتُ السادة -والحمد لله- ثلاثين عاماً، وبالتالي حظيت بالوقت الكافي لأتعلم أنواعها.
- لسبب ما رأى الرفيق المدعي العام أنه يجب أن يواجه كوزما بأوربينين. ظل كوزما يحدق طويلاً في أوربينين، ثم هز رأسه وقال:
- لا، لا أذكر. ربما كان بيتر يجوريتش، وربما لم يكن هو. الله أعلم!
- أشاح بولوجرادوف بذراعه ورحل، تاركاً لي أمر التعرف على القاتل الحقيقي من بين الاثنين.
- استمر التحقيق. تم التحفظ على أوربينين وكوزما في سجن القرية التي أسكن فيها. انخفضت الروح المعنوية لبيتر يجوريتش البائس بدرجة مريعة. هزل وشحب، وسقط أسيراً لحالة مزاجية دينية. طلب مني مرتين أن أرسل إليه قوانين العقوبات، وكان من الواضح أنه أراد أن يعرف حجم العقوبة التي تنتظره.
- سألني أثناء أحد تحقيقاتي معه:

- وماذا سوف يحدث لطفلي؟ لو كنت بمفردي لما سبب لي
خطؤك بلية كبيرة، لكنني في حاجة إلى العيش... العيش من أجل
طفلي! سوف يهلكان من دوني، بالإضافة إلى أنني... لست قادرًا
على مفارقتهما. ماذا سوف تفعل بي؟

عندما بدأ الحارس يخاطبه بصيغة المفرد، وعندما اضطر إلى السير
مرتين من قريتي إلى المدينة، ذهابًا وإيابًا، تحت الحراسة، على مرأى من
معارفه، أصابه اليأس تمامًا، وبدأ يهتاج. صاح ذات مرة في السجن كله:

- هؤلاء ليسوا رجال قانون! ليسوا سوى صبية قُساة بلا قلب،
لا يرحمون الناس ولا يبالون بالحقيقة. أعرف لماذا أنا هنا...
أعرف! باتهامي يريدون أن يتستروا على المذنب الحقيقي.
الكونت هو القاتل، وإن لم يكن هو، فلا بد أنه استأجر القاتل.

عندما عرف أمر اعتقال كوزما، أبدى في البداية دهشة شديدة. قال

لي:

- ها قد ظهر القاتل المأجور! ها قد ظهر!

لكن عندما عرف أنه لم يُطلق سراحه، وعندما أخبروه بفحوى
شهادة كوزما، سرعان ما سقط في حزنه مجددًا. قال:

- لقد ضعت... ضعت تمامًا. آجلًا أم عاجلاً سيقول هذا الشيطان
الأعور المدعو كوزما إنني القاتل، حتى يفارق سجنه، وسيؤكد
أنني من جففت يدي من الدماء في ثيابه. لكنكم رأيتم بأنفسهم
أن يدي لم تكونا جافتين بل ملطختين بالدماء!

- آجلاً أم عاجلاً كان لا بد لشكوكنا أن تُحسم.

في نهاية نوفمبر من ذلك العام، عندما بدأت ندف الثلج تُطوّق نوافذي، وبدأت البحيرة كصحراء بيضاء لا نهائية، طلب كوزما أن يراني. أرسل إليّ مع الحارس رسالة مفادها أنه حل الأمر. أمرتهم بإحضاره. التقيته قائلاً:

- أنا سعيد جداً بأنك حسمت الأمر. حان الوقت لتنحية الأسرار بعيداً، وجذبنا من أنوفنا كالأطفال الصغار. إلامَ توصلت؟

لم يُجب كوزما. ظل واقفاً في منتصف غرفتي صامتاً، محدقاً فيّ، دون أن تطرف عيناه. لاح الخوف في عينيه. بدا كإنسان مرتعب جداً. كان شاحباً، مرتعشاً، وقد سال عرق بارد على وجهه. كرّرت سؤالاً مجدداً:

- قُل لي إلامَ توصلت؟

- توصلتُ إلى شيء لا يوجد أغرب منه. بالأمس تذكرتُ شكل ربطة العنق التي ارتداها ذلك السيد، وأمعنت التفكير ليلة اليوم حتى تذكرت وجهه أيضاً.

- ومن هو؟

ابتسم كوزما بطريقة مَرَضِيَّة، ومسح العرق من على جبهته وقال:

- يريعي أن أقول ذلك سعادتك... اسمح لي ألا أقول مَنْ هو. الأمر غريب ومذهل إلى درجة الألم، إلى درجة أنني أشعر أنني حلمتُ بكل ذلك أو اختلقته.

- ولكن مَنْ تظن أنه هو؟

- اسمح لي ألا أقول اسمه. إن قلتُ اسمه، سوف تدينني... اسمح لي أن أعيد التفكير وأقول لك غداً. الأمر مخيف.
غضبتُ وقلتُ:

- أف! لماذا تزعجني إذن طالما لا تريد التحدث؟ لماذا جئتُ إلى هنا؟

- ظننت أنني سوف أقول، ولكنني الآن أشعر بالخوف. لا سعادتكم...
دعني أعود الآن، وسيكون من الأفضل أن أقول لك غداً. إن قلتُ الآن، ستغضب مني وسترسلني إلى سيبيريا^(٩٩)، وتدينني.

غضبتُ، وأمرت بأن يأخذوا كوزما بعيداً عن وجهي^(١٠٠). في مساء ذلك اليوم، أردتُ ألا أضيّع الوقت، وأحسم الأمر تمامًا، لذا توجهتُ إلى السجن، وخذعتُ أورينين قائلاً إن كوزما اعترف بأنه -أي أورينين- هو القاتل. أشاح أورينين بذراعه قائلاً:
- توقعتُ ذلك. الأمر بالنسبة لي سيان.

أثر الحبس الانفرادي بشدة على قوة أورينين الهائلة كقوة الدب؛ اصفر وجهه، وفقد نصف وزنه تقريباً. وعدته بأن أجعل الحراس يتركونه يتمشى في الرواق نهاراً، بل وليلاً أيضاً. قلتُ له:

(٩٩) كانت الكثير من السجون والمعتقلات إبان الحقبة القيصريّة والسوفييتيّة في سيبيريا، حيث تصل البرودة إلى درجات مخيفة.

(١٠٠) كم يبدو محققاً جيداً! يغضب بدلاً من مواصلة الاستجواب واستخراج الدليل المهم! والغضب هنا ليس من مهام المحقق. بالإضافة إلى ذلك، لا أثق بدرجة كبيرة في كل ذلك. حتى لو لم يكن السيد كاميشيف مهمّماً بالأمر على الإطلاق، لا بد أنه كان سيواصل السؤال، بدافع الفضول البشري وحسب. (أنطون تشيخوف).

- لا نخشى أن تحاول الهروب.

شكرني أوربينين، وتمشى فعلاً في الرواق بعد انصرافي، بل إنهم تركوا بابه مفتوحاً.

بعدما تركته، طرقتُ على باب زنزانة كوزما. سألته:

- هل حسمتَ أمرك؟

تناهى إلى صوت ضعيف:

- لا يا سيدي. دع المدعي العام يأتي وسأخبره بكل شيء، لكنني لن أخبرك شيئاً.

- كما تشاء.

حُسم كل شيء في صباح اليوم التالي.

هرع الحارس يجور إليّ وأخبرني بأنهم وجدوا كوزما الأعور ميتاً على فراشه! توجهتُ إلى السجن وتأكدتُ من الأمر بنفسي. الفلاح القوي صحيح البدن، الذي كان في تمام العافية بالأمس، و اخترع حكايات عديدة لتطلق سراحه، بدا أمام عيني ساكناً، بارداً كحجر. لن أصف مدى الهلع الذي أصابني أنا والحارس، فالأمر مفهوم للقارئ. كان كوزما مهماً بالنسبة لي كمتهم وشاهد على السواء، وبالنسبة للحراس كان سجيناً، يؤدي موته أو هروبه إلى تعرضهم إلى عقوبة قاسية. ازداد هلعنا كذلك؛ لأن تشريح جثمانه كشف عن ميتة عنيفة. مات كوزما مختنقاً. بحثتُ عن المتهم بتلك الجريمة، ولم يطل بحثي طويلاً. كان المجرم قريباً.

توجهتُ إلى زنانة أوريينين، ولم أستطع أن أكبح جماح نفسي،
متناسياً أنني محقق، وقلت له إنه أقسى وأعنف القتلة. قلتُ:

- لم يكفك أيها الوغد موت زوجتك البائسة، بل أردت أن تقتل
شخصاً آخر أدانك! وبعد كل ذلك تواصل دورك الكوميدي
الخاص الملائم لصّ قذر.

شحب وجه أوريينين، وبدأ يرتجف. صاح، ضارباً صدري بقبضته:
- أنت كاذب.

- أنا لا أكذب عليك. لقد سكبت دموع التماسيح على أذلتنا،
وهزأت بنا. مرّت لحظات أردتُ فيها أن أصدقك فيها أكثر من
تصديقي للأدلة... آه، يا لك من ممثل ماهر! لكنني لن أصدقك
الآن، حتى لو سالت الدماء من عينيك بدلاً من هذه الدموع
التمثيلية الزائفة. تكلم... هل قتلت كوزما؟

- إما إنك ثمل وإما إنك تسخر مني. سيرجيه بتروفيتش... ثمة
حدود للاحتمال والإذلال. لن أحتمل ذلك!

وضرب أوريينين الطاولة بقبضته، بعينين مشعتين. واصلتُ حديثي:
- كنت متهوراً بالأمس إلى درجة أن منحتك حرية لا ينعم بها بقية
المقبوض عليهم؛ حرية التمشي في الرواق. ويبدو أنك شكرتني
الشكر الملائم، فذهبت ليلاً إلى زنانة كوزما المسكين وخنقته
أثناء نومه. فلتعلم أنك لم تُهلك كوزما وحده، بل سيضيع
الحارس بسببك هو الآخر.

قال أوربينين، ممسكاً برأسه:

- ما الذي فعلته يا إلهي؟

- أتريد دليلاً على ذلك؟ كان بابك مفتوحاً بحسب أوامري. فتح الحارس الأحمق الباب ونسي إخفاء القفل. لكل الزنازين هنا القفل ذاته. أخذت مفتاح قفلك ليلاً، وتسلفت إلى الرواق، وفتحت باب زنزانة زميلك. خنقته ثم أغلقت باب زنزانته، وأعدت المفتاح إلى قفلك.

- ولماذا أخنقه؟ لماذا؟

- لأنه اعترف بأنك القاتل. لو لم أبلغك بالأمس بهذا الخبر، لظل حيّاً. يا لخطيتك وعارك يا بيتر يجوريتش!

تحدّث القاتل فجأة بلهجة ناعمة رقيقة، مُمسكاً بذراعي:

- سيرجيه بتروفيتش... أيها الشاب... أنت إنسان شريف ومحترم. لا تُحطّم نفسك وتُدنّسها بشكوك زائفة وتُهم طائشة! أنت لا تتصور مدى القسوة والألم الذين أسأت بهما إليّ، حيث حمّلت روحي البريئة بتهمة جديدة! أنا شهيد يا سيرجيه بتروفيتش! فلتخش الإساءة إلى شهيد! سيأتي وقت تضطر فيه إلى الاعتذار لي، وسيأتي هذا الوقت سريعاً. لا يمكنك أن تود اتهامي فعلاً! لكن ذلك الاعتذار لا يروق لك. بدلاً من أن تنقض عليّ وتسيء إليّ بهذه الطريقة المريعة، سيكون من الأفضل أن تستجوبني بطريقة إنسانية. أقول بإنسانية، ولا أقول بطريقة ودية، فقد قضيت

بالفعل على علاقتنا الجيدة. بصفتي شاهدك ومعاونك يمكنني أن أجلب للعدالة نفعاً أكبر من التعامل معي بصفتي متهماً. إن أخذنا هذه الجريمة الجديدة مثلاً، فبإمكانني أن أخبرك بالكثير. لم أنم ليلاً وسمعتُ كل شيء.

- ماذا سمعت؟

- في الثانية بعد منتصف الليل كانت الظلمة حالكة، وإذا بي أسمع شخصاً يسير بهدوء في الرواق، يلمس باب زنزاني، ثم يسير ويسير، ثم يفتح باب زنزاني ويدخل.

- مَنْ هو؟

- لا أعرف. كانت الظلمة حالكة. لم أراه. وقف في زنزاني لدقيقة ثم خرج، ثم فعل ما وصفته بالضبط. أخرج المفتاح من قفل زنزاني، وفتح باب الزنزانة المجاورة. بعد حوالي دقيقتين سمعت حشرة ثم ضجيجاً. ظننتُ أنه الحارس، يسير ويشير ضجيجاً، وظننتُ الحشرة شخيراً، وإلا لكنت قد أثرتُ ضجيجاً.

قلتُ:

- تلفيق! لا أحد غيرك هنا قتل كوزما. نام الحراس المناوبون. كشفتُ زوجة واحد منهم، لم تنم طوال الليل، عن أن الحراس الثلاثة قد غرقوا في نوم ثقيل جداً، ولم يفارقوا أسرتهن لدقيقة. لم يعرف المساكين أنه بالإمكان أن تظهر بعض الوحوش في

مثل ذلك السجن البائس! لقد خدموا هنا لأكثر من اثني عشر عامًا، ولم تحدث طوال تلك المدة حادثة هروب واحدة، ناهيك عن هذا المستوى من الخسة الذي يصل إلى القتل. أما الآن، فقد انقلبت حياتهم بفضلك رأسًا على عقب. وذلك ما سيصيني أنا أيضًا جزاءً لي على أنني لم أضعك في زنزانة مغلقة، وتركتُ لك حرية التجول في الرواق. شكرًا لك!

كان ذلك حديثي الأخير مع أوربينين. لم أتحدث معه أبدًا بعد ذلك، باستثناء إجابتي عن السؤالين أو الثلاثة التي طرحها عليّ وهو في قفص الاتهام.

يشير عنوان روايتي إلى إنها رواية جريمة، أما الآن، وبعد أن تعقدت جريمة مقتل أولجا أوربينينا^(١٠١) بارتكاب جريمة جديدة، بطريقة غامضة وغير مفهومة من عدة جوانب، سيستظر القارئ أولاً أن تصل الرواية إلى أكثر مراحلها إمتاعًا وإثارة. يُشكّل الكشف عن المجرم ودوافع الجريمة حقلاً واسعاً لإظهار حدة الذكاء والمرونة الفكرية. هنا تخوض الإرادة الشريرة والخبث حرباً ضد المعرفة، وهي حرب مثيرة من كافة جوانبها.

خضتُ حرباً، والقارئ ينتظر مني أن أصف أولاً الوسائل التي مكّنتني من إحراز النصر، ولا بد أنه في انتظار التفاصيل الدقيقة الخاصة

(١٠١) في روسيا تنسب المرأة إلى اسم أبيها قبل الزواج، وإلى اسم زوجها بعد الزواج، بإضافة بسيطة. أولجا أوربينينا هي إذن أولجا نيكولايفنا.

بالتحقيق، التي تمتلئ بها روايات جابوريو وشكلياريفسكي^(١٠٢)، وأنا جاهز لتلبية ما انتظره القارئ، ولكن... ولكن واحدة من الشخصيات الرئيسة تفارق ساحة المعركة، دون أن تنتظر نهايتها، ولذلك لا يجعلونها شريكة في النصر. كل ما فعلته سابقاً يضيع هباءً، وتذهب إلى حشود المتفرجين. هذه الشخصية الرئيسة هي خادمكم المتواضع. في اليوم التالي لذلك الحديث الذي وصفته سابقاً مع أوربينين، وصلّني دعوة، أو بالأحرى وصلّني أمر بأن أُقدّم استقالتي. لعبتُ الأقاويل والشائعات التي دارت في مقاطعتي دورها. ساهمتُ أمور كثيرة في إعداد الطريق لإقالاتي، منها حادثة القتل التي تمت داخل السجن، والمعلومات التي جمعها الرفيق المدعي العام من الخدم خفية عني. إذا كان القارئ لا يزال يتذكر، فأنا أشير إلى الضربة التي وجّهتها إلى الفلاح بالمجداف على رأسه في إحدى نوبات العريضة الصاخبة. صعدَ الفلاح الأمر، واتخذت إجراءات قوية. في غضون يومين تقريباً توجّب عليّ أن أسلم قضية القتل لمحقق مختص في القضايا الهامة.

بفضل الأقاويل والأحاديث الصحفية اضطر المدعي العام إلى إبداء أقصى اهتمام بالقضية. في غضون يوم تقريباً وصل المدّعي العام إلى ضيعة الكونت، وشارك في التحقيقات بنفسه. أرسلتُ تقارير أطبائنا إلى الإدارة الطبية ثم إلى من هو أعلى منها. بل إن أحاديث دارت حول إخراج الجثث من مدفنها وإعادة فحصها، الأمر الذي لم يكن ليؤدي إلى شيء بالمناسبة.

(١٠٢) راجع حاشية ٤.

جلبوا أوربيين مرتين إلى عاصمة المقاطعة لفحص سلامة قواه العقلية، وفي المرتين أقر الفحص بأنه سليم العقل. أصبحت واحدًا من الشهود^(١٠٣). أبدى المحققون الجدد حمية شديدة إلى درجة أن خادمي بوليكارب قد جروه هو أيضًا إلى زمرة الشهود.

بمرور عام على استقالتي، وبينما كنتُ أحيًا في موسكو، وصلني أمر بالمشول أمام المحكمة لسماع أقوالي بشأن قضية أوربيين. سعدتُ بأن الفرصة ستتاح لي لمشاهدة الأماكن التي كنت منجذبًا إليها بحكم العادة. سافرتُ. أما الكونت، وكان يعيش حينها في بطرسبرج، لم يسافر، وأرسل شهادة طبية تُبرّر غيابه.

نُظرت القضية من قبل محكمة مقاطعتنا. تولى بولوجرادوف الادعاء العام فيها؛ ذلك الرجل الذي كان ينظف أسنانه أربع مرات بمعجون أحمر، وتولى الدفاع سميرنيايف، وهو رجل طويل القامة نحيل، أشقر، ذو قسمات وجه عاطفية، وشعر طويل ناعم. امتلأت هيئة المحلفين بصغار البرجوازيين والفلاحين، ولم يكن منهم مَنْ يجيد القراءة والكتابة سوى أربعة، أما البقية، حين أعطوهم خطاب أوربيين لزوجته ليفحصوه، تعرقوا وارتبكوا. كان رئيسهم هو إيفان ديميانيتش، صاحب المتجر الذي سُمّي ببغائي الراحل على اسمه.

بدخولي قاعة المحكمة، لم أتبين أوربيين. شاب جسده وهرم تمامًا، كما لو أن عشرين عامًا قد مرّت عليه. توقعتُ أن أقرأ على

(١٠٣) وهو دور أكثر ملائمة لكاميشيف بالطبع من دور المحقق. لم يكن بإمكانه أن يكون محققًا في قضية أوربيين. (أنطون تشيخوف).

وجهه لا مبالاته بالقضية، وعدم اكترائه بالأمر، لكن خابت توقعاتي. كان أوربينين يتابع المحكمة بحرارة. استطاع إبعاد ثلاثة من المحلفين عن المجلس، وقَدَّم تفسيرات طويلة، واستجوب الشهود، وأنكر ذنبه تمامًا، واستجوب كافة الشهود الذين لم يؤيدوا شهادته استجوابًا طويلًا جدًا.

كشف بشيخوتسكي في شهادته إلى المحكمة عن علاقتي بالراحلة أولجا. صاح أوربينين:

- هذا كذب! إنه كاذب. صحيح أنني لا أثق في زوجتي، لكنني أثق به (١٠٤).

عندما قَدَّمت شهادتي، سألني محامي الدفاع عن حقيقة علاقتي بأولجا، وعرض عليَّ شهادة بشيخوتسكي عن الواقعة التي صَفَّقَ فيها لي. قول الحقيقة كان يعني أن أقدم شهادة في صالح المتهم. كلما بدت زوجته أكثر انحلالًا، ازداد تعاطف المحلفين مع الزوج الذي يشبه عطيل. أدركتُ ذلك جيدًا. من ناحية أخرى، كانت الحقيقة ستسيء لأوربينين. لو استمع إليها كان سيشعر بألم لا يوصف. رأيتُ أنه من الأفضل أن أكذب. قلتُ:

- لا.

شدَّد ممثل الادعاء في حديثه الذي وصف فيه جريمة قتل أولجا بألوان ساطعة، على الطبيعة الوحشية للقاتل، ومدى شره. قال: «عجوز

(١٠٤) يقصد بالراوي (كاميشيف).

أشعث شهبواني، رأى فتاة جميلة وشابة. أدرك مدى بشاعة وضعها في منزل أبيها المجنون، فغرّر بها بلقمة العيش والسكن وبعض خرق الثياب الملونة. وافقت، وقالت في نفسها إن العيش مع زوج عجوز ثري سيكون في كل الأحوال أكثر احتمالاً من العيش مع أبيها المجنون وسط الفقر المدقع. لكنها شابة، وللشباب يا حضرات المحلفين حقوق لا يمكن خرقها. فتاة قد ترعرعت على الروايات الرومانسية، وعاشت وسط أحضان الطبيعة، لا بد أن تسقط في الحب عاجلاً أم آجلاً...»، وأشياء من هذا القبيل. ويُنتهي حديثه بـ «ذلك الذي لم يقدم لها شيئاً سوى شيخوخته وبعض الخرق الملونة، عندما رأى فريسته تنسل من بين يديه، احتاج كوحش قُربوا قضياً ساخناً إلى أنفه. أحبها كوحش، وكان عليه أن يكرهها كوحش»... إلخ.

أشار بولوجرادوف في اتهامه أوربينين بقتل كوزما إلى تلك الطرق اللصوصية المدروسة التي لجأ إليها بتمعن وتركيز في قتل «ذلك النائم الذي لم يكن حكيماً في الإعلان عن اتهامه له عشية اليوم السابق. أظن أنه لا يراودكم أي شك في أن كوزما أراد أن يحكي للمدعي العام عن ذلك الأمر تحديداً».

لم يُنكر محامي الدفاع سميرنيايف ذنب أوربينين، لكن كل ما طلبه هو الاعتراف بأن أوربينين قام بذلك تحت تأثير سورة الغضب، وأنه يستحق حكماً مخففاً. وصف المحامي عذاب شعور موكله بالغيرة، واستدعى مسرحية عطيل لشكسبير إلى حديثه. ألقى نظرة على هذا

النمط الإنساني العام من كافة الجوانب، مستشهدًا باقتباسات من نُقَّاد مختلفين، وهام وسط تلك الأدغال، حتى توجَّب على القاضي أن يوقفه بالإشارة إلى أن معرفة الأدب الأجنبي لا تهم هيئة المحلفين.

استفاد أوربيني من أن الكلمة الأخيرة كانت له، وأشهد الله على ضميره بأنه غير مذنب، لا على مستوى الفعل ولا على مستوى الفكر:

- بالنسبة لي شخصيًا، لن يختلف الأمر أن أذهب إلى مقاطعتي حيث يُدكَّرني كل شيء بخزيي الذي لا أستحقه وزوجتي، أو إلى الأشغال الشاقة، ولكن ما يُعذِّبني هو مصير طفلي.

وبعد أن التفت صوب الجمهور، بكى وطلب منهم أن يرعوا طفليه. خذوهم. لن يدع الكونت بالطبع الفرصة تفوته ليتباهى بشهامته، لكنني حدَّرت طفليَّ بالفعل من أن يأخذا منه كسرة خبز واحدة.

وعندما تبينني وسط الحضور، نظر إليَّ بعينين متوسلتين وقال:

- احم طفليَّ من إحسان الكونت.

لا بد أنه نسي الحُكم المُزْمَع إصداره، وانخرط تمامًا في التفكير في طفليه. ظل يتحدث عنهما حتى أوقفه القاضي.

لم يطل اجتماع أعضاء هيئة المحلفين. حكموا بأن أوربيني مذنب قطعًا، دون وجود أي عذر لتخفيف الحكم من أي زاوية.

حُكِم عليه بتجريدته من كافة حقوقه المدنية، كما حُكِم عليه بالسجن والأعمال الشاقة لمدة ١٥ عامًا.

وهكذا دفع ثمنًا غاليًا مقابل لقائه بتلك الفتاة الشاعرية «ذات الرداء الأحمر» في أحد صباحات مايو.



مرّت على تلك الأحداث حوالي ثمانية أعوام. مات بعض الذين شاركوا في أحداث هذه المسرحية، وتحللت جثثهم، بينما يتحمل فريق آخر عقوبة خطيتهم، ولا يزال فريق ثالث يشق طريقه بصعوبة وسط هذه الحياة، مناضلاً ضد ملل الروتين، منتظرًا الموت بين يوم وآخر.

تغيّرت الكثير من الأمور إبان تلك الأعوام الثمانية... الكونت كارنيف الذي لم يتوقف عن إبداء أخلص درجات الصداقة صوبي، غرق في حالة سُكر دائمة. انتقلت ضيعته، التي شكّلت الخشبة التي دارت فوقها تلك المسرحية، إلى يد زوجته وبشيخوتسكي. الكونت الآن فقير، وأنا من أعياله. يحب أحيانًا، قرابة المساء، مستلقيًا على الأريكة بغرفتي، أن يتذكر الماضي. يتمم:

- كم كان سيحسن أن نستمع إلى أغاني الغجر الآن! أرسل يا سيريوجا في طلب بعض الكونياك!

أنا أيضًا تغيرت. قواي تفارقت تدريجيًا، وأشعر بالصحة والشباب ينسلان من جسدي. لم تعد لديّ تلك القوة الجسدية والخفة والقدرة على التحمل التي كنت أتباهى بها يومًا ما، حينما كنت أظل مستيقظًا لعدة أيام، وأشرب كمية من الخمر لا يمكنني الآن أن أرفعها إلا بصعوبة.

يوم تلو الآخر، تظهر التجاعيد على وجهي، ويتناقص شعري ويجف صوتي ويضعف. لقد انقضت الحياة...

أتذكر الماضي كما لو أنه يوم أمس. أرى بعض الأماكن والأشخاص كما لو أنهم خلف ضباب. ليست لديّ قوة لتعامل معهم دون تحيز. أحبهم وأكرهم بنفس الدرجة السابقة، ولا يمر يوم دون أن يستولي على رأسي شعور الغضب أو الكراهية. لا يزال الكونت بالنسبة لي فاسدًا، كما كان بالماضي، وأولجا مقززة، وكالينين مثير للسخرية باختياله البليد. أنظر إلى الشر بوصفه شر، والخطية بوصفها خطية.

ولكن تمر عليّ أحيانًا بعض اللحظات حينما أنظر إلى صورة على طاولتي، وأشعر برغبة لا تُقاوم في التمشي بصحبة «ذات الرداء الأحمر» في الغابة، وسط حفيف الصنوبر، وأن أضمها إلى صدري، رغم كل شيء. في هذه اللحظات أصفح عن الكذب والسقوط في هاوية قدرة، وأكون مُستعدًا لمسامحة كل شيء من أجل أن يُعاد ولو جزء ضئيل من الماضي. يُنهكني ملل المدينة، وأرغب لو تتاح لي الفرصة مجددًا لأستمع لزئير مارد البحيرة، والتنزه على ضفتها فوق ظهر زوركا. كنت لأسامح وأنسى كل شيء من أجل أن تُتاح لي فرصة التمشي على طريق تينيفو مجددًا، ولقاء فرانس البستاني، وبصحبه دلاؤهُ المليئة بالفودكا، وقبعته فوق رأسه. تمر عليّ لحظات أكون فيها مستعدًا حتى إلى تقبيل يد الإنسان الطيب بيتر يجوريتش (أوربينين) الملطخة بالدماء، وأتحدث معه عن الدين والغلة والتعليم الشعبي. تمر عليّ لحظات أود فيها لو ألتقي بعفريتي العزيز ومعه نادينكا.

الحياة مسعورة، فاجرة، ومضطربة كبحيرة في ليلة من ليالي
أغسطس... وارت تحت ستر أمواجها المظلمة الكثير من الضحايا،
وترسب في أعماقها ثقل ثقيل.

ولكن لماذا أحبها إذن في أوقات معينة؟ لماذا أسامحها، وأعذب
روحي من أجلها، كابن لطيف، كطائر، أُطلق من قفصه؟

تذكرني الحياة التي أراها الآن عبر نافذة الحجرة بدائرة رمادية...
لون رمادي، دون أي ظلال أو بريق لامع...

ولكن عندما أغلق عيني، وأتذكر الماضي، أرى قوس قزح الذي
يُشكِّله طيف الشمس... نعم، يبدو المنظر عاصفًا، لكنه في الآن ذاته
أكثر بريقًا!

س. زينو فييف.

تمت

في آخر المخطوطة مكتوب الآتي:

إلى السيد المحرر الكريم: أود لو تنشر الرواية المقترحة (أو القصة إن شئت تسميتها كذلك)، ولكن دون إجراء أي حذف أو اختصار أو إضافة بقدر الإمكان. لكن بالإمكان إجراء التعديلات في حالة موافقة المؤلف وحسب. في حالة ألا تروق لك، أطلب منك أن تعيد المخطوطة إليّ. عنواني «المؤقت» في موسكو بشارع تفيرسكايا، بغرف «أنجليا». إيفان بتروفيتش كاميشيف.

ملاحظة: سأقبل المكافأة المالية التي تراها لجنة التحرير.

العام والتاريخ.



الآن بعد أن تعرّف القراء على رواية كاميشيف، سوف أواصل حديثي معه الذي انقطع. قبل أي شيء آخر، عليّ أن أذكر أنني لم أحفظ الوعد الذي وعدته به في بداية القصة. لم تُنشر رواية كاميشيف دون اقتطاعات إطلاقاً كما وعدته، بل حُذِف منها الكثير. كل ما في الأمر هو أنه لم يكن بالإمكان نشر «دراما في حفلة صيد» في صحيفة دار عنها الحديث في الفصل الأول من هذه القصة. توقفت الصحيفة عندما وصلت المخطوطة... أما الجهة التي وافقت على نشر رواية كاميشيف، وجدت أنه من غير الممكن أن تنشرها دون حذف بعض الأجزاء^(١٠٥).

(١٠٥) وصفها مرة بالقصة، ومرة بالرواية من قبل تشيخوف، ولم يحدث سهواً مني (المترجم).

أثناء عملية النشر، كانوا يرسلون إليَّ بروفة الطباعة الخاصة بكل فصل منها، مُرفق بها طلب إجراء بعض التغييرات. لم أُرِد أن أحمل على عاتقي خطية إجراء تغيير غريب، ووجدتُ أنه من الأفضل والأُنفع أن أحوذ تلك الأجزاء تمامًا، بدلًا من أضع تغييرات غير ملائمة. بعد موافقتي، أزالَت هيئة التحرير مواضع عديدة، كانت مُلفتة للنظر في سخريتها وإسهابها وما يتسم به أسلوبها من إهمال أدبي. تطلَّب حذف تلك المقاطع الحذر والوقت، وهذا هو السبب في تأخر الكثير من الفصول. بالمناسبة، حذفنا جزئين يتضمنان وصفًا لأُمسيات العربدة؛ أُمسية منهما جرت في منزل الكونت، والأُخرى على ضفاف البحيرة. حُذِف كذلك جزء متعلق بمكتبة بوليكارب، وطريقة قراءته الأُصيلة، حيث وجدنا في ذلك الجزء الكثير من الإطناب والمغالة.

الفصل الذي حظي بتأييدي أكثر من أي فصل آخر، هو أكثر الفصول التي استاءت منها هيئة التحرير، وهو الفصل الذي وصف المقامرة اليائسة بأوراق اللعب التي انخرط فيها خدَّام الكونت. أكثر اللاعبين حماسة كان فرانس البستاني والعجوز الشمطاء... كانا يلعبان ستوكولكا والأوراق الثلاث^(١٠٦). أثناء التحقيقات التي كان كاميشيف يجريها، مرَّ بسرّادق، ودخله، ورأى تلك اللعبة المجنونة. انهمك في اللعب كل من العجوز الشمطاء وفرانس... وبشيخوتسكي. كانوا يلعبون ستوكولكا بطيش، مراهنين على تسعين كوبيكًا وسرج يصل

(١٠٦) ألعاب مقامرة.

ثمنه إلى ثلاثين روبلاً. لحق كاميشيف باللاعبين، ونظفها تمامًا من كل ما لديها، كما ينظف المرء طائر الحجل قبل أن يأكله. رغب فرانس المهزوم في مواصلة اللعب؛ فتوجه إلى البحيرة حيث أخفى نقوده هناك. تتبع كاميشيف طريقه، وعرف مخبأ المال، وسرق البستاني، ولم يترك له كوبيكًا واحدًا. أرسل هذا المال المسروق إلى ميخي الصياد. تُقدّم هذه الصدقة الغربية وصفًا مميزًا لشخصية المحقق المتقلبة، لكنها كُتبت بإهمال أدبي، وامتألت محادثات اللاعبين بمثل تلك الأوصاف الفاحشة، حتى إن هيئة التحرير لم توافق على الاكتفاء بإجراء بعض التعديلات عليها.

حُذفت كذلك بعض تفاصيل لقاءات أولجا بكاميشيف، كما تم حذف تفاصيل أحد لقاءاته بنادينكا... إلخ. لكنني أظن أن ما نُشر يكفي للكشف عن سمات بطلي، على الأقل يكفي للأذكىاء (باللاتينية في الأصل).

بعد مرور ثلاثة أشهر تقريبًا أبلغني حارس الصحيفة أندريه بوصول «السيد ذو القبعة المزينة بعقدة من الأشرطة». قلتُ له:
- أدخله!

دخل كاميشيف، أحمر الوجنتين، بنفس الصحة والجمال الذين بدا بهما منذ ثلاثة أشهر. كانت خطواته هادئة كما كانت سابقًا. وضع قبعته على النافذة بحذر، حتى كان بالإمكان أن يظن المرء أنه وضع شيئًا ثقيلًا. لمع في عينيه الزرقاوين شيء طفولي، طيب تمامًا، مثلما حدث سابقًا. جلس بحذر وبدأ حديثه، مُبتسمًا:

- عذراً على إزعاجك مجدداً. سامحني... حسناً، ما العقوبة التي
حُكِمَ بها على مخطوطتي؟
- مذنبه، ولكنها تستحق حكماً مخففاً.
- ضحك كاميشيف، ومسح أنفه بمنديل معطر، وسأل:
- أستمعون بها إذن في نار الموقد؟
- لا، ولماذا هذه الحدة؟ إنها لا تستحق إجراءات عقابية. سنستخدم
معها وسائل إصلاحية.
- هل تحتاج إلى تعديلات؟
- نعم، تحتاج إلى بعض التعديلات، بالاتفاق بيننا.
- صمتنا ربع دقيقة تقريباً. تعالت ضربات قلبي، ودقت العروق في
صدغي، لكنني لم أنتو أن أكشف عن اضطرابي. كررتُ:
- بالاتفاق بيننا... قلت لي في المرة السابقة أن حبكة قصتك تستند
إلى حادثة حقيقية.
- نعم، وأنا الآن مستعد لتكرار الأمر ذاته. إن كنت قد قرأت روايتي،
فلي الشرف أن أقدم نفسي إليك: أنا زينوفيف!
- هل كنت إذن إشبين أولجا نيكولايفنا حقاً؟
- كنت إشبيناً وصديقاً للعائلة كذلك. ألا أبدو مُرهفاً في
المخطوطة؟
- قال كاميشيف ذلك وضحك، وضرب ركبته بيده واحمر وجهه
وأكمل:

- إنسان جيد، أليس كذلك؟ أستحق الجلد، ولكن لم يكن هناك من يجلدني!

- حسنًا... قصتك تروق لي. إنها أفضل وأمتع من روايات جريمة أخرى كثيرة. كل ما في الأمر أنه يتوجب علينا بالاتفاق معك أن نجري عليها بعض التغييرات المهمة.

- حسنًا، قل لي مثلاً ما الذي يجب أن يتغير فيها؟

- بناء الرواية العام ذاته، وملاحظتها. إنها تتضمن كل ما هو موجود في أي رواية جريمة أخرى: جريمة - أدلة - عقوبة، وحتى حكم بالأشغال الشاقة لخمسة عشر عامًا، لكنها تفتقر إلى الشيء الأهم.

- ما هو تحديدًا؟

- المذنب الحقيقي.

فتح كاميشيف عينيه على آخرهما، ونهض من مكانه. بعد برهة من الصمت قال:

- بصراحة لا أفهم قصدك. إن كنتَ لا تعتبر أن المذنب الحقيقي هو الذي طعن وخنق، فأنا... أنا لا أعرف من يجب أن يكون إدّن. صحيح أن المجرم نتاج للمجتمع، والمجتمع مذنب، ولكن... ولكن إن انتقلنا إلى تلك الاعتبارات الأعلى، سيتوجب علينا أن نكف عن كتابة الروايات، ونكتفي بالملخصات.

- وأين نجد هنا تلك الاعتبارات الأعلى؟ لم يكن أوربنيين هو القاتل.

سألني كاميشيف وقد اقترب مني:

- كيف ذلك؟

- ليس أوربنيين.

- ربما. الإنسان خطأً (باللاتينية في الأصل) والمحققون غير كاملين. كثيرًا ما تحدث أخطاء قضائية. ولكن هل تجد أننا أخطأنا في هذه القضية؟

- لا، أنت لم تخطئ، ولكنك أردت أن تخطئ.

ابتسم كاميشيف قائلاً:

- عذرًا لكني لا أفهمك مجددًا. لو أنك ترى أن التحقيق قد ارتكب خطأً، أو، حتى بقدر ما أحاول أن أفهم، أن ثمة خطأً متعمدًا قد ارتكبت، فكلي فضول أن أعرف وجهة نظرك. من تظن أنه القاتل؟
- أنت!

حدّق كاميشيف فيّ بدهشة، بل بهلع، واحمر وجهه، وتراجع خطوة إلى الخلف. ثم التفت، ومضى صوب النافذة وضحك قائلاً:

- وها هي المفاجأة!

تمتم بذلك، مُطلقًا أنفاسه على زجاج النافذة، راسمًا بتوتر بعض الأشكال عليه.

نظرتُ إلى يده التي يرسم بها الأشكال، وبدأ أني تعرفت فيها على تلك اليد الحديدية القوية التي تمكنت ذات يوم أن تخنق كوزما النائم، وتُمزّق جسد أولجا الهش. فكرة أني أرى القاتل واقفًا أمامي ملأتُ روحي بشعور غير معتاد بالهلع والخوف. لا أقصد أنني أنا الخائف والهلع... لا! بل أقصد شعوره هو... خوف وهلع من أجل ذلك العملاق الجميل الأنيق... خوف وهلع على الإنسان بوجه عام. كرّرت عبارتي:

- أنت القاتل!

ضحك كاميشيف، وهو لا يزال لا ينظر إليّ:

- إذا لم تكن تمزح، دعني أهنتك على اكتشافك. لكن إن حكمنا على الأمر من خلال رعشة صوتك وشحوبك، يصعب أن نفترض أنك تمزح. أنت متوتر حقًا!

التفت كاميشيف إليّ بوجهه المتوهج، وقد ارتسمت عليه ابتسامة متكلفة، وواصل حديثه قائلاً:

- يشير فضولي أن أعرف من أين أتيت بمثل تلك الفكرة! لم أكتب شيئًا يشير إلى ذلك في الرواية. الأمر مثير للفضول حقًا. احك لي من فضلك! يجدر بك أن تجرب هذا الشعور مرة واحدة في العمر؛ شعور أن ينظروا إليك كقاتل!

قلتُ:

- أنت قاتل! لا يمكنك حتى أن تخفي ذلك. لقد فشلت في الرواية، وإلى الآن تُمثل بطريقة سيئة.

- أمر مثير حقًا! بشرفي كلي فضول أن أستمع إليك.

- إن كنت تشعر بالفضول فاسمع إذن!

قلتُ ذلك وقفزت من مكاني، مضطربًا، وذرعتُ الغرفة. نظر
كاميشيف إلى الباب، وأغلقه بمزيد من الإحكام. هذا الحذر كشف عن
شعوره الحقيقي. سألته:

- ممّ تخاف؟

ارتبك كاميشيف، وسعل، وأشاح بذراعه قائلاً:

- لست خائفًا من شيء، ولكنني فعلت ذلك ببساطة. كل ما في الأمر
أنني ألقيتُ نظرة على الباب. ألا يناسبك ذلك؟ حسنًا، احك!

- أسمح لي بطرح بعض الأسئلة؟

- بقدر ما تشاء.

- لكنني أحذرك من أنني لستُ محققًا، ولستُ ماهرًا في
الاستجواب. لذلك لا تنتظر استجوابًا منظمًا ومنهجيًا، ولا
تحاول إرباكي أو قلقلي. قل لي أولاً أين اختفيتَ بعد أن تركتَ
المعسكر المخيم المقام على حواف الغابة إبان حفلة الصيد؟

- ذكرتُ ذلك في القصة؛ عدتُ إلى المنزل.

- لقد حذفَت وصف طريقك عمدًا من الرواية. هل سرتَ عبر
الغابة؟

- نعم.

- كان بالإمكان إذن أن تلتقي بأولجا، أليس كذلك؟
- ابتسم كاميشيف قائلاً:
- نعم، كان بالإمكان حدوث ذلك.
- وهل التقيتَ بها؟
- لا، لم ألتقِ بها.
- لقد نسيتَ في تحقيقك أن تستجوب شاهداً مهماً جداً؛ إنه أنت تحديدًا! هل سمعتَ صرخة الضحية؟
- لا يا أخي. أنت لا تعرف على الإطلاق كيف يجب أن يُجرى الاستجواب.
- أثارت هذه اللفظة الحميمية «أخي» اضطرابي. لم تكن ملائمة مع صنوف الاعتذار والاضطراب السالفة التي بدأ بها حديثنا. سرعان ما لاحظت أن كاميشيف يُحدِّق فيّ بتسامح ومن علو، بل بدا إنه أُعجب بعدم خبرتي وعدم قدرتي على الخلاص من وسط حشد الأسئلة التي تثير اضطرابي.
- واصلتُ حديثي:

- فلنفترض أنك لم تلتقِ بأولجا، بالرغم من أن الأمر كان أصعب على أوريبنين منك أن يلتقي بأولجا، وذلك لأنه لم يعرف أنها في الغابة، وبالتالي لم يبحث عنها، بينما أنت كنت ثملاً وغاضباً، ولم يكن بإمكانك ألا تبحث عنها. لا بد أنك بحثتَ عنها، وإلا لماذا كنت ستعود إلى المنزل عبر الغابة، وليس عبر الطريق؟

ولكن لنفترض أنك لم ترها... ما تفسير حالتك المزاجية الكئيبة والهائية في مساء ذلك اليوم المشؤوم؟ ما الذي دفعك إلى قتل البيغاء الصارخ بعبارة عن زوج قتل زوجته؟ يبدو لي أنه ذكرك بنذالتك. استدعوك ليلاً إلى منزل الكونت، وبدلاً من أن تهرع إلى العمل، تباطأت حتى وصول الشرطة، لمدة يوم كامل تقريباً، وربما أنت نفسك لم تلاحظ ذلك. لا يمكن لمحقق أن يتأخر بتلك الصورة إلا لو كان يعرف المجرم فعلاً. كنت تعرف المجرم. من ناحية أخرى، لم تقل أولجا اسم القاتل لأنه كان عزيزاً عليها. لو كان زوجها هو القاتل، لذكرت اسمه. لو كانت في حالة تسمح لها بالإبلاغ عنه لعشيقها الكونت، لاتهمته بالقتل دون أن يكلفها ذلك شيئاً. لم تكن تحبه، ولم يكن عزيزاً عليها. لقد أحببتك، وأنت تحديداً من كنت عزيزاً عليها. كانت تُشفق عليك. اسمح لي بأن أسألك: لماذا تأخرت إلى هذا الحد في توجيه السؤال مباشرة إليها عندما استعادت وعيها؟ لماذا سألتها أسئلة لا علاقة لها أبداً بالموضوع؟ اسمح لي بأن أقول إنك فعلت كل ذلك من أجل إطالة الوقت، بهدف ألا تذكر اسمك. كانت أولجا تحتضر. لم تقل في روايتك كلمة واحدة عن الانطباعات التي أثارها موتها بداخلك. هنا يمكنني تبين حذرك. أنت لم تنس أن تكتب عن كؤوس الخمر التي شربتها، بينما يمر حدث هام كموت «الفتاة ذات الرداء الأحمر» في روايتك دون أثر. لماذا؟

- أكمل... أكمل...

- أجريتَ تحقيقك بمتتهى السوء. يصعب أن أفترض أنك رغم ذكائك وبراعتك قمت بذلك عن غير عمد. تحقيقك بأكمله يُذكّرني بخطاب كُتِبَ بأخطاء نحوية عن عمد. المبالغة تكشف سرك. لماذا لم تفحص مسرح الجريمة؟ ليس لأنك نسيت ذلك أو اعتبرته أمراً غير مهم، بل لأنك انتظرت أن يزيل المطر آثارك. لم تكتب إلا القليل عن استجواب الخدم. ذلك يعني أنك لم تستجوب كوزما إلى أن عثروا على سترته الداخلية المملوطة بالدماء. من الواضح أنك لم ترد توريطه في القضية. لماذا لم تستجوب الضيوف الذين عربدوا معك على حافة الغابة؟ لقد رأوا أوريينين ملطّخاً بالدماء وسمعوا صرخة أولجا. كان عليك إذن أن تستجوبهم. لكنك لم تفعل ذلك، لأنه كان من المحتمل أن يتذكر أحدهم أنك توجهت إلى الغابة قبل الجريمة بوقت قصير. ربما يكونوا قد استجوبوا بعد ذلك، لكنهم نسوا الأمر.

قال كاميشيف، مجففاً أنفه:

- يا للمهارة! أكمل... أكمل!

- ألا يكفيك كل ما قلته؟ إذا كنت تريد أن أثبت بصورة نهائية أنك أنت تحديداً من قتل أولجا، سيتوجب عليّ أن أذكرك بأنك كنت عشيقها؛ العشيق الذي استبدل به إنسان آخر تزدريه! يمكن للزوج أن يقتل بدافع الغيرة، وأظن أن العاشق يمكن أيضاً أن يفعل المثل. دعنا الآن نتقل إلى كوزما. استناداً إلى الاستجواب

الأخير الذي تم عشية موته، كان يقصدك أنت. أنت من جففت يدك في سترته الداخلية، وأنت من نعتته بالخنزير. لو لم يكن أنت من فعل ذلك، فلماذا توقفت إذن عن استجوابه عند أهم نقطة؟ لماذا لم تسأله عن لون ربطة العنق التي قال لك إنه تذكرها. لماذا سمحت لأوربينين بالسير في الرواق في الوقت الذي تذكر فيه كوزما اسم القاتل؟ لماذا لم تُبكر أو تتأخر عن فعل ذلك؟ من الواضح أنك كنت في حاجة إلى شخص آخر تلقي الجريمة على كاهله. كنت في حاجة إلى إنسان يمكنه أن يتنزه ليلاً في الرواق. قتلت إذن كوزما، حتى لا يكشف أنك القاتل.

قال كاميشيف ضاحكاً:

- حسناً... يكفي ذلك! لقد انتابتك تلك الحمى، وشجبت إلى درجة أنه يبدو عليك أنك سوف تفقد وعيك في أي لحظة. لا تواصل. أنت محق فعلاً: أنا القاتل.

ساد الصمت. ذرعت المكان من زاوية للأخرى، وكذلك فعل كاميشيف. واصل حديثه:

- أنا القاتل... لقد التقطت السر من ذيله بمهارة. نادراً ما ينجح أحد في ذلك. أكثر من نصف قرائك سيسبون أوربينين العجوز وسوف يندهشون من مدى حدة ذكاء المحقق.

دخل مساعدي الغرفة، وقطع حديثنا. ما إن لاحظ أنني مشغول ومضطرب، حتى دار حول مكتبي، ونظر إلى كاميشيف بفضول، ثم خرج. بخروجه اقترب كاميشيف من النافذة، وأطلق بعض أنفاسه على

زجاجها. بدأ حديثه بعد فترة صمت:

- مرت على ذلك ثمانية أعوام. أخفيتُ هذا السر بداخلي طوال تلك المدة، لكن لا يمكن للسر والدماء الحية أن يتسقا داخل الجسد. يستحيل أن تظل إلى الأبد عارفاً بما لا يعرفه شخص آخر. شعرتُ طوال تلك الأعوام الثمانية بالعذاب. لا أقصد أن ضميري كان يعذبني... لا! لا يشغلني الضمير، ويمكن للمرء أن يخنقه بسهولة بالتفكير في مدى إمكانية مد حدوده. وعندما لا تؤتي الأفكار عملها في خنق الضمير، أخنقه بالخمير والنساء. بالمناسبة، حققتُ نجاحات سابقة في مجال النساء. أمر آخر هو الذي يُعذبني. بدا لي طوال الوقت أنه من الغريب أن ينظر الناس إليّ نظرتهم إلى إنسان عادي... طوال تلك الأعوام الثمانية لم ينظر إليّ أحد مطلقاً بفضول. بدا لي أنه من الغريب أنني لستُ في حاجة إلى الاختفاء؛ أن سرّاً مريعاً يكمن بداخلي، وفجأة أتمشى في الشوارع وأحضر ولائم الغداء وأغازل النساء! مثل هذا الموقف بالنسبة لمجرم غير طبيعي وباعث على العذاب. لم أكن لأتعذب لو كنت قد اضطررت إلى التواري والاختفاء. إنه الخبل يا أخي! في النهاية اعترتني الحماسة... أردتُ فجأة أن أكشف عما بداخلي بطريقة ما، وأسكب كل ما يعتمل داخل رأسي، وأكشف للجميع سري أو شيئاً من هذا القبيل. وهكذا كتبت هذه القصة، الأمر الذي لن يفشل أحد معه في معرفة سري إلا لو كان محدود الذكاء. ليست هناك صفة واحدة في العمل إلا وتقدم مفتاحاً لحل اللغز، أليس

كذلك؟ ربما تكون قد أدركت الأمر فوراً. عندما كتبتُ الرواية،
وضعت في اعتباري القارئ المتوسط.

قوطعنا مجدداً. دخل أندريه، وقدم لنا صينية عليها كوبا شاي.
صرفته سريعاً.

ضحك كاميشيف وواصل:

- الأمر أسهل الآن. أنت تنظر إليّ بصفتي إنساناً غير عادي؛ إنساناً
يخفي سرّاً، ولذلك أشعر أنني في وضع طبيعي، ولكن... ولكن
الساعة قد بلغت الثالثة بالفعل، وثمة عربة في انتظاري.

- انتظر، وضع قبعتك. لقد حكيت لي عما دفعك إلى كتابة هذا
العمل. قل لي الآن: كيف قتلت؟

- أتريد أن تعرف ذلك كتتمة لما قرأته؟ قتلت تحت تأثير سورة
الغضب. إنهم الآن يدخلون ويشربون الشاي تحت تأثير سورة
الغضب! أنت نفسك وسط اضطرابك أمسكت بكوبي بدلاً من
كوبك، وتُدخن أكثر من المعتاد. الحياة برمتها عبارة عن سورة
غضب ساحقة... هذا ما يبدو لي. عندما تمشيت في الغابة،
كانت فكرة القتل بعيدة تماماً عن ذهني. تمشيتُ في الغابة لهدف
واحد؛ أن أجد أولجاً وأواصل إيذاءها. عندما أتمل، أشعر دائماً
برغبة في إيذاء أحدهم. وجدتها على بعد مائتي خطوة تقريباً من
المخيم المقام على حافة الغابة. كانت واقفة تحت الشجرة، تنظر
إلى السماء باستغراق شديد. ناديتها. ما إن رأتني حتى ابتسمت

ومدت إليَّ يدها، وقالت: «لا توبخني، أنا تعيسة». بدت في هذا المساء جميلة إلى درجة أنني -وسط هذا السكر- نسيت كل شيء في العالم وجذبتها إلى أحضاني. بدأت تُقسم لي أنها لم تحب أحدًا سواي، وكان ذلك صحيحًا... كانت تحبني، و... في خضم قسمها، خطر على ذهنها أن تقول لي عبارة مقرزة: «كم أنا بائسة! لو لم أتزوج بأوربيين لكنتُ متزوجة الآن من الكونت!»، أثَّرت عليَّ هذه العبارة كدلو سكب أحدهم ماءه عليَّ. انفجر كل ما كان يغلي بصدري. تملكني شعور بالتقرز والاشمئزاز. أمسكت بهذا الكائن الصغير الفاسد من كتفه، وطرحته على الأرض كما لو أنه كرة. وصلت كراهيتي إلى حدودها القصوى... حسنًا... أجهزتُ عليها... أمسكت بها وأجهزت عليها. أما قصة كوزما فلا بد أنك تعرفها.

حدَّقتُ في كاميشيف. لم أقرأ على وجهه ندماً أو أسفاً. «أمسكت بها وأجهزت عليها»... قالها بسهولة كما لو أنه يقول: «أمسكت بالسيجارة ودختها». تملكني أنا أيضاً شعور بالضغينة والاشمئزاز... أدَّرت له ظهري، وسألتُ بهدوء:

- وهل أوربينين لا يزال في سجنه محكوماً عليه بالأعمال الشاقة؟
- نعم. يُقال إنه مات في الطريق، لكن الأمر غير مؤكد بعد، وماذا إذن؟

- تسألني: ماذا إذن؟! إنسان بريء يعاني وتسالني ماذا إذن؟

- وماذا يمكن أن أفعل؟ هل أذهب إلى هناك وأعترف؟

- أفترض ذلك.

- حسنًا، دعنا نفترض ذلك. أنا لا أمانع أن أحل محل أوربينين،

لكنني لن أستسلم دون قتال. فليأخذوني لو شاءوا، لكنني لن

أذهب إليهم بنفسني. لماذا لم يأخذوني عندما كنتُ بين أيديهم؟

أثناء جنازة أولجا، صرختُ كثيرًا، وتلبستني نوبات هستيرية إلى

درجة أنهم حتى لو كانوا عميًّا لاستطاعوا رؤية الحقيقة. لست

أنا المذنب في كونهم أغبياء.

- أرى أنك قذر.

- هذا طبيعي، وحتى أنا أراني قذرًا.

ساد الصمت. فتحتُ سجل الحسابات، وبدأتُ أقرأ الأرقام بصورة

آلية. تناول كاميشيف قبعته، وقال:

- أرى أن وجودي يجعلك تشعر بالاختناق. بالمناسبة، ألا تود أن

ترى الكونت كارنييف؟ ها هو جالس بالعربة!

نظرت من النافذة ولمحته. كان جالسًا في العربة، موجَّهًا مؤخرة

رأسه إلينا. بدا ضئيل الحجم، محدودبًا، يرتدي قبة قديمة، وياقته باهتة.

كان من الصعب أن يتعرف فيه المرء على أحد ممثلي هذه المسرحية!

قال كاميشيف:

- عرفتُ أن ابن أوربينين يعيش هنا في موسكو في غرف أندرييف.

أريد أن أدبّر الأمر بحيث يأخذ الكونت منه صدقة. فليحظْ
أحدهم بعقاب ما! الآن أقول لك وداعًا. (بالفرنسية في الأصل).
أوماً كاميشيف برأسه، وخرج سريعًا. جلست إلى مكتبي، وغصت
في أفكار مريرة.
شعرتُ بالاختناق.



